سيبويه

إمام النحاة

تأليف

علي النجدي ناصف



المطبعة العثمانية بالدراسة — ت ٩٣٥٤٥١




رفع
المسهم
غفر الله له ولوالديه

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

طلع كتاب سيبويه إمام النحاة على قرائه أول ما طلع ، فتلقوه بالقبول ، وأقبلوا عليه قراءة ودرسا ، ثم كان منهم من رجع إليه ، واستمد منه فيما يعالج من بحث ، أو يصنف من كتاب .

ومرجع ذلك فى صميم الأمر إلى شخصية سيبويه نفسه ، إذ كان — كما يعلم الناس — علما شامخا من أعلام ثقافتنا الذين لهم فى التاريخ على مر العصور ذكر مرفوع ، ومقام معلوم ، كما لهم فى الدراسات العربية على اختلافها أثر كبير أو قليل ، أو لهم بها صلة من قريب أو بعيد .

وقد عنيت منذ خرج الكتاب فى طبعته الأولى بتفقده ، وترديد النظرة الناقدة فيه كلما دعت داعية ، أو عرضت مناسبة . وما أكثر ما تدعو الداعية أو تعرض المناسبة لمن كان مثلى منقطعا للعربية تدريسا وتأليفا .

ولم أعدم فى أثناء ذلك أن أجد لجديد مما قرأت مكانا فيه ، أو أعثر على كلمة من كلماته غيرها خير منها ، أو أصادف عبارة من عباراته لو تناولها التحوير من هنا أو من هناك لكانت أحكم أداء ، أو أوضح دلالة . وما تزال أعمال الناس قابلة لمزيد يتدارك نقصا ، أو بحاجة إلى إعادة نظر تزيده تمحيصا . فالله — جل جلاله — هو وحده المنفرد بالكمال .

وقد حرصت على تدوين الملاحظات التى بدت لى فيه ، والفوائت التى نبهنى إليها بعض الأصدقاء ، مما ندّعنى فى الفهارس التى صنعتها لشواهد سيبويه ، والإحصاء الذى أحصيته لما نقل عن النحاة الآخرين . وإنى لذاكر هنا بالحمد



والعرفان هذا العون الذى أعانتنيه هؤلاء الأصدقاء الأصفياء ، وداع لهم أن يجزيهم الله عليه أوفى الجزاء .

ولما أن هممت بطبع الكتاب للمرة الثانية لم يفتنى أن أتدارك من فائته ، ولا أن أغير من كلماته ، وأحور من عباراته ما رأيته حقيقا بالتغيير أو التحوير .

واليوم يسعدنى أن أقدمه إلى قرائه فى هذه الطبعة ، وأرجو أن يكون بما صنعت له أدنى إلى الكمال ، وأجمع لأسباب التمحيص .

ومن الله التوفيق والرشاد . وهو وحده الهادى إلى سواء الصراط .

القاهرة فى { ١٠ من ربيع الأول سنة ١٣٩٩
٧ من فبراير سنة ١٩٧٩ }

علي النجدي ناصف

فاتحة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والفضل من الله ، والعون عونه ، والهدى هداه ، والصلاة والسلام على الأنبياء والمرسلين، وعلى نبيه ورسوله. صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين إلى يوم الدين .

وبعد فقد اتجهت عناية العلماء والكتاب منذ أمد غير بعيد إلى دراسة أعلام الإسلام والترجمة لهم ، بما يبسط حياتهم ، ويصور شخصياتهم ؛ ويكشف سر العبقرية والنبوغ عندهم ، ويردهم إلى الحياة بيننا والإيحاء إلينا ، سيراً طيبة ومثلا عالية ؛ ومآثر باقية .

وذلك منهم جهد مذكور ، وعمل مشكور : فيه بر بأولنا ، وخير لآخرنا ، إذ يصل الحاضر العتيد بالماضى التليد ، ويعرف السلف الصالح للشباب الطامح ، فيأخذ عنه ماياخذ عن بينة ، ويدع مايدع عن بينة ، لا تمسكه عليه عصبية ، ولا تصرفه عنه ضلالة ؛ فيمضى فى الحياة على سنن القصد والحكمة .

على أن تلك العناية تكاد تكون مقصورة أو كالمقصورة على الأعلام من عظماء التاريخ ، وبناة الدول، وأمراء البيان. أما الأعلام من العلماء ، ولاسيما اللغويين، فليسوا هناك إلا قليلا . وقد يكون مرد ذلك فى جملة الأمر إلى دراسة العلماء نفسها : فى طبيعتها ، وقلة احتفاء الكثرة بها ، وفتور إقبالهم عليها .

وإذا صح أن يستقيم من ذلك شفاعة تسمع ، أومعذرة تقبل فى دنيا الواقع، ومقاولات السوق . فما ينبغى أن يستقيم منه شىء فى تسامى الوجدان ، وتسلف الإحسان ، واقتضاء العرفان . نعم ، فقد فكر أولئك العلماء فينا ، وصنعوا لنا على بعد الزمن ، وجهد العمل . ونحن إذ ندرسهم ، وننشر حياتهم . إنما نصنع لأنفسنا قبلهم ، بل لأنفسنا دونهم ، فقد رحلوا عنا ، وتقطع بينهم وبيننا ، وجزاهم ربهم بما عملوا جزاء حسابا .

وأولى الناس بأداء هذا الواجب ، واحتمال أعبائه — أولئك الذين خلفوهم فى رسالتهم ، وتجردوا لإبلاغها عنهم ؛ لطول ملازمتهم لهم ، وتمرسهم بآثارهم .

ولقد صنع سيبويه للنحو ما لم يصنع أحد ، حتى ليعد بحق أستاذه الأشهر ، وإمامه المقدم ، ويعد كتابه فيه معيار العربية ، وكنزاً من كنوزها الزاخرة ، بما اشترع لها ، وجمع من ذخائرها . وقد عرف القدماء فضله ، وأنزلوه فى أئمة اللغة منزلته ، وآتوا الكتاب حقه من الدرس ، والبحث ، والنقد ، والتأليف . وذهب الأندلسيون فى هذا المضمار بالشأو البعيد ، والبلاء الحميد . وقد مضت مصر معهم شأواً ، وأبلت بلاء ، ولكنه دون ما تبلغ الهمة ويستشرف الرجاء .

والمؤلف إذ يؤلف هذا الكتاب ، إنما يحاول واجباً ، ويعزز ماضياً ، ويهدى إلى أبى النحو تحيته فى الخالفين ، كما أهدى الآباء من قبل تحيتهم إليه فى السالفين . ومَن أحق بعرفان الفضل ، والمجازاة به ، والأخذ على المحجة فيه من مصر ، التى ترث الوفاء عن النيل طبعاً ، وتعتقده عن الإسلام ديناً ؟ .

وهو يدير القول فى هذا الكتاب على مقدمة ، وثلاثة أبواب ، وتذييل : وقد ألم فى المقدمة إلمامة يسيرة عاجلة بأحوال النحو ، والشكوى منه ، ورأى فيما ينبغى له . وتحدث فى الباب الأول عن عصر سيبويه فى نواحيه السياسية والاجتماعية والعقلية ، على قدر ما يتطلب المقام ، ويتسع النطاق ، وتحدث فى الثانى عن حياة سيبويه ، والأحداث التى عرضت له ، والمؤثرات التى صنعته ، وتحدث فى الباب الثالث عن الكتاب من نواحيه المختلفة كما تمثلت له . أما التذييل فيشتمل على فهارس لشواهد سيبويه ، وعلى رأى فى إحصائها وضبط عددها .

ويطيب لى قبل أن أفرغ من القول هنا أن أزجى الشكر جزيلا ، والثناء جميلا إلى الأستاذ الصديق محمد أبو الفضل إبراهيم ، والأستاذين الزميلين : على السباعى ، ومحمد الزفزاف — على ما يسروا من جهد ، وآتوا من مراجع . جزاهم الله عن المودة والعلم خيراً .

على النجدى ناصف

القاهرة { مستهل رجب سنة ١٣٧٢
١٦ من مارس سنة ١٩٥٣



تقديم

القرآن أول ما درست العرب من كتاب، أنزله الله بلغتهم على رجل منهم، معجزة له، ودستوراً لدعوته، وهدى ورحمة للعالمين؛ فأعرضوا عنه، وجحدوا به، ثم أقبلوا عليه، واستمعوا له، واتبعوا سبيله فصنع لهم ما لم يصنع كتاب لأمة: ألف بين قلوبهم، وغير ما بهم، وجعل منهم أمة ذات حضارة باذخة وملك كبير.

وقدر العرب صنيع القرآن لهم، وفضله عليهم، فعنوا به؛ وافتنوا في دراسته والحفاظ عليه بما لم يسمع له نظير في التاريخ: استنبطوا كنوزه، ووضعوا علومه، حتى كانت ثقافتهم أول الأمر تدور كلها حوله، إما بالأخذ منه، أو التوسل إليه.

بكروا على النحو يضعونه، ويدونون أصوله وقواعده[1]؛ إذ كان فشو اللحن أول ما ظهر من آثار الفتح وخلاط الأعاجم. واللحن من أعدى أعدائهم؛ لأنه آفة البيان، وهو إليهم حبيب، وعليهم عزيز.

وهذا رسول الله صلوات الله عليه، يحدث بفصاحته، ويذكر أصالتها في قومه وبيئته، وينفي اللحن عنه، فيقول: «أنا أعرب العرب: ولدتني قريش، ونشأت في بني سعد بن بكر. فأنى يأتيني اللحن؟[2]».

على أن العرب لم تخف اللحن على البيان وحده، ولكن على القرآن معه، بل على القرآن أولا، ففيه إذا اتخذ سبيلا إليه فساد كبير وشر مستطير.

وليس من همي هنا أن أتحدث عن وضع النحو وواضعه؛ فلذلك مقام

---

(١) راجع الفهرست لابن النديم: ٦٠: ٦١.

(٢) الجامع الصغير للسيوطي: ١: ٣٦٢، ويروى بروايات أخرى والرأي فيه مختلف راجع المصدر السابق: ٣٦٣، والنهاية لابن الأثير: ١: ١٠٣، وكشف الخفا ١: ٣٠٠ — ٣٠١، والمغني: ١: ٩٧، وتاريخ آداب العرب: ٢: ٢٩٩.

خاص ، هو أشبه به ، وأحق أن يكون فيه ، ولكن الذى يهمنى الآن أن أذكره — أن النحو مضى فى طريقه قدما ، لا ينى ولا يتعثر ؛ فقد كان الباعث عليه قويا ، والحاجة إليه ملحة ، ولا سيما الموالى ؛ لعجزهم كان عن البيان ، وهو عدتهم فى المزاحمة ، ووسيلتهم إلى السلطان .

ومضى اللحن كذلك يتفاقم ويستشرى ، حتى أصبح هما ثقيلا ، وخطبا جسيما ؛ فلم يكن بد من التعاون واجتماع الجهود لدرئه واتقاء شره ، وقد كان ذلك على ما يجب أن يكون : اشتد النقاد فى إنكاره والزراية عليه ، وجد العلماء فى إسعاف الناس بأسباب السلامة منه ، وبارك العلية حربه وأصحاب السلطان ، بالمؤاخذة عليه ، والإغراء به ، والتحرز منه ؛ غيرة على الدين واللغة ، وحرصا على البيان الرفيع أن يبقى فيهم وفى أبنائهم وأولياء عهودهم ، فما زال كعهد الناس به سمة النبل وشارة الكرامة والسيادة .

قال عبد الملك بن مروان : الإعراب جمال للوضيع ، واللحن هجنة على الشريف[1] .

وتكلمت هند بنت أسماء بن خارجة فلحنت وهى عند الحجاج ، فقال لها : أتلحنين وأنت شريفة وفى بيت قيس ؟ قالت أما سمعت قول أخى مالك لامرأته الأنصارية ؟ قال : وماهو ؟ قالت قال :

منطق صائب وتلحن أحيا نا وخير الحديث ما كان لحنا

فقال لها الحجاج : إنما عنى أخوك اللحن فى القول ، إذا كنى المحدث عما يريد ولم يعن اللحن فى العربية فأصلحى لسانك[2] .

---

(١) العقد الفريد : ٢ : ٤٧٨ .

(٢) أمالى المرتضى : ١ : ١١ ، وفهم الجاحظ هذا البيت كما فهمته أسماء ، اللحن من الجوارى الظراف ، ومن الكواعب النواهد ، واستشهد بأبيات مالك ابن أسماء التى منها البيت المذكور هنا (البيان والتبيين : ١ : ١٤٦ — ١٤٧) ويروى أن الجاحظ قيل له فى ذلك ، فقال فطنت له بعد ، قيل : له فغيره من كتابك ، فقال : كيف لى بما سارت به الركبان ؟ (أمالى المرتضى : ١ : ١١ — ١٢) .



وقيل لعبد الملك بن مروان : لقد عجل عليك الشيب يا أمير المؤمنين ، قال شيبنى ارتقاء المنابر وتوقع اللحن[1] .

وكان سليمان بن عبد الملك يسخر من لحن المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث ، فيقول : إنه يفخم اللحن كما يفخم نافع بن جبير الإعراب[2] . وقال مسلمة بن عبد الملك : إنى لأحب أن أسأل هذا الشيخ يعنى عمرو بن مسلم ، فما يمنعنى إلا لحنه[3] .

ويقال إن الحجاج بن يوسف قال ليحي بن يعمر : أتجدنى ألحن ؟ قال : الأمير أفصح من ذاك . قال : عزمت عليك لتخبرنى — وكانوا يعظمون عزائم الأمراء — فقال يحي بن يعمر : نعم ، فى كتاب الله . قال : ذاك أشنع له . ففى أى شيء من كتاب الله ؟ قال : قرأت : «قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله » فترفع أحب وهو منصوب . قال : إذاً لا تسمعني ألحن بعدها ، فنفاه إلى خراسان[4] .

فقد جزع الحجاج أن يعلم عليه يحي هذه السوءة التى يحب ألا يعلمها عليه الناس ، وليس يأمن أن يذيعها فيهم يحي عامداً أو غير عامد ، فيقعوا فيه بالتى لا يطيقها ، ولا يسوءه شيء مثلها ؛ لأنها تسقط مهابته ، وتجرىء العامة عليه ، وفى نفى « يحي » راحة له من ذلك وأمن ، فلينفِ إذاً ، وليكن نفيه إلى خراسان حيث لا تشيع النعرة للعربية هناك ، وحيث الناس فيها أحق أن يذكروا ماهم فيه ويديروا حديثهم عليه ؛ وأن يدعوا غيره؛ لأنهم ليسوا منه فى شيء .

وكان فى بعض اللحانين بلاغة وله منطق ، كخالد بن عبد الله القسرى ، وخالد بن صفوان الأهتمى ، وعيسى بن المدور، ولكن بلاغتهم ومنطقهم لم يواريا

---

(١) العقد الفريد : ٢ : ٤٧٨ .

(٢) البيان والتبيين : ٢ : ٢١٧ .

(٣) المصدر السابق : ٢١٩ .

(٤) النحويون البصريون: ٢٣ .



من لحنهم ، ولم يكفا غريب الألسنة عنهم ، فقال يحيى بن نوفل فى خالد القسرى :

وألحن الناس كل الناس قاطبة   وكان يولع بالتشديق فى الخطب [١]

وأسلم العلية وأصحاب السلطان أولادهم إلى المؤدبين ، يثقفونهم ، ويقومون ألسنتهم ، وربما أخرجوهم إلى البادية ؛ ليشافهوا الأعراب ، ويسمعوا منهم : فعتبة بن أبي سفيان يتخذ عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدباً لولده ، ويوصيه فيما يوصيه به ألا يخرجهم من علم إلى غيره حتى يحكموه [٢] ، وعبد الملك بن مروان يكل تأديب أولاده إلى معبد الجهنى وعامر الشعبى [٣] ، والحجاج بن يوسف يطلب لولده مؤدبا ، فيدل على اثنين : أحدهما من أهل الدين ، ولكنه أقل من صاحبه علما ؛ فيؤثره لدينه ، ويعلمه كيف يغنى بعلمه القليل غناء صاحبه بعلمه الكثير [٤] ولقد كان لحن الوليد مثار حسرة وألم لأبيه عبد الملك ، فمرة يقول أضرّ بنا فى الوليد حبنا له ؛ فلم نؤدبه [٥] ، ومرة أخرى يقول : أضرّ بنا فى الوليد حبنا له ؛ فلم نلزمه البادية [٦] .

ومضى الأمر على هذا النحو لعهد بنى العباس أمداً طويلا ، فكانت اللحنة ربما غيرت وجهة المرء فى الحياة وأخذت به على غير ما كان يريد : فقد لحن سيبويه ؛ فطلب النحو ، وكان يطلب الآثار والفقه [٧] ولحن الكسائى وقد بلغه الكبر ، فتعلم النحو وكان عنه منصرفا [٨] .

وكان الخلفاء لا يسكتون عن لحنة ولا يقرون على شك منها : حدث أبو جعفر محمد بن عبد الله بن قادم عن نفسه قال : وجه إلى إسحاق بن إبراهيم المصعبي يوماً ، فأحضرنى ، ولم أدر ما السبب . فلما قربت من مجلسه تلقانى ميمون ابن إبراهيم كاتبه على الرسائل ، وهو على غاية الهلع والجزع ، فقال لى بصوت

---

(١) البيان والتبيين : ٢ : ٢٢٠ ، ٢١٦   (٢) البيان والتبيين : ١ : ٢٥٢ ، ٢ : ٧٣
(٣) المصدر السابق : ١ : ٢٥١   (٤) الأغانى : ١٨ : ٧٨
(٥) العقد الفريد : ٢ : ٤٣٨   (٦) المصدر السابق : ٢ : ٤٨٠
(٧) نزهة الألبا : ٢ : ٧٢   (٨) المصدر السابق : ٨٢



خفى : إنه إسحق ، ومر غير متلبث حتى رجع إلى مجلس إسحق ، فراعنى ذلك ، فلما مثلت بين يديه قال لى : كيف يقال : وهذا المال مالٍ ، أو وهذا المال مالا ؟ قال : ففعلت ما أراد ميمون ، فقلت : الوجه مال ، ويجوز مالا ، فأقبل إسحق على ميمون يغلظه ، فقال : الزم الوجه فى كتبك ، ودعنا من يجوز ويجوز ؛ ورمى بكتاب كان فى يده . فسألت عن الخبر ، فإذا ميمون قد كتب إلى المأمون وهو ببلاد الروم عن إسحق، وذكر مالاً حمله إليه : وهذا المال مالا ؛ فخط المأمون على الموضع من الكتاب ، ووقع بخطه على الحاشية : تخاطبنى بلحن ؟ فقامت القيامة على إسحق . فكان ميمون بعد ذلك يقول : لا أدرى كيف أشكر ابن قادم ، أبقى على روحى ونعمتى[١] .

ورووا أنه كان عند المهدى مؤدب يؤدب الرشيد ، فدعاه المهدى يوماً وهو يستاك ، فقال له : كيف تأمر من السواك ؟ فقال استك يا أمير المؤمنين ، فقال المهدى : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ثم قال : التمسوا لنا من هو أفهم من هذا ، فقالوا : رجل يقال له على بن حمزة الكسائى من أهل الكوفة قدم من البادية قريباً ، فكتب بإزعاجه من الكوفة ، فساعة دخل عليه قال : يا على بن حمزة . قال : لبيك يا أمير المؤمنين . قال : كيف تأمر من السواك ؟ فقال : سُك فاك يا أمير المؤمنين ، فقال : أحسنت وأصبت ، وأمر له بعشرة آلاف درهم[٢] .

وكتب الواثق فى حمل المازنى من البصرة إلى سر من رأى ؛ لأن جارية غنته :

أظلَيمُ إن مصابكم رجلا أهدى السلام تحيةً ظلم[٣]

---

(١) بغية الوعاة : ٥٨ .

(٢) نزهة الألبا : ٨٧ — ٨٨ . وظاهر أن مؤدب الرشيد لم يخطىء ، لكنه لم يوفق إذ جاء بالأمر من استاك فثقل على سمع المهدى .

(٣) نسبه ابن خلكان والحريرى فى درة الغواص : ٤٣ — إلى العرجى ، وروايتها : أظلوم إن مصابكم رجلا . ونسبه صاحب الخزانة : ١ : ١٠ . إلى الحارث بن خالد المخزومى .



فرد بعض الحاضرين عليها نصبها (رجلا) ، وظن أنه خبر إن ، وإنما هو مفعول المصدر ، (مصابكم) فى معنى (إصابتكم) و (ظلم) خبر إن ، فقالت : لا أقبل هذا ولا أغيره ، وقد قرأته كذا على أعلم الناس بالبصرة أبي عثمان المازنى ، فتقدم الواثق بإحضاره .

قال : ثم أحضر التوزى — وكان فى دار الواثق — وكان التوزى يقول : إن مصابكم رجل ، يظن أن مصابكم مفعول[1] ، ورجل خبره ، فقال له المازنى : كيف تقول : إن ضربك زيدا ظلم ؟ فقال التوزى حسبى ، وفهم[2] .

وعهد المنصور إلى المفضل الضبى فى تأديب المهدى ، وله كان اختيار المفضليات[3] وعهد المهدى إلى الكسائى فى تأديب الرشيد ، وعهد الرشيد إليه فى تأديب الأمين[4] ثم إلى على بن المبارك الأحمر[5] من بعده ، وأوصاه وصيته المشهورة[6] ، وعهد يزيد بن منصور خال المهدى إلى أبى محمد يحيى بن المغيرة فى تأديب ولده ، وإليه نسب ، فقيل : اليزيدى ، وعهد الرشيد إليه فى تأديب المأمون[7] ، وعهد المأمون إلى الفراء فى تأديب ولديه[8] .

وصحب الحسين بن خالويه الأمير سيف الدولة الحمدانى ، وأدب بعض أولاده وعاش من بعده فى صحبة ولده شريف وغيره من آل حمدان[9] ، وأخذ عضد الدولة عن أبى على الفارسى ، وله ألف كتاب الإيضاح فى النحو والتكملة فى الصرف[10] وكان على بن الحسين الآمدى منقطعاً لأبى الفضل بن حنزابة

---

(١) يريد أنه اسم مفعول لا مصدر ، وهو مع ذلك اسم إن . راجع تعليقاته إنباه الرواة : ١ : ٢٤٩ — ٢٥٠ .

(٢) إنباه الرواة : ١ : ٢٤٨ — ٢٥٠ .

(٣) نزهة الألبا : ٦٧ .

(٤) المصدر السابق ٨٧ .

(٥) المصدر السابق ١٢٦ .

(٦) مقدمة ابن خلدون : ٦٢٠ .

(٧) نزهة الألبا : ٣ ، ١٠٤ .

(٨) المصدر السابق : ١٣٠ .

(٩) بغية الوعاة : ٢٣١ ، إنباه الرواة : ١ : ٣٢٥ :

(١٠) بغية الوعاة : ٢١٦ ، ونزهة الألبا : ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، وإنباه الرواة : ١ : ٢٧٣ .



وزير[١] كافور. وكان ابن العريف القرطبي مؤدبا لولد أبي عامر المنصور[٢]، ومحمد بن الحسين الإشبيلي مؤدبا لولد المنتصر بالله[٣].

كان من النحاة إذا أساتذة الخلفاء وأولياء العهود ومن إليهم من العلية وذوى الأقدار فى الدولة، وكان لهم من الكرامة عندهم والدالة عليهم وعلى أهليهم كل ما للأستاذ على تلميذه وأهليه، وكانوا ربما ألفوا الكتب لهم، أو على أعينهم وبتشجيع منهم:

حكوا أن الفراء كان مع ولدى المأمون يوماً فى بعض دروسه، فلما هم بالنهوض لحاجته، ابتدر الولدان إلى نعله، ليقدماها له، فتنازعا أيهما يقدمها له، ثم اصطلحا على أن يقدم كل منهما واحدة. وكان للمأمون وكيل على كل شيء خاص، فرفع ذلك إليه فى الخبر، فوجه إلى الفراء واستدعاه، فلما دخل عليه قال له: من أعز الناس؟ فقال: لا أعرف أحداً أعز من أمير المؤمنين، فقال: بلى، من إذا نهض تقاتل على تقديم نعله وليا عهد المسلمين حتى يرضى كل واحد منهما أن يقدم له فرداً، فقال: يا أمير المؤمنين لقد أردت منعهما عن ذلك، ولكن خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقا إليها، أو أكسر نفوسهما عن شريفة حرصا عليها... فقال له المأمون: لو منعتهما عن ذلك لأوجعتك لوماً وعتباً وألزمتك ذنباً، وما وضع ما فعلا من شرفهما، بل رفع من قدرهما وبين عن جوهرهما... ثم قال: قد عوضتهما مما فعلا عشرين ألف دينار، ولك عشرة آلاف درهم على حسن أدبك لهما.

وحكوا أيضاً أن المأمون أمر الفراء أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو وما سمع من العرب، وأمر أن تفرد له حجرة من حجر الدار، ووكل به جوارى وخدماً، وصير له الوراقين، وألزمه الأمناء والمنفقين، فكان الوراقون يكتبون حتى

---

(١) بغية الوعاة: ٣٣٦.

(٢) المصدر السابق: ٢٣٠.

(٣) المصدر السابق: ٣٤.

صنف الحلود ، وأمر المأمون بكتبه[1] فى الخزائن[2] .

ودخل أبو إسحق إبراهيم بن يحيى اليزيدى على المأمون ، وعنده يحيى بن أكثم ، وهم على الشراب ، فسأله يحيى مازحاً عن صفة قبيحة وصف المعلمين بها فرفع إبراهيم رأسه ، فإذا المأمون يحرض على العبث به ، فغاظه ذلك ، فقال : أمير المؤمنين أعلم الناس بهذا ، لأن أبى كان يؤدبه ، فقام المأمون مغضباً ، ورفعت الملاهى ، فكتب إبراهيم للمأمون :

أنا المذنب الخطّاء والعفو واسع	ولو لم يكن ذنب لما عرف العفو
سكرت فأبدت منى الكأس بعض ما	كرهت وما إن يستوى السكر والصحو

فى أبيات أخر ، فرضى عنه ، ولوقع على ظهر أبياته :

إنما مجلس الندامى بساط	للمودات بينهم وضعوه
فإذا ما انتهى إلى ما أرادوا	من حديث ولذة رفعوه[3]

ولولا أنه كان لأبيه حرمة سلفت ، وأن الخليفة هو المأمون لحال الجريض دون القريض كما يقولون .

وحدث ثعلب عن نفسه قال: أقعدنى محمد بن عبد الله بن طاهر مع ابنه طاهر ، وأفرد لى داراً فى داره ، وأقام لنا وصيفة . وكنت أقعد معه إلى أربع ساعات من النهار ، وأنصرف إذا أراد الغداء ، فنمى ذلك إليه ، فوجه فكسا البهو والأروقة والمجالس الخيش[4] ، وأضعف ما كان يعد من الألوان ، والثلج والفاكهة والخوان فلما حضر وقت الانصراف انصرفت ، فنمى ذلك إليه ، فقال للخادم الموكل بطاهر : نمى إلىّ انصراف أحمد بن يحيى فى وقت الطعام والفاكهة فظننت أنه استقل ما كان بحضرة ، وأنه لم يستطب الموضع ، فأضعفنا ما كان يقام ،

---

(١) كذا بأصله .   (٢) نزهة الألبا : ١٢٧ — ١٣٢

(٣) بغية الوعاة : ١٩٠

(٤) كانوا يصنعون ذلك فى الصيف ، وأول من هدى إليه المنصور ، وكان الأكاسرة يطينون كل يوم من أيام الصيف بيتاً يسكنونه ، ثم فى الغد يطين بيته آخر (الفخرى : ١٤٣) .



وودّنا فى الخيش ، ثم نمى إلى أنه قد انصرف بعد ذلك ، فتقول له عن نفسك : بيتك أبرد من بيتنا ، أو طعامك أطيب من طعامنا ! وتقول له عنى : انصرافك إلى منزلك وقت الغداء مجنة علينا . فلما عرفنى الخادم ذلك أقمت ، فكنت على هذه الحال ثلاث عشرة[1] سنة . وحدثوا أن الزجاج كانت له عند المعتضد منزلة وشأن ، فاتخذه نديماً له[2] ؛ وأن القائم بأمر الله استدعى الحسن محمد بن الوراق لتعليم أولاده ، وكان ضريرا ، فلما وصل إلى باب حجرة الخليفة قال له الخادم : وصلت فقبل الأرض ، فلم يفعل ، وقال : السلام عليك ورحمة الله ياأمير المؤمنين وجلس ، فقال القائم : وعليك السلام ياأبا الحسن ، ادن منى ، فدنا ، فسأله عن مسائل أجاب عنها ؛ ولما خرج قال القائم : هذا هو البحر[3] .

قالوا : وكان ابن الحاج القناوى القفطى مكرماً مبجلا عند ملوك مصر ، مع كثرة طعنه فيهم وعدم مبالاته بهم[4] .

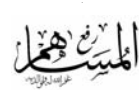
ولم يكن النحاة سواء فى الرزق ، ولا يتوقع أن يكونوا كذلك ؛ ففيهم القانع والطامع والزاهد والراغب ، ومنهم نحاة للعلية ونحاة للشعب ، وهؤلاء وأولئك درجات فى الكفاية والكيس ، والذين يؤدبونهم أو يؤدبون لهم درجات أيضا فى السماحة والثراء ، وقد تهيأ لبعضهم فرص ينالون فيها هبات فوق ما يجرى عليهم من الأرزاق .

ويمكن أن يقال : إن نحاة العلية على وجه الإجمال كانوا أيسر حالا ، وأكثر مالا من الآخرين ، وفيهم من تركوا من خلفهم ثروة طيبة .

فالخليل بن أحمد كان زاهدا عفيف النفس ، قال عنه النضر بن شميل : أقام الخليل فى خص من أخصاص البصرة ، لا يقدر على فلس ، وأصحابه

---

(١) إنباه الرواة : ١ : ١٤٧
(٢) المصدر السابق : ١٦٤
(٣) بغية الوعاة : ١١٠
(٤) المصدر السابق : ٢٦٧



يكسبون بعلمه الأموال ؛ ولقدسمعته يقول : إنى لأغلق علىّ بابى ، فما يجاوزه همتى[١] .

وكان أبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافى لا يأكل إلا من كسب يده ، ولا يخرج من بيته إلى مجلس الحكم ولا إلى مجلس التدريس فى كل يوم إلا بعد أن ينسخ عشر ورقات ، يأخذ أجرها عشرة دراهم تكون قدر مئونته[٢] .

وأما الزجاج فقد حسن موقعه عند المعتضد ، ففرض له رزقا فى الفقهاء ، ورزقا فى الندماء[٣] . وكان يقول لتلميذه القاسم بن عبيد الله : إن بلغك الله مبلغ أبيك ووليت الوزارة فما تصنع بى ؟ فيقول له : ما أحببت ، فيقول : تعطنى عشرين ألف دينار . وقد حققت الأيام الأمنية ؛ فحقق الوزير الوعد ، ثم مضى مع أستاذه على التكرمة ومتابعة الصلة حتى مات الوزير[٤] .

وقد ذكرنا هنا آنفا أن المأمون وهب للفراء عشرة آلاف درهم ؛ مكافأة على إحسان تأديب ولديه ، حين رفع إليه أنهما كانا يقتتلان على نعله : أيهما يقدمها له .

وحدث المازنى عن نفسه قال : دخلت على الواثق ، فقال لى : يامازنى ، ألك ولد ؟ قلت : لا ، ولكن لى أخت بمنزلة الولد ، قال : فما قالت لك ؟ قلت : ماقالت بنت الأعشى للأعشى :

فيا أب لا تنسنا غائبا فإنا بخير إذا لم ترمْ
أرانا إذا أضمرتك البلا د نجفى ويقطع منا الرحم

قال فما قلت لها ؟ قال : قلت لها ما قال جرير :

ثق بالله ليس له شريك ومن عند الخليفة بالنجاح

---

(١) إنباه الرواة : ١ : ٣٤٤ — ٢٤٥

(٢) نزهة الألبا : ٣٨١

(٣) إنباه الرواة ١ : ١٦٤

(٤) إنباه الرواة : ١ : ١٦٠ — ١٦٣ . وقد وزر القاسم وأبوه من قبله للمعتضد.



قال : أحسنت ! أعطه خمسمائة دينار[١] .

ويقال : إن أبا محمد عبد الله بن الخشاب شرح مقدمة ابن هبيرة فى النحو ، فوصله بألف دينار[٢] .

وكان محمد بن عبد الله بن طاهر يجرى على ثعلب فى تأديب ولده ألف درهم كل شهر ، ويجرى على خليفته خمسمائة ، وعلى ختنه ثلثمائة ، وكان يقيم له مع ذلك كل يوم سبع وظائف[٣] من الخبز الخُشْكار[٤] ، ووظيفة من الخبز السميذ[٥] ، وتسعة أرطال من اللحم ، وعلوفة رأس . . . وترك رحمه الله أحداً وعشرين ألف درهم وألفى دينار ، ودكاكين بباب الشام ، وقيمتها يومئذ ثلاثة آلاف دينار ، وترك مكتبة بيعت على البخس وسوء التقدير بنحو ثلثمائة دينار[٦] .

وكان المبرد لا يعلم مجاناً ، ولا يعلم بأجرة إلا على قدرها ، فرغب إليه أبو إسحاق الزجاج أن يبالغ فى تعليمه النحو ، ويعطيه كل يوم درهما من جملة كسبه ، وكانت درهما ودانقين ، أو درهما ونصفاً فى اليوم ، وشرط على نفسه أن يعطيه إياه حتى يفرق الموت بينهما ، واستغنى عن التعليم أو احتاج إليه ، فلزمه ، وكان مع ذلك يخدمه فى أموره ، وقد أنجز الزجاج وعده ، فظل يعطى أستاذه الدرهم حتى أدركه الموت ، وكان مع ذلك لا يخليه من التفقد والعون على قدر طاقته[٧] .

وكان أبو بكر محمد بن على المعروف بمبرمان يقرىء كتاب سيبويه بمائة

---

(١) إنباه الرواة : ٢٤٧

(٢) بغية الوعاة : ٢٧٧ ، وفى وفيات الأعيان ، ترجمة ابن هبيرة : أن ابن الخشاب شرح كتاب المقتصد بكسر الصاد المهملة لابن هبيرة .

(٣) الوظيفة : مايقدر للشخص فى اليوم من طعام أو رزق أو غيره .

(٤) كلمة فارسية فسرها المعجم فى اللغة الفارسية بالخبز الجاف ، والدقيق الخشن .

(٥) مايتخذ من لباب الدقيق .

(٦) إنباه الرواة : ١ : ١٤٧ — ١٤٩

(٧) المصدر السابق : ١ : ١٥٩ — ١٦٠

دينار[١] ، وكان محمد بن الحسن السيوطى يقرىء كل بيت من الألفية بدرهم[٢] .

وكان أبو محمد الحسن بن محمد المعروف بابن الدهان من أئمة النحاة المشهورين بالفضل والتقدم ، وكان متبحراً فى اللغة ، ويتكلم فى الفقه والأصول ، ولكنه مع ذلك كله كان سيء الحال ، شديد الفقر ، بذ الهيئة ، يجلس فى الحلقة وعليه ثوب لايكاد يستره[٣] .

وإذا كان الخلفاء وأصحاب الأقدار قد اصطنعوا النحاة ، ولقوهم بما صنعوا رعاية وتكريماً — فإن بعض الجهال قد أنكروهم ، وأذاقوهم بما لم يفعلوا أذى وشراً . فهذا أبو حاتم سهل بن محمد السجستانى يقدم على بغداد . ويدخل المسجد للدرس ، فيسأل عن قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم » : كيف يقال منه للواحد؟ فيقول : ق ، فيسأل : فالاثنين؟ فيقول : قيا ، فيسأل : فالجمع؟ فيقول : قُوا ، فيطلب السائل أن يجمعها له ، فيقول : ق ، قيا ، قُوا .

وكان فى ناحية من المسجد رجل يسمع مايدور بين الأستاذ والتلميذ ، فقال لصاحبه : احتفظ بثيابى حتى أرجع ، وانطلق إلى صاحب الشرطة فقال له : إنى ظفرت بقوم من الزنادقة يقرءون القرآن على صياح الديك فما شعر أبو حاتم ومن معه حتى هجم الشرطة عليهم ، فأخذوهم إلى مجلس صاحبهم ، فسألهم عما كانوا فيه ، فتقدم أبو حاتم يقص النبأ عليه ، وقد اجتمع خلق ينظرون ما يكون؟ فعنفه صاحب الشرطة وقال : مثلك يطلق لسانه عند العامة بمثل هذا؟ وضرب أصحابه عشرة عشرة ، وقال : لاتعودوا إلى مثل هذا . فعاد أبو حاتم إلى البصرة لايلوى على شيء ، فلم يأخذ عنه أهل بغداد[٢] .

وكان أبو أسامة جنادة بن محمد الهروى يقرأ بجامع المقياس ، وكان له صاحبان يجلس إليهما فى دار العلم بالقاهرة ، فتجرى بينهم مباحثات ومذاكرات ، هما : الحافظ عبد الغنى بن سعيد ، وأبو إسحاق على بن سليمان المعرى ، ويتوقف النيل فى بعض السنين فيقال للحاكم : إن جنادة رجل مشئوم ، يقعد بالمقياس ويلقى

---

(١) بغية الوعاة : ٧٤ (٢) بغية الوعاة : ٢٢٩
(٣) المصدر السابق : ٢٦٥



النحو ، ويعزم على النيل ، فلذلك لم يزد ، فأمر بقتله وقتل صاحبيه ، فقتل جنادة وأبو إسحق ، واستتر عبد الغنى[١] .

وجلس أبو جعفر أحمد بن محمد المرادى المعروف بابن النحاس على درج المقياس ، يقطع شيئا من العروض ، والنيل فى مده وزيادته ، فسمعه بعض العوام ، فقال : هذا يسحر النيل ، حتى لا يزيد ، فتغلو الأسعار ، ثم دفعه برجله ؛ فغرق ، ولم يعثر له على أثر[٢] .

آمن الناس إذا بالنحو ، وقدروا صنيع النحاة للغة والدين ، ولكن الجمهرة كانت تضيق بهم ، وتستثقل صحبتهم ؛ لملابسات خلقتها ظروف الحال من حولهم ، ودواع تركتها طبيعة الصناعة فى نفوسهم ، حتى كانت الكثرة منهم كما يكون المضطر مما يكره ، يطلبه غير مقبل عليه ولا راغب فيه ، ويود فى قرارة نفسه لو أعفى من طلبه أو كانت له مندوحة عنه .

نعم فقد كان خطر اللحن وموقف الأمة منه على ما أسلفنا ، وكان الناس أول ما امتحنوا به يتناهون عنه ويتناصحون فيه ، أو يتلقون المؤاخذة به أو التنبيه عليه من أولى الأمر فيهم ، كالذى كان من عمر رضى الله عنه إذ كتب إلى الحُصَين بن الحُر عامله على مبسان : أن قنع كاتبك سوطا ، ذلك بأن الكاتب لحن فى كتاب من الوالى إليه[٣] . وكالذى كان من معاوية إذ كتب إلى زياد : إن ابنك كما وصفت ، ولكن قوم من لسانه . وكان زياد أوفد إليه ابنه عبيد الله[٤] .

فلما كان النحو ، واشتغل العلماء به ، وأقبل الناس يبغونهم إياه — صار إلى النحاة مع الأيام نقد الكلام والفتوى فيه : يخطئون ويصوبون ، ويحرمون ويحللون ، وأصبح لهم نوع من المراقبة والولاية على الناس فيما يقولون . والناس

---

(١) بغية الوعاة : ٢١٣

(٢) إنباه الرواة : ١ : ١٠٢ ، بغية الوعاة : ١٥٧

(٣) البيان والتبيين : ١١٧

(٤) المصدر السابق : ٢٠١



يحبون الحرية ، ويؤثرونها فى الأمر كله ، يود أحدهم لو لم يسأل عما يفعل . ونتاج المرء من القول كنتاجه من الولد : كلاهما عليه عزيز وإليه حبيب ، فما يطيب له أن يسمع فيه نقدا ، أو يؤخذ فيه بملام .

وكان الشعراء لسوء الحظ أشد الناس تبرما بالنحاة وجرأة عليهم ، ولاسيما المتمردون منهم والمعجبون بأنفسهم فهم يرون أنفسهم أصحاب ذوق وطبع ، ويرون النحاة أصحاب صنعة وجمود ، فمن حقهم أن يقولوا على مايريدون ، لا يسألون عن شيء ، ولا يلامون على شيء ، فإن لم يكن من السؤال بد فليسألوا أنفسهم ، وليجشموها عنهم التماس الوجه وابتغاء الأسباب ، وإلا فالويل لهم : هجاء مر ، واستهزاء مثير .

وكان الفرزدق ملقى من هذه الناحية : يتتبع النحاة شعره ، ويرمونه فيه باللحن والخطأ ، فيهجوهم ، ثم لا يستمع لكلامهم ، ولا يقبل أن يفيد من نقدهم تكبرا وغرورا .

قال فى عنبسة الفيل :

لقد كان فى معدان والفيل زاجر ... لعنبسة الراوى على القصائدا[١]

ونقد عبد الله بن أبى إسحاق الحضرمى قوله من قصيدة مدح بها يزيد بن عبد الملك :

مستقبلين شمال الشام تضربنا ... بحاصب كنديف القطن منثور

على عمائمنا تلقى وأرحلنا ... على زواحف تزجى مخها رير[٢]

وقال له : ألا قلت : على زواحف نزجيها محاسير[٣] فغضب الفرزدق ، وقال يهجوه

---

(١) معدان والد عنبسة ، وكان لعبد الله بن عامر فيل بالبصرة ، وقد استكثر النفقة عليه ، فجاءه معدان ، فتقبله بنفقته وزيادة فى كل شهر ، فلقب به . وقيل : بل كانت لزياد فيلة بالبصرة تولاها عنه معدان . الراوى على القصائد : العائب فيها ، واللائمى عليها ، والعرب تستعمل (على) فى مثل هذا المقام للشر ، وتستعمل (اللام) فى غيره للخير . تقول : ولدت له جاريته ، ولا تقول : ولدت عليه ، راجع أمالى المرتضى : ٢ : ٢٥ — ٢٧ ، أخبار النحويين البصريين : ٢٤ ، بغية الوعاة : ٣٦٨ ، نزهة الألبا : ١٥ (٢) ذائب .

(٣) البيت فى الديوان كما اقترح ابن أبى إسحق ، لأن الفرزدق غيره فيما يقول السيرافى فى أخبار النحويين البصريين : ٢٧ ، ولا أرى أن هذا التغيير واجب ، لجواز أن تكون رير بالجر صفة لزواحف ، ومخها فاعل مقدم ، كما فى قول الزباء =



فلو كان عبد الله مولى هجوته ... ولكن عبد الله مولى مواليا(١)

وعابه أيضاً بقوله من قصيدة أخرى ، يمدح بها عبد الملك :

إليك أمير المؤمنين رمت بنا ... شعوب النوى والهوجل المتعسف(٢)

وعضُّ زمان يا ابن مروان لم يدع ... من المال إلا مُسحتاً أو مجلَّف(٣)

= ما للجمال مشيها وئيداً ؟

وقول النابغة الذبيانى :

فلا بد من عوجاء تهوى براكب ... إلى ابن الجلاح سيرُها الليل قاصد

تخب إلى النعمان حتى تناله ... فدى لك من ربّ طريفى وتالدى

أى قاصد سيرها بالليل .

(١) كان ابن أبى إسحاق مولى آل الحضرمى ، وهم كانوا حلفاء فى بنى عبد شمس ابن مناف . والعرب تسمى الحليف مولى . قال الأخطل يخاطب جريرا :

أتشتم قوماً أثبتوك بنهشل ... ولولاهم كنتم لعكل مواليا

راجع أخبار النحويين البصريين : ٢٦ . نزهة الألبا : ٢٣ .

(٢) الهوجل : المفازة البعيدة لا علم بها .

(٣) المسحت : المبدد . المجلف : الذى أخذ من جوانبه ، والذى بقيت منه بقية . وروى مجرف مكان مجلف ، من جرفه إذا ذهب به كله ، أو أخذه أخذاً كثيراً . والبيتان من إحدى نقائض الفرزدق ، ويذكر أبو عبيدة سبب إنشائها فى خبر طويل ، تجده فى نقائض جرير والفرزدق : ٢ : ٥٤٦ — ٥٥٨ . وروى مسحت بالرفع والنصب . ويذهب النحاة فى تخريج الروايتين مذاهب مختلفة ، منها على رواية الرفع أن يدع من الدعة بمعنى السكون والاستقرار فمسحت مرفوع به ، ونظيره قول سويد بن أبى كاهل :

أرّق العين خيال لم يدع ... من سليمى ، ففؤادى منتزع

ومنها على النصب أنه مفعول يدع بمعنى يترك ، ومجلف مرفوع بالاستئناف (راجع نقائض جرير والفرزدق : ٢ : ٥٥٦ — ٥٥٧) . =

وقال له : على أى شىء ترفع (أو مجلف) فقال على مايسوءك وينوءك[1]
ويروى أنه سئل فيه ، فقال : قلت ذلك ليشقى به النحويون[2] .
ونقد الأخفش قول بشار :

فالآن أقصر عن سمية باطلى وأشار بالوجلى على مشـــير

وقوله :

على الغزلى منى السـلام فربما لهوتُ بها فى ظل مرءومة زهر[3]

وقوله فى صفة سفينة :

تُلاعب نينان[4] البحـور وربما رأيت نفوس القوم من جريها تجرى

وقال : لم يسمع من الوجل والغزل فعَلى ، ولم أسمع بنون ونينان[5] .

وهو كما ترى نقد مهذب رفيق ، يقيمه العالم الجليل على مبلغه من العلم ؛ تحرجا من الادعاء ، وتسليما بأن العلم متنازع ، وأنه أكبر من أن يحيط به أحد . فهل أترى بشاراً رفق به ، وتحدث عنه حديث الرجل المهذب الكريم ؟ هيهات ، فحين بلغه قول الأخفش قال هائجاً يتوعده فى قحة واستعلاء : ويلى على القصارين[6] ، متى كانت الفصاحة فى بيوت القصارين ؟ دعونى وإياه ...

ويروى أن سيبويه هو الذى عاب عليه هذه الكلمات لا الأخفش ، فقال يهجوه :

أسيبويه يابن الفارسيـة ما الذى تحدثت عن شتمى وما كنت تنبذ؟

= ومنها على النصب أيضاً أن مسحت بموضع الفاعل فى المعنى ، لأن معنى لم يدع مسحتاً . بقى مسحت : وإذا يكون عطف مجلف عليه من باب العطف مع الميل إلى المعنى . وهو نمط معروف فى العربية (راجع الكشاف : ١ : ١١٦ ، وشرح شواهد الكشاف الملحق به : ٣٨ ، وبغية الوعاة : ٢٤) .

(١) نزهة الألبا : ٢٤ . (٢) شرح شواهد الكشاف الملحق به : ٥

(٣) مرءومة : محبوبة . (٤) حيتان .

(٥) ورد فى القاموس واللسان .

(٦) القصار : من يحور الثياب ويدقها .



أظالمت تغنى سادراً فى مساءتى وأملك بالمصرين تعطى وتأخذ؟[1]

وكان ربما أسرع بعض النحاة إلى التخطئة قبل أن يستبين الرأى . كالذى رووا أنه اجتمع مروان بن أبى حفصة وأبو محمد اليزيدى عند المهدى فابتدأ مروان ينشد :

طرقتك زائرة فحى خيالها

فقال اليزيدى : لحن والله ، وأنا أبو محمد ، فقال له مروان : ياضعيف الرأى أهذا لى يقال ؟ ثم قال :

بيضاء تخلط بالجمال دلالها[2]

فشهوة النقد وحب التخطئة عند اليزيدى أغرياه بقول ماقال ، كأنه يحسب أن زائرة فاعل طرقتك ، وأن مروان إذ ينصبها إنما ينصب الفاعل ، فصاح صيحته الطائشة ، وأخذه مروان بكلمته القارسة ، فلم يجد أبو محمد مايرد به غير السكوت والاستخذاء .

وأنشد المتنبى فى مدح سيف الدوله قصيدته التى أولها :

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه[3]

وكان ابن خالويه فى المجلس فقال للمتنبى : تقول أشجاه ، وهو شجاه ؟ يظنه فعلا فقال له المتنبى : اسكت ، ليس هذا من علمك ، إنما هو اسم لأفعل[4] . وقال فى ميميته التى عاتب بها سيف الدولة :

أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

فقال عن شعره مثل ماقال الفرزدق من قبل فى خبره الذى ذكر آنفاً[5] .

ولا نرى داعياً إلى الإطالة بذكر المناقشة الدامية التى ثارت بينه وبين ابن خالويه كذلك فى مجلس سيف الدولة ، فلم يملك فيها ابن خالويه نفسه ، ولا رعى للأمير حرمة ، إذ وثب إلى خصمه فضربه بمفتاح حديد أخرجه من كمه ، فسال الدم على وجهه وثيابه[6] ؛ فإن فيما ذكرنا كفاية وغناء .

ولم يبلغ النحاة بمقالهم فى الشعراء مثل مابلغ الشعراء بمقالهم فى النحاة ،

---

(١) الأغانى (طبعة در الكتب) : ٣/٢٠٩ — ٢١٠ ، وفى الصفحة ٢٤٢ من هذا المرجع أن سيبويه لما عاب كلمة (نينان) جعلها بشار (تيار البحور) .

(٢) الأغانى : ١٠ : ٨٠ . (٣) طاسمه : دارسه .

(٤) شرح التبيان على ديوان المتنبى : ٢ : ٢٣٠ .

(٥) المصدر السابق : ٢ : ٢٥٨ .

(٦) راجع الصبح المنبى على هامش شرح التبيان : ١ : ٦٤ - ٦٥ .



فإن للشعر مقالا ليس للنثر ، والناس له أنشط ، وبه أحفل ؛ لأنه أخف مئونة وأطيب موقعاً .

وأياً ما يكن حظ الفريقين من هذه الخصومة ، فإن اللغة فيما أعلم لم تفد منها فى كل حين ، وكان ممكناً ألا تكون بينهما خصومة ، لو تواضع كلاهما لصاحبه ، فعرف فضله . وقدر رسالته ، وأدرك مدى صلته به وقربه منه ، فما النحاة إلا رواة يدرسون ، ولا الشعراء إلا رواة يشعرون .

وكل فى صناعته كاف ، ولا غنى له عن صاحبه ، ولو أنهم فعلوا لأفادت اللغة من حوارهم ومدارستهم خيراً كثيراً . وقد أوردنا صوراً من المتاولات الغاضبة التى دارت بين نفر من النحاة وآخر من الشعراء ، ورأينا الأساليب التى اتبعت فيها والنتائج التى نتجت منها . فلنورد صورة أخرى من المقاولات الراضية التى كانت تدور بين ابن جنى وأبى الطيب المتنبى .

قال ابن جنى : كلّمته وقت القراءة عليه ، فقلت له : بأى شىء تعلق الباء ؟ يريد الباء التى فى قوله :

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه ... بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

فقال : بالمصدر الذى هو وفاء ، فقلت : بم رفعت وفاؤكما ؟ فقال لى بالابتداء فقلت له : أين خبره ؟ فقال : كالربع . فقلت : هل يصح أن تخبر عن اسم قبل تمامه وقد بقيت منه بقية ، وهى الباء ؟ فقال : لا أدرى إلا أنه قد جاء له نظائر ، وأنشد للأعشى :

لسنا كمن جعلت إيادِ دَارها ... تكريت تنظر حبها أن يحصدا[1]

وهذه مناقشة لهما أخرى حول الفعل (يتزيا) من قول أبى الطيب فى هذه

(١) يريد المتنبى أن الأعشى أبدل إياد من (من جعلت) قبل أن تستوفى الصلة مفعولها الثانى (تكريت) راجع التبيان : ٢ : ٢٣٠ ، ومغنى للبيب : ٢ : ١١٥ ، وديوان الأعشى : ١٥٤ ، ورواية التبيان والمغنى : تمنع مكان تنظر . وتكريت من بلاد الجزيرة على دجلة ، بناها سابور ، وفتحها المسلمون سنة ١٦ .



القصيدة أيضاً :

وقد يتزيا بالهوى غــير أهله ... ويستصحب الإنسان من لا يلائمه

ويروى ابن جنى نبأها كما روى نبأ التى قبلها ، فيقول :

سألته عن قوله يتزيا : هل تعرفه فى اللغة أو فى كتاب قديم ؟ قال : لا ، قلت : كيف تقدم عليه ؟ قال : قد جرت به عادة الاستعمال . قلت : أترضى بشىء تورده العامة ؟ قال : ماعندك فيه ؟ قلت : قياسه يتزوى . قال : من أين لك ؟ قلت : لأنه من الزى ، وعينه واو ، وأصله زِوى ، فانقلبت الواو ياء لسكونها وانكسار ماقبلها ، ولأنها أيضاً ساكنة قبل الياء . ودليل أن عينه واو : أنهم لايقولون لفلان زى ، إذا كان له شىء واحد يستحسن حتى يجتمع له أشياء كثيرة حسنة ، فحينئذ يقال : له زى ، من زوِيت الأرض ، أى جمعت . . . وقد ذكره صاحب العين ، فقال : تزيا فلان بزى حسن ، . . . فإن ثبت فليس بناقض لما قلت : إنه يتزوى ، فيجب أن يكون قلب الواو ياء تخفيفاً[1] . . .

وشىء آخر مما أفسد مابين النحاة والجمهرة : أن النحو يقتضى صاحبه إحاطة وعمقا ، ويكلفه عناء وصبرا فى مطاولة النص، والاحتيال له ، حتى يستبين وجهه، وتتضح غوامضه ، فيروح يبحث عن معانيه : ماظهر منها وما بطن ، ويتقصى إشاراته : ماقرب منها وما بعد ؛ حتى يستقيم له القول فيه ، نقداً أو تخريجاً أو احتجاجا . فشاع فى النحاة من ذلك دقة وشدة ، تشبهان أن تكونا صرامة وجفوة .

وكثير منهم تستبد به حبكة الصناعة وإحكام أصولها ، أو نزعة العصبية وحب الغلب ، فيلتزمون فى الأمر مالا يلزم : من تكلف العلة ، وطرد القياس ، والغلو فى التأويل لابتغاء الدليل ، فتمثلوا أهل تكلف وجمود ، لايرون بأسا أن يصرفوا النص عن وجهه ، ويحملوه أكثر من طاقته ، غير مقيمين للذوق وزنا ولا حاسبين للطبع حسابا ، فانفتحت عليهم أبواب التندر والتقول من أهل الطبع وأهل الصنعة ، بل من مأمنهم الذى لايحذرون .

---

(١) شرح التبيان : ٢ : ٢٣١ .



فقد وقف أعرابى على حلقة أبى زيد مستميحا ، فظن أبو زيد: إنه جاء ليسأل مسألة فى النحو ، فقال له أبو زيد : سل ياأعرابى عما بدا لك ، فقال على البديهة :

لست للنحو جئتكم	لا ولا فيه أرغبُ
أنا مالى ولامرىء	أبد الدهر يضرب
خل زيدا لشأنه	حيث ماشاء يذهب
واستمع قول عاشق	قد شجاه التطرب
همه الدهرَ طفلة	فهو فيها يشبب[1]

ولم يفت المعرى فى رسالة الغفران مع وقاره ورزانته ـ أن يغمزهم ويعرض بهم ، إذ يقول لعدى بن زيد على لسان ابن القارح : لقد هممت أن أسألك عن بيتك الذى استشهد به سيبويه ، وهو قوله :

أرواح مودّع أم بكور	أنت فانظر لأى حال تصير

فإنه يزعم أن (أنت) يجوز أن ترفع بفعل مضمر يفسره قولك (فانظر) وأنا أستبعد هذا المذهب ، ولا أظنك أردته . فيقول عدى بن زيد : دعنى من هذه الأباطيل[2] .

وقال عمار الكلابى، وكان فيما يقال محدّثا لُحنة، يعيب النحو ويهجو النحاة:

ماذا لقيت من المستعربين ومن	قياس نحوهم هذا الذى ابتدعوا
إن قلت قافية بكرا يكون لها	معنى خلاف الذى قالوا وماذرعوا
قالوا :لحنت وهذا الحرف منخفض	وذاك نصب وهذا ليس يرتفع
وضرّبوا بين عبد الله واجتهدوا	وبين زيد فطال الضرب والوجع
فقلت واحدة فيها جوابهم	وكثرة القول بالإيجاز تنقطع :

---

(١) راجع أخبار النحويين البصريين : ٥٤ .

(٢) رسالة الغفران : ١ : ٧٥ . والبيت من شواهد سيبويه فى باب (هذا باب الأمر والنهى) : ١ : ١٧٠ . وهو مطلع قصيدة بعث بها عدى إلى النعمان. راجع شعراء النصرانية : ٣ : ٤٥٥ .



ما كل قولىَ مشروحا لكم فخذوا ... ما تعرفون وما لم تعرفوا فدعوا
حتى نصير إلى القوم الذين غُـذوا ... بما غذيت به والقول مجتمع[1]

بل إن من النحويين أنفسهم من كان يضيق بالنحو وينقده، ويهجو النحويين وينكرهم: فأبو العباس ثعلب كان يغبط أهل المعرفة من غير النحاة، ويتساءل عن عاقبة أمره: ماذا تكون بعد ماقضى عليه أن يكون نحويا؟ قال: اشتغل أهل القرآن بالقرآن ففازوا، واشتغل أهل الفقه بالفقه ففازوا، واشتغلت أنا بزيد وعمرو، فليت شعرى ماذا يكون حالى فى الآخرة[2]؟

والحسن بن عبد الله الأصبهانى المعروف بلكذه يؤلف فى نقض علل النحو[3] وأحمد بن عبد الرحمن بن مضاء، ومحمد بن موسى الدوالى — كلاهما يؤلف فى الرد على النحاة[4] وأحمد بن فارس يسخر من حجة النحوى فيقول:

مرت بنا هيفاء مقدودة ... تُركية تنمى لتركىّ
ترنو بطرف فاتن فاتر ... أضعف من حجة نحوى[5]

ومحمد بن على الجيان يسخر من أقيسة النحو، فيقول: قياسات النحو تتوقف ولا تطرد، كقميص له جُرُبّانات[6]، فصاحبه كل ساعة يخرج رأسه من جُربانة[7]. والأصمعى يروى أن عيسى بن عمر أنشده بيتا فى هجاء النحويين، قال:

إذا اجتمعوا على ألف وواو ... وياء هاج بينهم جدال[8]

بل إننا نلمح فى كلام سيبويه نفسه أثارة من هذا الإنكار إذ يقول: ....

---

(١) شرح التبيان: ١: ١٨٠. (٢) نزهة الألبا: ٢٩٨.

(٣) بغية الوعاة: ٢٢٢، إنباه الرواة: ١: ١٤٣.

(٤) بغية الوعاة: ١٣٩، ١٠٨. (٥) المصدر السابق: ١٥٣.

(٦) جيوب. (٧) بغية الوعاة: ٧٩.

(٨) درة الغواص: ١٠٦، وخزانة الأدب: ١: ١٠٨ - ١١١ ورواية الدرة:

إذا اجتمعوا على ألف وباء ... وتاء هاج بينهم قتال

وهو فى الخزانة منسوب إلى يزيد بن الحكم، وإلى عيسى بن عمر نقلا عن الدرة



« وكذلك مررت برجل معه الفرس راكبا برذونا إن لم ترد الصفة نصبت ، كأنك قلت : معه الفرس راكبا برذونا ، فهذا لا يكون فيه وصف ، ولا يكون إلا خبراً ولو كان هذا على القلب كما يقول النحويون لفسد كلام كثير[1] . . . » وإذ يقول أيضاً : وتقول : مررت برجل أسد شدة وجرأة : إنما تريد مثل الأسد ، وهذا ضعيف قبيح ، لأنه اسم لم يجعل صفة ، وإنما قاله النحويون تشبيها بقولهم : مررت بزيد أسدا شدة[2] . ثم إن بعض النحويين كان متقعراً يتكلف الحوشى فى كلامه ، أو مولعا بالإعراب يأتى به كرها إن لم يجئه عفوا ، أو متشدداً فى مقاومة اللحن لا يسكت عنه ، حتى حين ينزل به ريب المنون .

فهذا أبو علقمة النحوى يمر يوما بعبدين : حبشى وصقلى ، فإذا الحبشى يضرب بالصقلى الأرض ، ويدخل ركبتيه فى بطنه ، وأصابعه فى عينيه ، ويعض أذنيه ، ويضربه بعصا فيشجه . . . فقال الصقلى لأبى علقمة : اشهد لى ، فمضوا إلى الأمير فقال له الأمير : بم تشهد ؟ فقال : ... مررت بهذين العبدين، فرأيت هذا الأسحم قد مال هذا الأبقع ، فحطأه[3] على فدفد[4] ، ثم ضغطه برضفتيه فى أحشائه ... ، وجعل يلج بشناتره[5] فى جحمتيه ... وقبض على صنارتيه[6] بمرصه[7] ... ثم علاه بمنسأة ... فعفجه بها ... قال الأمير : مافهمت مما قلت شيئا ، فقال أبو علقمة : قد فهمناك إن فهمت ... وما أقدر أن أتكلم بالفارسية، وجهد الأمير فى كشف الكلام حتى ضاق صدره ، ثم حسر عن رأسه ، وقال للصقلى : شجنى خمسا ، وأعفنى من شهادة هذا[8] .

---

(١) الكتاب : ١ : ٢٤٢ .

(٢) الكتاب : ١ : ٢١٦ .

(٣) صرعه .

(٤) مكان صلب .

(٥) أصابعه جمع شنتر بضمتين .

(٦) أذنيه .

(٧) أصل المرص الغمز بالأصابع .

(٨) بغية الوعاة : ٣٢٥ .

وقدم رجل من النحويين رجلا إلى السلطان فى دين له عليه ، فقال : أصلح الله الأمير ، لى عليه درهمان . فقال خصمه : لاوالله أيها الأمير ، إنها لثلاثة دراهم ولكن لظهور الإعراب ترك من حقه درهما[١] .

وكان عند عيسى بن عمر الثقفى وديعة لبعض أصحاب خالد بن عبد الله القسرى فلما صارت إمارة العراق من بعده، إلى يوسف بن عمر — كتب إلى واليه بالبصرة أن يحمل إليه عيسى بن عمر مقيداً ، وسأله الأمير عن الوديعة فأنكرها ، فأمر أن يضرب فيها : فلما أخذه السوط جزع ، ثم بداله أن يعترف، فهل تراه فى هذه المحنة يتخلى عن تكلف الصنعة ، ويتكلم كما يتكلم الناس ؟ هيهات . فهذه مقالته :
أيها الأمير ، إنما كانت أثياباً فى أسيفاط أخذها عشاروك[٢] :

ودخل بعض تلاميذ المازنى عليه ، وهو يعالج نفسه ، فقال له امرُخ[٣] صدرك يابن ، لأنه سمع فى حاته حشرجة ، فقال المازنى : امرخ صدرك يابن[٤]. وتروى بعض الكتب الجامعة من نوادرهم مثل ماتروى من نوادر المغفلين والحمق[٥] .

على أن بعض النحويين كان ظريفاً طيب المحضر حاضر النكتة ، فحق أن نشير إليهم ونروى شيئاً من نوادرهم ؛ إنصافاً للحقيقة ، ولإكمالا الحديث : فمنهم سعد بن شداد الكوفى المعروف بسعد الرابية[٦] ، وكانت له دعابة ومفاكهة مع زياد وابنه عبيد الله .

ذكروا أن بنى راسب والطُّفاوة ترافعوا إلى زياد فى مولود ، وكان سعد حاضراً ، فقال : أيها الأمير ، يلقى هذا المولود فى الماء ، فإن رسب فهو من راسب

---

(١) البيان والتبيين: ٢ : ٢١٨ .

(٢) أخبار النحويين البصريين ٣٢ ، نزهة الألبا : ٢٦ — ٢٧ ، العقد الفريد: ٢ : ٤٨١ ، والأسيفاط تصغير أسفاط ، جمع سفط بالتحريك ، وهو الذى يوضع فيه الطيب وشبهه من أدوات النساء . عشاروك . جمع عشار ، وهو من يقبض عشر الأموال ويجبيها .

(٣) ادهن . (٤) إنباه الرواة : ١ : ٢٥١ .

(٥) نهاية الأرب : ٤ : ٧ — ٢٣ (٦) تسمية بموضع كان يعلم فيه النحو .

وإن طفا فهو من طُفاوة ، فأخذ زياد نعله ، وقام ضاحكا وقال : ألم أنهك عن هذا الهزل فى مجلسى .

وأبطأ عبيد الله بن زياد عن صلته على خلاف ما عوده ، فتربص حتى قال عبيد الله يوما : ما أحوجنى إلى وصفاء لهم حلاوة وقدود ورشاقة يقومون على رأسى ، فقال سعد : حاجتك عندى أيها الأمير ، وعمد إلى أصلح من قدر عليه من الغلمان الذين عنده فى المكتب ، فألبسهم ثياب الوصفاء ، وأتى بهم عبيد الله ، فاشتراهم وغالى بهم ، ومضى سعد فاختفى عند بعض أصحابه ، فلما جاء الليل بكى الصبيان ، فقال لهم عبيد الله : ما تريدون ؟ قالوا : نريد بيتنا . فقال : وأين بيتكم ؟ قالوا : فى موضع كذا وكذا ، وأنا ابن فلان وهذا ابن فلان ، ففطن عبيد الله أنها حيلة وسخرية ، فوضع عليه الرصد ، فلما جىء به قال : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : أبطأت علىّ صلتك ، فضحك منه ، وترك له المال[1] .

ومنهم أبو محمد عبد الله بن الخشاب ، فقد سأله شخص وعنده جماعة من الحنابلة : أعندك كتاب الجبال ؟ فقال : يا أبله ، أما تراهم حولى ؟ وسأله آخر عن القفا : يمد أو يقصر ؟ فقال له يمد ، ثم يقصر[2] .

والحقيقة التى لاخفاء فيها ولا لبس أن النحو قد اجتمعت له أسباب الحياة والنمو ، تحفز إليه غيرة على اللغة والدين ، وتيسر له السبيل رعاية من العلية وأصحاب السلطان ، لحفل وزخر ، ثم فاض واستبحر ، حتى ملأ الحواضر والأمصار . شغل الناس به ، ورحلوا فى طلبه ولقاء أئمته ، وعقدت الحلقات لدرسه ، والمجالس للمناظرة فيه وتحكيم الأعراب إذا شجر خلاف بين المتناظرين ، وأصبحت له مدارس متميزة ، ومذاهب متنوعة ، وجعلت الكتب تصدر تباعاً عن أساتذته ، ما بين موجزة ووسيطة ومبسوطة ، وعامة وخاصة ، وجامعة ومفردة ، فى النحو والتصريف ، وفى الشواهد والأقيسة ، والأعاريب والعلل ، والأصول والاحتجاج

---

(١) بغية الوعاة : ٢٥٣ .

(٢) المصدر السابق : ٢٧٧ .



والنقد ، والطبقات والتراجم ، وفى كل ما يخطر بالبال أن يؤلف فيه عن النحو من قريب أو بعيد ، مع الدقة والبراعة والإتقان .

وعُرف به من الأمراء عضد الدولة بن بويه ، والمعظم عيسى بن العادل أبي بكر بن أيوب[1] وكان عضد الدولة يقول: أنا غلام أبى على الفارسى فى النحو[2]. وعُرف به من الوزراء أبو المظفر عون الدين يحي بن هبيرة ، وله فيه كتاب المقتصد[3] وأبو الحسين محمد بن الحسين الفارسى ابن أخت أبى على الفارسى[4] . وعُرف به من النساء لبنى كاتبة الخليفة المستنصر بالله الأموي[5] ، وبنته الكنيزى[6] ، وإشراق السوداء ، وعليها قرأ أبو داود بن جناح[7] ، ومريم بنت أبي يعقوب الانصارى . وكانت تدرس النحو والأدب والشعر[8] .

وكان النحو كما نراه فى كتاب سيبويه وكما يؤخذ من مجالس القدماء ومناظراتهم دراسة لغة وأساليب ، قوامها أنماط من الأمثلة والعبارات المأثورة ، يبين المراد بها وأوجه الخلاف أو المشابهة بينها وطرائق إعرابها ومقتضيات هذه الطرائق وتلك الأوجه من المعنى والاستعمال ، ثم عرض نصوص من القرآن أو الشعر أو الرجز للاستشهاد بها والقياس عليها والاستنباط منها .

فهى دراسة تقول النحو نثاراً مفرقاً ، وتأتى به مزاجاً مختلطاً لا تستخلصه ولا تفلسفه . ولا يرجى أن يكون النحو لذلك العهد على خلاف ما ذكرنا ، فقد كان لايزال ناشئاً ينمو وغضا يقوى ، ثم هو وضع لعلاج اللحن واتقاء خطره . وكانت نظرتهم للحن أوسع وأشمل ، كما يفهم من كلامهم عنه وتمثيلهم له . فهو فى رأيهم كل ما يصيب الكلمة ، فيحرفها عن صحتها فى الإعراب ، أو الاستعمال ، أو طريقة النطق، أو ضبط الحروف.

---

(١) مأمون بنى أيوب : ١٠
(٢) بغية الوعاة : ٣٧٨ .
(٣) وفيات الأعيان .
(٤) بغية الوعاة : ٣٨ .
(٥) المصدر السابق : ٣٧٣ .
(٦) المصدر السابق : ٣٨٢ .
(٧) المصدر السابق : ٢٠٠ .
(٨) تاريخ العرب فى إفريقية والأندلس : ٢٥٧ .



رووا أن الكسائى جاء يوماً وقد مشى حتى أعيا ، فجلس إلى قوم فيهم فضل وكان يجالسهم كثيراً ، فقال : قد عييت ، فقالوا له : تجالسنا وأنت تلحن ؟ فقال : كيف لحنت ؟ فقالوا له : إذا كنت أردت من التعب فقل : أعييت ، وإن كنت أردت من انقطاع الحيلة والتحير فى الأمر فقل عييت مخففة(١) .

وروى الجاحظ فى باب اللحن أن يوسف بن خالد سمعه يقول : لا حتى يشجه بكسر الشين ، يريد يشجه بضمها(٢) وروى فيه أيضاً أن رجلا بالبصرة كانت له جارية تسمى ظمياء ، فكان إذا دعاها قال يا ضمياء بالضاد(٣) .

وقد آثر بعض المؤلفين أن يجعلوا كتبهم أشتاتاً من النحو واللغة والأدب والأخبار وما إليها ، كالمبرد فى كامله ، وكثير من أصحاب الأمالى فى أماليهم ، يرون ذلك كله أدباً أو يرونه ضرباً من علاج اللحن فى شتى صوره .

فصلة النحو باللغة كانت وثيقة محكمة ، وكان الفصل بين النحويين واللغويين مما لا يكثر خطوره بالبال . وما تزال ثمة مسائل متنازعة بين كتب النحو واللغة، كحروف المعانى ، وكثير من العبارات الاصطلاحية المأثورة ، وأبواب الفعل الثلاثى .

وألفت كتب فى الطبقات والتراجم تجمع بين النحويين واللغويين ، مثل طبقات النحويين للزبيدى ، وطبقات النحويين واللغويين لابن قاضى شهبه ، وإنباه الرواة للقفطى ، وبغية الوعاة للسيوطى ، بل ألفت كتب أخرى تجمع بينهم وبين الأدباء ، مثل نزهة الألبا للأنبارى ، ومعجم الأدباء لياقوت .

وكتاب أخبار النحويين البصريين للسيرافى يشتمل على تراجم لبعض من غلبت الرواية عليهم ، كالأصمعى وأبى عبيدة ، ولمن كان ليسميه مؤلفه أخبار

---

(١) نزهة الألبا : ٨٢ — ٨٣ .

(٢) البيان والتبيين ١ : ٢١٢ . وفى القاموس : يشج بالكسر والضم .

(٣) البيان والتبيين : ٢ : ٢١١ .



النحويين البصريين ويقول فى أوله : كتاب فيه ذكر مشاهير النحويين وطرف من أخبارهم[١] .

فكأن بعض المؤلفين كان لا يرى التفرقة بين النحويين واللغويين لشدة الصلة بين النحو واللغة خاصة ، وكأن بعضاً آخر كان لا يرى التفرقة بين النحويين والأدباء لأن للنحو صلة بالأدب عامة . وقد كان النحويون من المعلمين يسمَّون المؤدبين لأنهم يأخذون تلاميذهم بالتأديب ، أى الرياضة والتمرين حتى يصير الأدب ملكة فيهم ، وكان الأدب فيما يقول أبو البركات الأنبارى يشمل ثمانية علوم ، وهى : النحو ، واللغة ، والتصريف ، والعروض ، والقوافى ، وصنعة الشعر ، وأخبار العرب ، وأنسابهم . قال الأنبارى: وألحقنا بالعلوم الثمانية علمين وضعناهما وهما : علم الجدل فى النحو ، وعلم أصول النحو[٢] .

ولما أن استحصدت الفلسفة وأغرم الناس بها دخلت النحو وأثرت فيه ، كما دخلت غيره وأثرت فيه ، ولكن على تفاوت واختلاف ، مطاوعة لظروف الحال والبيئة : فكان أبو زكريا الفراء ، وأبو الحسن الرمانى ممن غلبت الفلسفة على كتبهم ، وكان كلاهما نحوياً متكلما من أصحاب الاعتزال[٣] .

وتحدث الفارسى عن نحو الرمانى قال : إن كان النحو ما يقوله أبو الحسن الرمانى فليس معنا منه شىء ، وإن كان النحو ما نقوله فليس معه منه شىء . وتحدث غيره عن نحويهما ونحو السيرافى قال : كنا نحضر عند ثلاثة مشايخ من النحويين ، فمنهم من لا نفهم من كلامه شيئاً ، ومنهم من نفهم بعض كلامه دون البعض ، ومنهم من نفهم جميع كلامه . فأما من لا نفهم من كلامه شيئاً فأبو الحسن الرمانى ، وأما من نفهم بعض كلامه دون البعض فأبو على الفارسى ،

---

(١) أخبار النحويين البصريين : ١٣ .

(٢) نزهة الألبا : ١١٦ — ١١٧ .

(٣) بغية الوعاة : ٤١١ ، نزهة الألبا : ٣٩٠ .





وأما من تفهم جميع كلامه فأبو سعيد السيرافى(١) .

على أن هناك أسباباً أخرى خاصة كان لها فى غموض النحو الغامض عمل غير مردود ، كجمود القريحة ، وضعف ملكة البيان ، وقلة نضج الموضوع ، والرغبة فى الإبهام والتعمية ، لئلا يهون شأنه وتقل الحاجة إلى أهله ، ويتيسر فهمه والإفادة منه على غير الخاصة من المنقطعين له وأصحاب المزية والتقدم فيه .

قال الجاحظ : قلت لأبى الحسن الأخفش أنت أعلم الناس بالنحو ، فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها ، وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها ، وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم ؟ قال : أنا رجل لم أضع كتبى هذه لله ، وليست هى من كتب الدين . ولو وضعتها هذا الوضع الذى تدعونى إليه قلّت حاجتهم إلىّ فيها ، وإنما كانت غايتى المنالة(٢) .

وراعت النحاة ضخامة النحو وتشعب فروعه وثقل أعبائه على الطلاب فأخذتهم بهم رحمة ، وأبوا إلا أن يتخذوا فيهم عوناً ، فتناولوه بالنظم ، يسلكون مسائله فيه ، ويجمعون أشتاته به ، لئلا يشق عليهم حفظه ، ولا يسرع إليهم نسيانه فأصابوا فى ذلك نجحاً ولكنه غير حاسم ، فالنظم أصعب من النثر مراساً وأبعد متناولا ، ولا سيما نظم العلوم ، لأنه لا مجال فيه للمجاز والخيال ، ولهذا يغلب عليه الحشو ، وتشيع فيه الضرائر ، وتتابع المآزق ، ولا يسع الناظم إلا أن يغفل بعض ما يجب ذكره ، أو يخفى فيه بالتلميح عن التصريح ، أو بالمفهوم عن الملفوظ .

وإذاً لابد لفهم إشاراته واكتناه دقائقه من جهد أكبر من جهد النثر ، يضيفه الطالب إلى جهد التحصيل والحفظ . بل إنه لحقيق أن يتكلف جهداً آخر فى التعهد وتكرار المراجعة لئلا تنبهم الإشارات وتشتبه المعالم ، فلا يكون ثمة إلا أشتات من أمهات المسائل وجملة الفروع .

---

(١) نزهة الألبا : ٣٩٠ — ٣٩١ .

(٢) الحيوان : ١ : ٩١ .



ويقبل عصر الركود والجمود ، فلا تركد حركة النحو ولا تجمد ، بل تستمر وتطرد ، لا لتجدد أو تبتكر ، ولكن لتنقل وتقلد ، وتكرر وتزيد ، وتختصر مطولا ، وتطيل مختصراً ، وتنظم منثوراً وتحل منظوماً وتشرح متناً ، وتعلق على شرح ، وتصطنع أحاجى وألغازا .

حركة دائبة ، لكنها رحوية دائرة ، قلما تأخذ إلى أمام ، ولم تخل على كل حال من بركة ونفع ؛ لأنها دلت على نفسها وصورت عصرها ، وقد حفظت لنا مع ذلك نصوصاً من أصول ومراجع عدت عليها العوادى ، ولم يصل إلينا منها غير أسمائها ، أفرغوها فى كتبهم بقايا ماثلة وآثاراً شاخصة ، قد يكون فيها للدارس المتأمل هنية ومتاع .

نعم ، كان للسلف شىء من هذا الذى ذكرنا عن نحاة القرون الأخيرة ، ولكنه لم يبلغ أن يكون سمة العصر وطابعه ، كالذى كان من ابن العريف القرطبى المتوفى سنة ٣٦٧ ، إذ وضع لولد أبى عامر المنصور مسألة فيها من العربية مائتا ألف وجه ، واثنان وسبعون ألف وجه ، وثمانية وتسعون وجهاً [١]. ومثله ما كان من ملك النحاة المتوفى سنة ٥٦٨ ، إذا استشكل عشر مسائل ، وسماها المسائل العشر المتعبات إلى الحشر [٢] .

وليس يسع المنصف حيال هذا التراث الرائع إلا أن يعجب به ، ويثنى على أصحابه ، ويعظم ما أنفقوا عليه من جهد ، واحتملوا فيه من كد ، وما أسدوا به إلى العربية من فضل .

ويرحم الله أبا العلاء ، لقد ذكرهم فأكبر فضلهم ، وود لو كان للغة عقل يعقل وإحساس يحس ، فتبكى عليهم ، وتستهول خطبها فيهم ، لكنهم مضوا كما مضى غيرهم ، لا تبالى منهم أحداً ولا تدرى من أمرهم شيئاً ، قال :

---

(١) بغية الوعاة : ٢٣٠ .   (٢) المصدر السابق : ٢٢٠ .



تولى سيبويه وجاش سيب ـ من الأيام فاختل الخليل
ويونس أوحشت منه المغانى ودون مصابه الخطب الجليل
أتت علل المنون فما بكاهم من اللفظ الصحيحُ ولا العليل
ولو أن الكلام يحس شيئاً لكان له وراءهمُ أليل[١]

ولقد يبدو أن فيما أسلفنا عن النحو شيئاً من مبالغة أو محاباة ؛ لأننا ورثة هذا التراث ، وخلَف لذاك السلف ، فنمسك إذا عن القول فيه ، وندع الكلام لرجلين من قوم آخرين ، لسنا منهم ، وليسوا منا فى شىء ، أحدهما يوهان فك ، والآخر ديبور .

قال يوهان فك : « ولقد تكفلت القواعد التى وضعها النحاة العرب فى جهد لا يعرف الكلال وتضحية جديرة بالإعجاب — بعرض اللغة الفصحى وتصويرها فى جميع مظاهرها من ناحية الأصوات والصيغ ، وتركيب الجمل ومعانى المفردات ، على صورة محيطة شاملة ، حتى بلغت كتب القواعد الأساسية عندهم مستوى من الكمال ، لا يسمح بزيادة المستزيد[٢] .

وقال ديبور : إن علم النحو أثر رائع من آثار العقل العربى ، لما فيه من دقة الملاحظة ، ونشاط فى جمع ماتفرق . وهو لهذا يحمل المتأمل فيه على تقديره ، ويحق للعرب أن يفخروا به[٣] .

ثم كانت النهضة الحديثة ، وعنيت مصر بالتعليم كما عنيت بغيره من شئون الدولة ، فأخذ المؤلفون يؤلفون فى النحو المدرسى ، كما يؤلفون فى غيره من مواد الدراسة ، فظهر سنة ١٢٨٦ من الهجرة كتاب تقريب فن العربية لأبناء المدارس الابتدائية ، ألفه الشيخ أحمد بن محمد المرصفى ، أحد « خوجات » المدارس الملكية ، كما وصف نفسه بظاهر الكتاب ، وقال فى مقدمته : إنه عرضه على

---

(١) اللزوميات : ٢ : ١٥٧ . الأليل : الصراخ عند المصيبة .
(٢) العربية : ٢ . (٣) مجلة الأزهر ، مايو ٩٥٢ ، ص : ٤٠ .



سعادة مدير المدارس على مبارك باشا ، « فأعجبه حسن ترتيبه ووضعه ، وأصدر أمره بتمثيله وطبعه » .

والكتاب صورة مختصرة لكتاب النحو القديم فى لغته ونسقه ، يحرص على المصطلحات النحوية ، ويعرف الموضوعات بتعاريفها الفنية ، وينفى عن كل معرف ما ليس منه ، ولا ينطبق تعريفه عليه ، ثم لا يفوته أن يستدرك على بعض المسائل بالتنبيهات أو الفوائد أو التتمات ، وربما أورد بعض الاعتراضات اللفظية وأجاب عنها على الطريقة النحوية المأثورة .

وفيه جدول للضمائر ، وآخر للظروف ، ولكن ليس فيه تطبيق ، ولا له فهرس. ويقرظه الشيخ أحمد الشبينى، أحد (خوجات) مكاتب الأوقاف، ويؤرخ ظهوره بستة أبيات يقول فى أولها :

إن رمت بلومك تهذيبى ‏ ‏ ‏ ‏ فعلام بغيك تعذيبى

ويقول فيها عن الكتاب :

أغنى النحوى عن التصريـ ‏ ‏ ‏ ‏ ـح وجاء برقة أسلوب

ثم يختمها بقوله :

وهلم إلى التاريخ هنـا ‏ ‏ ‏ ‏ قد رق الطبع بتقريب

٥٦ ‏ ‏ ‏ ‏ ١٠٤ ٣٠٠ ١١٢ ٧١٤

ثم أنشئت مدرسة دار العلوم سنة ١٢٨٩ من الهجرة ، ومضت تؤدى رسالتها فى خدمة العربية ، فظهر أثرها فى خدمة النحو بعد قليل ، إذ ألفت لجنة من خريجيها الأولين سلسلة الدروس النحوية فى أربعة كتب : الأول والثانى والثالث للمدارس الابتدائية ، والرابع للمدارس الثانوية . وزادت مدة الدراسة الثانوية سنة رابعة ، فتغير المنهج ، وتغير معه الكتاب الرابع ، ثم ضم إلى كتاب دروس البلاغة للمدارس الثانوية ، وخرجا معاً كتابا واحداً ، سمى كتاب قواعد اللغة العربية للمدارس الثانوية .

وتقوم فكرة هذه الكتب على التدرج مع التلاميذ ، وبعث التطلع فيهم أو فى الممتازين منهم إلى المزيد ، فيعرض كل كتاب قواعد السنة التى ألف لها ، ثم لا يلتزم الاقتصار عليها ، بل يشير إشارات عابرة إلى بعض المسائل المتصلة بها ، ولا سيما فى المواطن التى تدعو إلى التساؤل وتهيىء لقبول الزيادة ، وأكثر ما يرى ذلك فى كتب الفرق المتقدمة .

أما طريقتها فقائمة على السرد الخالص وقلة التطبيق . وأما لغتها فواضحة حاسمة ، لكنها موجزة جامعة .

ويعد ظهور هذا الكتاب حين ظهر عملا قيما ، وتطوراً فى النحو جديداً ، وقد لبث كتاب النحو الرسمى للمدارس الابتدائية والثانوية وما فى حكمها قرابة نصف قرن ، ليس لها كتاب سواه .

على أن المدرسين بعد أن تطورت طرائق التدريس لم يغفلوا فى دروسهم ما أغفل الكتاب ، فأخذوا تلاميذهم بالتمرن على ما يدرسون .

ومن كتب النحو غير الرسمية التى ظهرت أوائل القرن العشرين سفينة النحاة فى أربعة أجزاء مسلسلة للأخ بلاج ، مفتش اللغة العربية بمدارس الفرير فى مصر ، وكفاية الطالب وبغية الراغب ، للقس يوسف الجميتارى الراهب الأنطونى .

ويكثر فى الكتاب الأول الهوامش والتعليقات ؛ للتكملة أو التوضيح أو بيان الحكم والأسباب . ويشتمل على تمرينات لأبوابه المختلفة ، وليس يسلم من بعض الهفوات الفنية العارضة .

ثم ظهر كتاب النحو الواضح للأستاذين : على الجارم ، ومصطفى أمين ؛ فخطا بالنحو المدرسى خطوة أخرى ، فمؤلفاه الجليلان من أعلام اللغة والأدب ، وأساتذة التربية والتعليم . وتقوم طريقة الكتاب على عرض الأمثلة ودراسة خصائصها وملاحظة الفروق بينها ، ثم استنباط القاعدة منها . ويلى كل موضوع فيض زاخر من التطبيق المنوع ، يساير القواعد خطوة خطوة ومرحلة مرحلة . ولغته



فى القواعد كلغة الدروس النحوية، توشك أن تكونها، لكنها فى التمثيل والشرح ناصعة بينة، عليها مسحة بادية من جمال الفن ورقته .

وقد أقبل عليه المدرسون والتلاميذ فى مصر والأقطار العربية، فأفادوا منه كثيراً . وفى الكتاب شىء من هفوات فنية ، لكنه أيسر من أن يقعد به عن تحقيق المراد منه .

وظهرت بعده كتب شتى ، رسمية وغير رسمية ، تأثرته فى الخطة والطريقة، فكان لها من ظاهره نصيب قليل أو كثير . أما خفة مئونته وقرب متناوله فهيهات، وظهر كتاب القواعد النحوية: مادتها وطريقتها للأستاذ عبد الحميد حسن، ويتضمن فيما يتضمن آراء المؤلف فى تيسير النحو وطريقة تدريسه ، وهى آراء حقيقة بالدرس والاعتبار .

وظهرت فى غير هذا المجال كتب أخرى ، منها شذا العرف فى فن الصرف، للأستاذ أحمد الحملاوى ، وتهذيب التوضيح للأستاذين أحمد مصطفى المراغى وأحمد سالم علي ، والكامل للأستاذ أحمد صفوت

وتقوم كلها على تلخيص المسائل، وإتمام الشواهد، والإقلال من الخلاف .وتعول أكثر ماتعول فى نظامها ومادتها على كتاب أوضح المسالك، لابن هشام، والتصريح عليه للشيخ خالد الأزهرى .

وظهر كتاب التطبيقات العربية للأستاذ أحمد نجاتى ، ويشتمل على أسئلة عامة وتطبيقات منوعة فى النحو والصرف ، وفى العروض والقافية وفنون البلاغة. وقد التزم المؤلف الإجابة عن الأسئلة والتطبيقات . يشرح قواعدها ، ويوضح أسرارها فى بيان ناصع وتفصيل صريح ، فيقف القارىء منه على علم غزير ونفع كبير .

وأهم مايؤخذ عليه أنه ليس له فهرس ولا فيه شىء من نظام ، ويكثر فيه بعد ذلك التحريف المطبعى ، مع أن الذين تولوا طبعه ثلاثة من المدرسين .



ولما جاءت جامعة فؤاد الأول ، ومضت تؤدى رسالتها ، وتضطلع بنصيبها في خدمة العلم والأدب — إذا آراء جريئة ، ووثبات بعيدة لم تسلم من الإسراف في بعض الأمر . كأنما كانت انطلاقا مكافئا للجمود الذى خلفته القرون الأخيرة ، أو تجاوبا مطابقا للثورة النفسية والتطورات المذهبية بعد الحرب العالمية الأولى .

وليس يعنينا من آثارها فى هذا المقام إلا كتابان : إحياء النحو للأستاذ إبراهيم مصطفى ، والرد على النحاة لابن مضاء ، أخرجه الأستاذ شوقى ضيف . فكلاهما بمثابة محاولة جامعية لتجديد النحو . ويدعو ابن مضاء فى كتابه إلى أمور ، منها : إلغاء العوامل والقياس وبعض العلل وتقدير الضمائر ومتعلقات المجرورات ، ويأخذ الأستاذ إبراهيم مصطفى أموراً على النحاة ، منها : إهمال بعض أساليب الكلام ، وفلسفة العامل ، واعتبار الإعراب أثراً لفظيا .

ولم يشر مؤلف إحياء النحو إلى أنه رجع فيه إلى الرد على النحاة ، وإن كان لينحو منحاه ويستهديه فى بعض المباحث . وعلى كل حال لقد وضع الأستاذ محمد أحمد عرفة كتاب النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة للرد على إحياء النحو ، فأثبت بما أورد من نصوص ، وما عرض من تفسيرات وأخذ من مآخذ أن مباحث إحياء النحو إما آراء قديمة عرض لها القدماء وسبقوا إليها ، وإما دعاوى قابلة للمناقشة والنقض ، أو فيها مجال واسع للاختلاف وتعدد وجهات النظر . ويعتبر رد الأستاذ عرفة على إحياء النحو كذلك رداً سابقا وغير مباشر على كتاب الرد على النحاة ، ولا سيما فى نظرية العامل والدعوة إلى إلغائه . وليس يتسع المجال هنا للعرض والنقد .

ثم كانت محاولات رسمية وغير رسمية لتيسير النحو على التلاميذ ، اشترك فيها كبار الأساتذة والمربين ، وأسفرت عن مقترحات مختلفة وآراء متشعبة ، ولكنها



غير خالصة ولا حاسمة ، فانبرى لها النقاد ، يفندونها أو يكشفون عن قصورها وصعوبة الأخذ بها .

على أن هناك أوجها من التيسير ، خلصت من الاعتراض والنقد ، فأدخلت فى كتب التلاميذ ، وجرى المدرسون على العمل بها والتعويل عليها ، لأنها ترجع فى جملتها إلى صيغ الإعراب والاقتصار فيها على قدر حاجة التلاميذ ، إما بالاختصار منها، أو استحياء بعض المذاهب فيها .

أفترى بعد هذا أن الشكوى من النحو انقطعت والتبرم بالنحاة قد ذهب مع الأيام ؟ هيهات . فمن التلاميذ من يتعلمون دروسهم الأولى فى رياض الأطفال أو المدارس الأجنبية، وربما لا تتهيأ لهم مع ذلك رقابة مستنيرية ؛ ولا توجيه رشيد، فإذا دخلوا المدارس المصرية ، وجدّ بهم الجد هناك أخذهم الإعياء ، ولج بهم العثار، فعجزوا عن مسايرة الركب أو انقطعوا عنه جملة .

ومَن هذا الذى يهون عليه أن يقر بخطئه ، ويحمل نفسه تبعة التورط فيه ؟ إنه لايكاد يعرف فى الناس ، فالحق صعب مر ، ونفس المرء أعز عليه من كل شيء ، وفى طبعها غرور وكبرياء . ومَن هذا الذى يهون عليه أن يقر بعجز ابنه أو قصوره ، ويهون عليه فى تربيته التسليم بالأمر الواقع إذا أخفق ، فيتجه به الاتجاه الذى يلائمه ، لا الاتجاه الذى يتمناه له ، ويريده عليه ؟ إن ابنه بضعة منه ، وصورة له ، وهو بهذا حقيق أن يخلفه فى قومه ، وأن يغنى غناءه فى الأمر كله .

وماذا عسى أن يحمله على الإقرار بهذا أو ذاك ، بل ماذا عسى أن يحمله على التفكير فيه ، وهو واجد فى غيره مراغما وسعة ، فهناك المدرسة المصرية إن يرد تعميما ، وهناك اللغة العربية ولا سيما النحو إن يرد تخصيصا : أليست لغة البلاد القومية ؟ فمن حق كل إنسان إذا أن يتكلم عنها ، ويرد ضعف التلاميذ فيها إلى النحو ، وأن يتكلم فى إصلاحه ، ويتقدم بمقترحات فيه . نعم هو النحو ولا شيء



غيره ، فلكثير ذكريات عنه وعن أصحابه قديمة ، وهي لسوء الحظ غير سعيدة ولا شائقة ، وقد آن لهم الأوان أن يذكروها له ، ويأخذوه بها ؛ لئلا يكون لفلذات الأكباد منها اليوم مثل ماكان لهم هم بالأمس .

وللنحو من غير هؤلاء خصوم كبار ، دان لهم القول في كثير ، فخبوا فيه ووضعوا ، وغيروا منه وبدلوا ، وكلما قيل لهم رويدكم بعض هذا ، فقد أسرفتم ، وكاد الشطط يذهب بكم ، أو هو قد ذهب بكم مذهبا بعيدا ، قالوا في صلف وتيه : ماأنتم وذاك ؟ وما قولكم فيه ؟ إنه ليس منكم ولا أنتم منه في شيء ، الزموا قديمكم إن شئتم ، فاعكفوا عليه ، ودوروا حوله ، ودعونا والنزعة الجديدة والرأى الحر الجرىء .

كان هذا فى غير النحو ، لأنه تأبى عليهم ، وبقى على العهد به ممتنعا فى حصونه ، مستعصيا على المحاولة والأمنية ، لأن له قوانين ثابتة وأصولا راسخة ، لاينفع فيها مجرد دعوى التجديد ، ولا يغير منها كذلك مجرد الرأى الحر الجرىء .

فارتفعت الشكاة ، وتجاوب صداها هنا وهناك ، يكتبها الكاتبون ، ويحاضر فيها المحاضرون من الآباء وغير الآباء ، وذهب النحو منها بأضخم نصيب ، هو وحده مدارها ، أو فى الصميم من مدارها ، أو المثل الذى يضرب لتأييدها والإقناع بصحتها ، لاتغنى عنه نتائج الامتحان ، ولا يشفع فيه تحول طرائقه ولا تجديد كتبه .

وسكنت الشكوى أو كادت إبان الحرب وما تلاها لقسوة ظروفها ، واشتغال الناس بها عن غيرها ، حتى إذا أخذت الظروف تلين ، وأخذ الناس ينصرفون عن الاشتغال بها تحركت الشكوى فى هوادة ورفق ، لاتجاوز مكاتب وزارة المعارف ، مسايرة لنزعات التغيير والتبديل التى كانت توشك أن تكون سياسة الحكم فى مصر ، منذ غلبت الحزبية ، واشتدت المنافسة بين الأحزاب .

ومن يدرى لعلها كانت تعود جذعة لولا أن تداركها متدارك من تغيير نظم



الامتحان وتهسير النجاح على التلاميذ . والآن ماذا علينا أن نصنع بالنحو أو نصنع له إبراء لذمتنا وأداء لواجبنا ؟ .

إن الإجابة عن هذا السؤال تترتب على الإجابة عن سؤال آخر ، وتختلف باختلافها ، فيحسن لتحديد الإجابة ونفى الشيوع عنها أن نورد السؤال الآخر ، وننظر ماذا يكون الجواب عنه أولا ، ولو أن قوما سينكرونه ويضيقون به ، كدأبهم كلما وُصل شيء بالدين أو حُكِم الدين فيه ، كأنهم يرون ذلك رجعية إلى وراء أو جمودا على قديم . ومهما يكن من أمر فإنى ماض إلى السؤال فيورده ، وناظر ماذا يكون الجواب عنه ، ولا علىّ أن ينكره منكر ، ويضيق به ضائق ؛ فالأمر أجل من أن ينظر معه إلى شيء أو يقام معه وزن لشيء .

وهذا هو السؤال : هل نريد أن تكون العربية كما أرادها الله لغة دين ودنيا فى وقت معا ، أو نريدها لغة دنيا وكفى ؟ فإن يكن الثانى فقد تخلصنا فى أمرها من القيود والحدود ، وصح لنا أن نصنع بها مانشاء على مانشاء ، ولكن لاينبغى حينئذ أن نبقى على تسميتها بالعربية ، لأنها صائرة مع الزمن فى هينة ورفق أو فى اندفاع وعنف إلى التحول عن سمتها ، والتنكر لأصولها ، حتى تنتهى إلى لغة غير اللغة . وربما كان خيرا لنا من هذا العناء أن نتخلص منها جملة وتتخذ لنا منذ اليوم الذى نرى فيه هذا الرأى لغة أخرى غيرها من لغات الحضارة القائمة .

وإن يكن الأول فلا مفر لنا من الحفاظ عليها فى مادتها وأصولها كما ورثناها عن أصحابها الأولين ، لاتغيير ولا تبديل فى طرائق إعرابها الموروثة ولا فى وسائل تنميتها المرسومة على ماأقره المجمع اللغوى فى أول عهده بالحياة[1] . وإذا لاغنى لنا عن النحو كما خلفه قدامى النحاة فى جوهره ، فقد كانوا من حفظة اللغة ورواتها ، تجردوا لجمعها والنظر فى أساليبها ، ثم جاءونا بما هدوا إليه وتبين لهم بالاستقصاء

---

(١) راجع مجلة مجمع اللغة العربية الملكى : الجزء الأول : ١٧٧ — ٢٦٨



والتحرى أنه البيان العربى كما كانت تصطنعه العرب ، ثم هم لم يفرضوا علينا القول فرضا ، ولا ألقوه إلينا مرسلا ، ولكنهم جاءوا به رأيا رأوه ، ونتيجة وقعوا عليها ، مقرونة بالشاهد أو الدليل . فإن تكن صوابا ، وإلا فباب التصويب مفتوح ، ووسائله معروفة مقررة .

فما ضيقنا بالنحو ، وإنما هو قانون اللغة التى قُدر علينا أن نتكلم بها و اجريرة النحاة فيه ، وما إساءتهم إلينا به ، وهم إنما أخذوه من العربية كما ألفوا أصحابها يتكلمون ؟ أنضيق بفلسفته ؟ وكيف ؟ وكل شىء من الثقافة اللغوية والدينية قد دخلته الفلسفة وأثرت فيه ، وصبغته بصبغتها ، وما كان ممكنا أن يسلم منها النحو وحده ، وإلا كان عجباً من العجب أو تلفيقا من التلفيق ، يراد به إخفاء طابع الثقافة ، وسمة العصور فى النحو خاصة .

أم نضيق بمدارسه ومذاهبه وتعدد الآراء فى كثير من مسائله ؟ وكيف ؟ وعمدة النحاة فيه الرواية والفهم وظروف الحال والبيئة ، وكل أولئك مختلف جدا ، فلا يمكن أن يكون النحو إلا كمثله مختلفا جدا ، لأنه صادر عنها ومتأثر بها .

أم نضيق بعلله وحجج المختلفين فيه ؟ وكيف ؟ ومن طبع الإنسان البحث عن الأسرار والسؤال عن المجهولات والإنكار فى الحجاج . فالنحاة بما أتوا من هذا إنما يستجيبون للطبع المستنير فى استنباط المسائل وعرضها على الناس ، فترضى العقول وتطمئن القلوب ؛ وتأخذ ماتأخذ عن بينة ، وتدع ماتدع عن بينة .

والآن ، مالى لا أنكر من النحو شيئا ، كأنى عنه راض ، وإليه مطمئن ؟ والواقع أنى عند رأيى الذى قلت آنفا فى شوائب النحو ، لا أنكرها ولا أضيق بها واقعا من الأمر ، وإنما أنكر الإسراف فيها والافتتان بها ، كما تتمثل فى أسفار القرون الأخيرة ، قرون التزيد والتكرار ، فانبهمت المسائل ، واضطرب النظام وغمت المعالم والأصول .

فالذى علينا أن نصنع له أمران : الأول أن نرجع النظر فيه من جديد ،

لا على أنه فاسد مختل ، يستحق الهدم ، ولكن على أنه صالح مشوب ، يغشاه غبار الزمن، ويختلط فيه الجوهر بالصدف ، والنافق بالزيف ، حاجته أولا وآخرا أن ينفض عنه الغبار ، وتنفى الشوائب ، ويعرض عرضا جديدا .

نرجع النظر فى أبوابه ، فنقدم منها ونؤخر ، ونضيف إليها ونحذف على نور من المنطق وتساوق النسق ، ونرجع النظر فى مسائله ، فنلغى الشروط المنقوضة ، ونوحد الأساليب المكررة ، ونطلق الأصول المقيدة عند الحاجة المقتضية ، وفى الحدود الموسومة ، وعلى هدى من أقوال الأئمة ، حتى لا تصبح اللغة هدفا لبعض النزوات الجامحة ، والآراء الهادمة .

ولنا أسوة حسنة فى أستاذنا الجليل أحمد الإسكندرى، رضوان الله عليه، إذ قدم إلى المجمع اللغوى مقترحاته الجليلة فى الاشتقاق والمطاوعة والتعدية وغيرها[1] . فقد رجع رحمه الله فى كل أولئك إلى المعاجم يتتبع ويستقصى، وإلى آراء الأئمة من النحاة وفقهاء اللغة يستوحى ويستشهد ، حتى خلص من هذه وتلك بالرأى الحصيف والنتيجة المجدية ، ولم يسع المجمع إلا أن يقره عليها ، ويأذن فى نشرها ، فلقيت من العلماء وأهل الغيرة على العربية رضاء عاما، وارتياحا شاملا، واستحق بها الأستاذ رحمه الله ثناء جميلا ، وشكرا جزيلا ، وذكرا باقيا .

وليس يقتصر فضله فيها على جهده الجهيد، وأثره الحميد فى تطويع اللغة وإنماء ثروتها، وتيسير التعبير بها ، ولكنه يمتد كذلك إلى طريقتـه فى الاهتداء إليها والاحتجاج لها، فقد وضع بذلك دستور البحث النحوى الجديد كما ينبغى أن يكون، لتنمو اللغة نموا ذاتيا باستحياء القديم واستخلاص الدفين ، فتبقى على صلتها المقدورة بماضيها ، وتأمن عوادى الاندثار والدروس فى مستقبلها .

ونرجع النظر فى شواهده ، فنمحصها ، ونحقق روايتها ، ونعززها أو نتبدل بها غيرها ، أو نحذف منها ما نراه حقيقا بالحذف ، كشواهد اللهجات البائدة والزوائد

---

(١) مجلة المجمع اللغوى : ١ : ٢٠٤ — ٢٦٨ .



اللاصقة لاقيمة لها ، ولا رجاء فيها ، ولا حاجة إليها .

ونرجع النظر فى علله لانبقى منها إلا مايتصل بالمعنى ، ويتفق مع طبيعة البيان الرفيع والذوق ، الصحيح فإذا ماخلصت المادة ، واستقامت على ماتريد رجعنا إليها نسلكها فى نظام التأليف الحديث ، ونجلوها فى معرض من لغته العتيدة ، عسى أن يكون بذلك سفر العصر فى مكتبة النحو ، تدعوه فيلبى الدعوة ونرغب إليه فيسعد بالطلبة فى غير إعنات ولا إضاعة وقت ، وندعه أثراً بعدنا ، يحدث الأجيال المقبلة عن صنيعنا للنحو وأثرنا فيه ، كما تحدثنا أسفار الماضين عن صنيعهم له وأثرهم فيه

هذه خطة مجملة ، لكنها فيما أرى كافية ؛ لأنها على إجمالها واضحة المعالم والخطوط . وأعتقد أن المقام لايتطلب البسط والتفصيل على كل حال ؛ لأنه نوع من التقييد قبل الأوان ، والمجال الآن للنظر المجرد ، وما أكثر مايخالف العمل النظر ، ويقتضى تغييره أو تعديله ، فحسبنا ذلك وكفى .

والأمر الثانى أن نعمد إلى أسفار النحو القيمة ذات المزية الخاصة ، فنخرجها إخراجاً عصريا كريما ، وقد أخرج بعض ، ولا يزال بعض تحت الإخراج ، وكلاهما قليل .

ألا وإن هذه المهمة فى شعبتيها لثقيلة مرهقة ، تكلف جهداً كبيراً ومالا كثيراً ، فأما الجهد فإنها فيما أعلم واجدة كفاءها منه إن شاء الله . وأما المال فعلمه عند أصحاب أمره والقادرين على تدبيره ، وهم دون غيرهم أهل الرأى فيه والحكم عليه .

فأما دور النشر فما أظن أنها تنشط لهذه المهمة أو تقبل عليها ، فقد ترى فيها مغامرة غير مثمرة ، بل غير مأمونة العاقبة ؛ لقلة المهتمين بالنحو والراغبين فيه بالإضافة إلى غيره ، وإذاً يكون أولى الناس بتقديرها ، والبذل لها إما الجامعة ، وإما وزارة المعارف ، فهل نطمع أن تتطوع إحداهما للندب لها والإنفاق عليها ؟



من يدرى ؟ وسيفيد النحو المدرسى من هذه المزمة خيراً كثيراً ،وفى صلاح الأصل صلاح الفروع ، فالفرع من أصله ، والجزء تابع لكله .

وأياً ما يكن الواقع فقد آن للآباء ، ولا سيما المستنيرين أن يعاونوا المدرسة على أداء رسالتها ، فيرعوا أبناءهم ويحببوا إليهم قوميتهم ، ويروضوهم على الكدح والمثابرة فى دروسهم ، بسداد التوجيه وضرب المثل وحسن القدوة ، لينشئوا على التماسك ، وأخذ الأمور بالجد واعتياد التفكير فيها وتقدير تبعيتها وإعداد العدة لها ،وهم لكل أولئك أهل ، وفيهم له استعداد ، ولهم عليه قدرة ، فليست الطفولة كما يخيلها الضعف الغالب: والحنان الساذج رقة وليناً وكنى، ولكنها كذلك حيوية وتفتح وقبول . وبذلك ينجحون فى المدرسة، ويزودون للنجاح فى المجتمع، فالمدرسة معترك الطفولة، والمجتمع معترك الرجولة، والمدرسة مقدمة المجتمع وصورته المصغرة. ولا يقولن امرؤ إنى لا أجد فسحة من وقت ولا راحة من عمل، فهذه خدعة كاذبة وتعلة باطلة ، والإرادة الصادقة جديرة أن تحقق لصاحبها المراد على وجه من الوجوه ، ومن يفكر فى إنجاب الأولاد حقيق أن يفكر مع ذلك فى رعايتهم وتيسير أسباب النجاح لهم . وتجنيبهم مذلة الإخفاق ما استطاع .

فالأصل النجاح ، والإخفاق عرض موقوت ، والنجاح يغرى بالنجاح والإخفاق يكسر النفس ، ويفل الهمة، ويوهن العزمة ، فإذا تكرر هان وقعه، وقلة التحرز منه ، والا كتراث له .

وليذكر الآباء أن فرط الإشفاق على الأبناء ، والغلو فى الرفق أضر عليهم من إغفال أمرهم ، والتخلية بينهم وبين ما يشتهون ، فربما أتيح للطفل على الإغفال والتخلية فرصة سعيدة جنبته العثار ، وأخذت به على الطريق القويم ، وأما الإفراط فى الإشفاق والغلو فى الرفق فأجدر أن ينشئاه نشأة ناعمة بل عاجزة، وأن يوحيا إليه بالاستسلام وإيثار العافية ، وكيف مع ذلك يطيق كفاحاً ، أو يصبر على محاولة والحياة بين يديه ورد وشوك وصفو وشوب ؟ أما حياة الورد الخالص



والصفو لا شوب معه فلم تخلق بعد ، فلنعدهم للحياة على حقيقتها ، وكما نجدها في الواقع المحسوس .

وبعد فإن ملازمة العظيم وطول الصحبة له — مما يثير فى النفس أشتاتاً من الخواطر والآراء ، وألواناً من العبر والعظات، توحى بها شخصيته وجانب العبقرية منه، وسيبويه فى النحو والنحاة كلمة تعنى النحو فى تاريخه الأطول وتنتظم النحاة جيلا فى إثر جيل . وقد كانت حياته مبعث نهضة فى النحو رائعة ، أتاحت له أسباب النضج كاملة زاخرة ، فنضج حتى احترق كما يقولون .

وقد لازمت سيبويه حياتى الواعية كلها أقرأ له أو لتلاميذه ، واليوم آن لى أن أتحدث عنه ، وهذه هى أشتات الخواطر والآراء وألوان العبر والعظات التى أوحت بها شخصيته وجانب العبقرية منه فى هذا الحديث ، وعسى أن تكون ذكراه فى هذا الكتاب مبعث تجديد فى النحو ، كما كانت حياته فى عصره مبعث نهضة شاملة فيه . وعلى الله قصد السبيل ، ومنه نستمد العون والتوفيق .

عصر سيبويه (*)

ولد سيبويه فى أوائل دولة بنى العباس ، ومات فى خلافة الرشيد . فقد شهد هذه الدولة إذا وقد تم لها الأمر ، واجتمع فى يدها السلطان ، وشهدها وقد أقبلت على الرفاهية وفرغت للحضارة والمجد .

جاهد فيها السفاح وأعوانه ، فهزموا مروان بن محمد فى الجزيرة والشام ، وقهروا «ابن هبيرة» فى واسط بعدما التجأ إليها واعتصم بها. وأغراهم الغلب والثِّرة وحب الملك بالانتقام والقسوة فيه ، فأسرفوا فى سفك الدماء والتنكيل بالأعداء حيث ثقفوهم ، وخاصة بنى أمية حتى لم ينج منهم إلا هارب أو رضيع ، بل لقد نبش عبد الله بن على قبورهم بالشام وأخرج جثة هشام ، وكانت لاتزال صحيحة إلا قليلا ، فضربها بالسياط، وصلبها ثم حرقها ، وذراها فى الرياح . ويقول السفاح بعدما فرغ من بنى أمية :

بنى أميـــة قد أفنيت جمعـــكم	فكيف لى منكم بالأول الماضى ؟
يطيِّب النفس أن النار تجمعكم	عوضتم من لظاها شر معتاض
منيتمُ لا أقال الله عثرتكم	بليث غاب إلى الأعداء نهـــاض
إن كان غيظى لفوت منكم فلقد	رضيت منكم بما ربى به راض[1]

خلص إذا ملك بنى أمية لبنى العباس ، ولكن بعدما أجروا فى سبيله بحرا من الدماء ، وعبروا إليه على جسر من الأشلاء والرءوس . وكان ملكا كبيرا ، يبدأ شرقاً من كشغر وينتهى غربا إلى بحر الظلمات ، ثم يبدأ شمـــالا من بحر قزوين ، ويمضى جنوباً إلى أواخر النوبة ، فيشمل أقاليم المشرق (خراسان وماوراء جيحون) والسند ، والديلم ، والجبال ، وخوزستان ، وكرمان ، وفارس

(*) ملحوظة : مالم نذكر مرجعه فى هذا الفصل فمرجعه محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للأستاذ الخضرى .

(١) الفخرى : ١٣٥ — ١٣٦

والرحاب، والجزيرة ، والعراق ، وجزيرة العرب ، والشام ، ومصر ، والمغرب . ونهج المنصور نهج أخيه فى تدبير الأمر بالصرامة والجزم ؛ لتسلم الدولة ويخلو له وجه السلطان ، فأخمد ثورة عمه عبد الله بن على وحبسه حتى مات ، وثورة كل من محمد بن عبد الله النفس الزكية وأخيه إبراهيم ، وقتلهما وشرد بقية آل الحسن فى الأرض . وفر لعهده عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس وأسس فيها الدولة الأموية الأخرة . وما زال الروم والمسلمون يتناوبون فى زمنه الإغارة على أطراف الدولتين حتى طلب ملك الروم الصلح على أن يؤدى للمسلمين جزية ، فأجيب إلى ماطلب .

وجاء المهدى وقد ثبتت أركان الدولة ، واستقر الأمر فيها لآل العباس ، ووقعت فى عهده فتنة المقنع الخراسانى، وكان يقول بتناسخ الأرواح ، فاتبعه خلق كثير[1]. ومازال المهدى به حتى اضطره وآل بيته إلى الانتحار ، فانطفأت الفتنة، وبطلت الدعوة . وأغرى المهدى بالزنادقة ، وجرد جيشاً على الهند ، فظفر أول الأمر، ثم أخذه المرض فقفل راجعاً ، وعصفت الريح عليه. فكسرت عامة مراكبه، فغرق من غرق ونجا من نجا .

ولبثت الحرب بينه وبين الروم أكثر حياته، يغير على أطرافهم مرة، ويغيرون على أطرافه أخرى . وكان النصر حليفه فى معظم الأحيان .

وأخذ الهادى على سنن أبيه فى محاربة الزندقة وعقاب أهلها ، وثار لعهده الحسين بن على بن الحسن، فقتله وشتت شمله ، وأفلت من آل بيته رجلان: إدريس ويحيى ابنا عبد الله ، وأخوا محمد النفس الزكية ، فر الأول إلى المغرب الأقصى وأسس به دولة الأدارسة ، وفر الآخر إلى بلاد الديلم ، فتداعى الناس إليه من الكور والأمصار ، ثم استسلم للرشيد فأمنه وأكرم مثواه . أما إدريس فقد استقام أمره ، وعاشت دولته كما كانت تعايش غير بعيد منها — دولة الأمويين بالأندلس .

---

(١) النجوم الزاهرة : ٢ : ٢٨



وقبض الرشيد على البرامكة ، وأخمد ثورة الوليد بن طريف الشارى بالجزيرة وفتن الثغور بالمشرق ، وكان يغزى الصوائف بعض قواده ، أو يخرج إليها بنفسه ، وكان الغلب فيها للمسلمين على الروم فى جملة الأمر .

وكان يحكم الأقاليم ولاة يعهد إليهم الخليفة ، لكل وال إقليم أو أكثر ، فيؤم الناس ويجاهد العدو ، ويجبى الخراج ، ويحفظ الأمن ، يوكل إليه ذلك كله فينهض ببعض ويندب لبعض ، أو يوكل إليـــه طائفة منه ، ويوكل سائره إلى غيره .

ولم يكن الخليفة يحب أن يطول عهد ولاة القاصية ، مخافة أن ينتقضوا عليه وينقضوا الدولة من أطرافها .

وكان خلفاء هذه الحقبة يعهدون بالخلافة إلى غير واحد من أوليائهم ، فجعلها السفاح فى المنصور ثم فى عيسى بن موسى من بعده ، وجعلها المنصور فى ابنه المهدى ، ثم فى عيسى بعد ما سامه أن يقبل تقديم المهدى عليه ، وجعلها المهدى فى الهادى والرشيد بعد ما أكره عيسى على النزول عنها ، وهلم جرا .

وهى ظاهرة من ظواهر الأثرة والاختصاص ، أو الاستجابة لرغائب الأمهات وأصحاب النفوذ فى الدولة ، وقد جلبت على أولياء العهد وعلى الأمة معهم شرورا ، وورطتهم فى آثام كان واجباً الا تكون .

وجروا فى إقامة الملك والتمكين له على سنن الجبارين من أهل الغلب والاستئثار . ادّعوا أول الأمر أن غاية الدعوة هى أخذ الحق من بنى أمية ، ورده على أصحابه من آل البيت ، وتركوا الناس يؤولون الدعوة ، ويمينون صاحب الحق فيها على ما يريدون ، « وكان آل على » غير شك أرجح كفة ، وأقرب خطورا بالبال منهم ، فلما صار الأمر إليهم جعلوه فى آل العباس خاصة ، وسام أكثرهم آل على كل ما كان يسومهم بنو أمية أو يزيدون .

روى أن حاجب المنصور خرج فقال : من كان على الباب من بنى الحسين



فليدخل ، فدخل مشايخ بنى الحسين ، ثم خرج فقال : من كان بالباب من بنى الحسن فليدخل ، فدخل مشايخ بنى الحسن فعدل بهم إلى مقصورة . ثم أدخل الحدادين من باب آخر ، فقيدهم وحملهم إلى العراق ، فحبسهم حتى ماتوا فى حبسه بالكوفة ، وأحضر محمد بن إبراهيم بن الحسين بن الحسين بن على ، وكان يسمى الديباج الأصفر لحسنه وجماله ، فقال له : أنت الديباج الأصفر ؟ قال : كذا يقولون ، قال : لأقتلنك قتلة لم أقتلها أحدا ، ثم أمر به فبنى عليه أسطوانة وهو حى[1] ،

وقتل السفاح أباسلمة الخلال ، وقتل المنصور أبا مسلم الخراسانى ، لا يعرف كلاهما لقتيله حقاً ، أو يذكر له سابقة .

ونكب الرشيد البرامكة غير مبق عليهم ، ولا مبال من أمرهم شيئا ، وأمن المنصور ابن هبيرة وقتله ، ثم أمن عمه عبد الله بن على وقتله ، لا يرقب فيهما إلا ولا ذمة ، ولا يرعى فى عمه مع ذلك رحما .

وأيا ماتكن الأسباب أو المقتضيات التى يمكن أن يعول عليها فى تسويغ مثل هذه السياسة فالذى لاينبغى أن يكون عليه خلاف أن الغدر ليس من الدين ولا من الخلق العربى الأصيل .

وكان فيهم مع جبروت الطغاة المستبدين خشية العباد المتبتلين ، يذكرون الآخرة فيذكرون ، ويخوفون الله فيخافون . فهذا المنصور يرغب إلى عمرو بن عبيد أن يعظه ، فيتلو عليه : « والفجر وليال عشر :والشفع والوتر ، والليل إذا يسر» ويمر فيها إلى آخرها ، ثم يقول : إن ربك يا أبا جعفر لبالمرصاد ، فيبكى المنصور بكاء شديدا . ثم يستزيده من الوعظ فيقول : إن الله أعطاك الدنيا بأسرها ، فاشتر نفسك منه ببعضها . واعلم أن هذ الامر الذى صار إليك إنما كان فى يد من كان قبلك ... فيبكى المنصور حتى يرجف جنباه[2] .

---

(١) الفخرى : ١٤٦ — ١٤٧

(٢) تجد الخبر مفصلا فى أمالى المرتضى : ١ : ١٢٠ — ١٢٢ ورواه الجاحظ فى البيان والتبيين : ٤ : ٦٤ مختصرا مخالفا لما فى أمالى المرتضى .

وكان الرشيد بجده المنصور فى ذلك . قال الأصمعى :

صنع الرشيد طعاماً وزخرف مجالسه ، وأحضر أباالعتاهية وقال له: صف لنا ما نحن فيه من نعيم هذه الدنيا ، فقال أبو العتاهية :

عِش ما بدا لك سالما   فى ظل شاهقة القصـور

فقال الرشيد : ثم ماذا ؟ فقال :

يُسعى عليك بما اشتهيـ   ـت لدى الرواح أو البكـور

فقال : حسن ، ثم ماذا ؟ فقال :

فإذا النفـوس تقعقعت   فى ظل حشرجة الصدور
فهنـاك تعـلم موقنـا   ماكنت إلا فى غرور

فبكى الرشيد . فقال الفضل بن يحيى : بعث إليك أمير المؤمنين لتسره فحزنته . فقال الرشيد : دعه، فإنه رآنا فى عمى فكره أن يزيدنا منه[1] . ووقع له مع ابن السماك مثل ما وقع لجده مع عمرو بن عبيد[2] .

ويروى الأستاذ الخضرى نبأ هذه الواقعة ، ويعقب عليها فيقول : « ولا يزال الملوك بخير ماسمعوا الوعظ وتأثروا به ، ولاتزال الأمة بخير ماكان فيها من يعظ الملوك ولايخشى سطوتهم »[3].

وعرف الخلفاء صنيع الفرس للدولة ، وقدروا صدق بلائهم فى التمهيد لها وإقامة بنيتها ، فاصطفوهم وآثروهم على قومهم ، حتى أحسوا أن الدولة دولتهم أو توشك أن تكون . لقد يُسرت لهم السبل ، ووكل إليهم العمل فى كل جانب : وكلت إليهم الوزارة والحجابة وإمارة الأقاليم وقيادة الجيوش ، وتولوا مناصب الدواوين وشئون البيوت كبيرها وصغيرها ، جدها ولعبها ، يغلبون على كل أولئك أو يستأثرون به . وذهبت العصبية للعرب ، وزالت الفوارق بينهم وبين الأعاجم،

---

(١) الفخرى : ١٧٥ .

(٢) البداية والنهاية : ١٠ : ٢١٧

(٣) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية : ١٥٢ — ١٥٣



فإذا أمة واحدة، تختلف أصولا، وتتوحد دينا ولغة ووطنا ، وأصبحت أحق أن تدعى الدولة الإسلامية، لا الدولة العربية . ومازال العرب مع ذلك العزة والكرامة، فالرسول منهم ، والخلافة فيهم ، ولكنها عزة العرفان والذكرى ، لاعزة السيادة والسيطرة ، وكرامة الإجلال والتوقير ، لا التكبر والاستعلاء .

وماكان تأسيس الدولة ليُنسى الخلفاء أعمال العمارة والإصلاح أو يشغلهم عنها، فإنما هو فى جملته تغيير وتجديد ، لا إنشاء وتكوين ، فأنشىء بريد بين المدينة ومكة واليمن، وأصلح البريد فى الآفاق ، وأقيمت المناهل والمنازل على طرق القوافل، وأجريت الأرزاق على السجناء والمجذومين. وزيد ديوان الأزمة[1] ، وأنشئت الهاشمية وبغداد والرصافة وغيرها . وقد وضع المنصور بيده أول لبنة فى بغداد ثم أمرهم بالبناء .

وعرف خلفاء هذا العصر بالجد والحزم ومضاء العزيمة وسعة الحيلة وتحرى العدل والاستقامة والغيرة وسلامة العقيدة وتشجيع العلوم ، وهى جملة الخصال التى يتطلبها الملك فى نشأته ، اجتمعت فى المنصور رحمه الله أبين وأصل ماتكون ، وتفرقت فى الخلفاء من بعده على تفاوت فى الأصالة والنصيب . وهو لذلك يعد المؤسس الحقيق للدولة ، لم يتعاط رحمه الله الهزل قط ، ولاسمح باللهو فى بيته ؛ ولا سكت عنه فى ولاته ، وكان أشد مايكون جدا حين يكون فى مجلسه للناس حتى قال يوما لبنيه : يابنى إذا رأيتمونى قد لبست ثيابى وخرجت إلى المجلس فلايدنونّ أحد منى مخافة أن أعره بشىء[2] .

دخل عليه شاب من بنى هاشم فسأله عن وفاة أبيه ، فقال : مرض أبى رضى الله عنه يوم كذا ، ومات رضى الله عنه يوم كذا ، وترك رضى الله عنه من المال

---

(١) شذرات الذهب ١ : ٢٤٨ ، وتاريخ ابن الأثير ٦ : ٣٩ ومعنى دواوين الأزمة أن يكون لكل ديوان زمام ، وهو رجل يضبطه . وقد كانت الدواوين قبل ذلك مختلطة (راجع النجوم الزاهرة ٢ : ٤٢) .

(٢) الفخرى : ١٤٩

(٣) المصدر السابق : ١٤٢ ، وأعره : أسيئه .



كلها ، ومن الولد كلها . فانتهـــره الربيع وقال : بقي بين يدي أمير المؤمنين وتقول الدعاء لأبيك ؟ فقال: فما علمنا أن المنصور ضحك في مجلسه قط ، فافتر عن نواجذه إلا يومئذ .

وحدث بعض مواليه قال : كنت مرة واقفاً على رأسه فسمع صوتاً عالياً فقال لي : انظر ما هذا الصوت ، قال فنظرت فإذا هو بعض خدمه يلعب بالطنبور ، وحوله جماعة من جواريه يضحكن منه ، قال : فأخبرته الخبر ، فتنمر وقال : أي شيء يكون الطنبور ؟ قال : فوصفته له ، فقال : وأنت مايدريك بالطنبور ؟ قلت : يا أمير المؤمنين رأيته بخراسان ، فقام المنصور حتى جاء إلى الخادم ، فلما بصر به الجواري تفرقن ، فأمر فضرب رأس الخادم بالطنبور حتى تكسر الطنبور ثم أخرجه ، فباعه .

وكان ولاة البريد في الآفاق يكتبون إليه بسعر الأقوات ، وبكل ما يكون من عمل وما يقع من أحداث ؛ ليعالج كل أمر بعلاجه قبل أن يتفاقم ويعظم الخطب منه . فكتب إليه والي البريد بحضرموت أن الوالي هناك يكثر الخروج للصيد ، فكتب إليه فيما كتب : إنا إنما استكفيناك أمور المسلمين ، ولم نستكفك أمور الوحوش ، سلم ما كنت تلي من عملنا إلى فلان بن فلان ؛ والحق بأهلك ملوما مدحوراً[٣] .

ووصف أعوانه كما يريدهم ليتحقق له الحكم الذي يتصوره فقال : ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي نفر لا يكون على بابي أعف منهم ، قيل له : يا أمير المؤمنين من هم ؟ قال : هم أركان الملك ، ولا يصلح الملك إلا بهم كما أن السرير لا يصلح إلا بأربع قوائم ، إن نقصت واحدة تداعى ، وهي : أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي ،

---

(١) البيان والتبيين : ٢ : ٢٢٨ — ٢٢٩

(٢) الفخري : ١٤٢

(٣) البداية والنهاية : ١٠ : ١٢٥



والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية ، فإنى عن ظلمها غنى ، والرابع ، ثم عض على أصبعه السبابة ثلاث مرات، يقول فى كل مرة : آه . قيل له : ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة .

وقال الجاحظ يصفه :

وكان المنصور داهيا أريبا ، مصيبا فى رأيه سديدا، وكان مقدما فى علم الكلام، ومكثرا من كتاب الآثار ، ولكلامه كتاب يدور فى أيدى الوراقين معروف عندهم[1] ولقى مالك بن أنس فى الحج ، ففاتحه فى مسائل كثيرة من العلم ، وأمره بجمع أحاديث الرسول ، ورسم له المنهج فقال :

يا أباعبدالله لم يبق فى الناس أفقه منى ومنك ، فاجمع هذا العلم ودونه ، ووطئه للناس توطئة، وتجنب شدائد عبد الله بن عمر، ورخص عبد الله بن عباس ، وشواذ ابن مسعود ، واقصد إلى أواسط الأمور ، وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة ، رضى الله عنهم (فى كلام طويل) فاعتذر مالك ، فلم يقبل منه[2] .

وكان زاهدا فى المدح ، لا يشجع عليه ، ولا يجزل الصلة به : مدحه ابن هرمة فأمر له بألف درهم ، فاستقلها ، وبلغ ذلك أباجعفر، فقال : أما يرضى أنى حقنت دمه وقداستوجب إراقته ، ووفرت ماله وقد استحق تلفه ، وأقررته وقد استأهل الطرد ، وقربته وقد استجرى البعد ؟ أليس هو القائل فى بنى أمية :

إذا قيل مَن عند ريب الزمان لمعترّ فِهر ومحتاجها
ومن يعجل الخيل يوم الوغى بإلجامها قبل إسراجها ؟
أشارت نساء بنى مالك إليك به قبل أزواجها

قال ابن هرمة : فإنى قد قلت فيك أحسن من هذا ! قال هاته ! قال : قلت :

إذا قلت أى فتى تعلمون أهش إلى الطعن بالذابل

---

(١) البيان والتبيين : ٣ : ٣٦٧

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية فى العصر العباسى : ١٢٢



وأضرب للقرن يوم الوغى وأطعم فى الزمن الماحل
أشارت إليك أكف الورى إشارة غرقى إلى ساحل

قال المنصور : أما هذا الشعر فسترق ، وأما نحن فلانكافىء إلا بالتى هى أحسن[1] .

ومدحه ابن ميادة ، ثم لم يفـد عليه . . . لما بلغه من قلة رغبته فى مدائح الشعراء وقلة ثوابه لهم[2] .

ومع ذلك لقد كان يشجع العمارة والعلم ولا يبخل عليهما ، فأنفق على بغداد فيما يقول ياقوت ثمانية عشر ألف ألف دينار[3] ، وبنى بهاقصرا لخمايسمى قصر الخلد ، وبنى فى الرصافة قصرا آخر ومسجدا .

وأمر البطريق وغيره بترجمة بعض الكتب القديمة إلى العربية[4] .

وكان فى بنيه كثير منه ، فالمهدى كان ينكر تشبيب بشار ، وينهاه عنه لشدة غيرته[5] ، وأنشده عكاشه بن عبد الصمد شعرا فى الخمر فأنكره ، ورأى أنه حقيق أن يحد فيه[6] . وكان يجلس للمظالم ويقضى فيها ولو كانت قبله ، وكان يقول حين يجلس لها : أدخلوا علىّ القضاة ، فلو لم يكن ردى المظالم إلا للحياء منهم لكفى[7] .

وارتشى رجل من أعوانه، فقدم بعض المظالم على بعض ، فاتخذ بيتا على الطريق له شباك حديد ، تطرح المظالم فيه ثم يدخله وحده ، ويأخذ ما يقع له أولا فأولا فينظر فيه .

وكان حريصا على العمل بالقرآن وسنة الرسول ، قرأ مرة فى صلاته : « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطّعوا أرحامكم » فدعا موسى ابن جعفر العلوى من محبسه ، وقال له : إنى قرأت هذه الآية فخفت أن أكون

---

(١) البيان والتبيين : ٣ : ٣٧٢ (٢) الأغانى : ٢ : ٣٤٠
(٣) الفخرى : ١٤٤ (٤) الفهرست لابن النديم : ٣٤٠ ، ٣٨٢
(٥) الأغانى : ٣ : ٢١٩ (٦) المصدر السابق : ٣٦٣
(٧) الفخرى : ١٦١



قطعت رحمك ، أو تثق لى ألا تخرج على فضل خلاه[١] ، وأمر فنزعت المقاصير من مساجد الجماعات ، وجعلت منابرها على مقدار منبر رسول الله ، صلوات الله عليه[٢] .

وكان أسخى من أبيه يدا وأقل تشددا ، فلما حج بعد الخلافة فرق فى الناس أموالا عظيمة ، ووصلهم صلات سنية[٣] .

مدحه مروان بن أبى حفصة بقصيدته :

طرقتك زائرة فحى خيالها ... بيضاء تخلط بالحياء دلالها

فأعطاه بها مائة ألف درهم ، وهى أول مائة ألف درهم أعطيها شاعر فى أيام بنى العباس[٤] ، وعزاه أبو العتاهية فى ابنته فأعطاه بكل بيت ألف درهم[٥] .

وسأل عن أنسب بيت قالته العرب ، فاختلف أصحابه فيه ، قال أحدهم : بيت الأحوص .

إذا قلت إنى مشتف بلقائها ... فحم التلاقى بيننا زادنى سقما

قال : أحسن والله ، اقضوا عنه دينه[٦] ، وكان يجلس للشعراء ويأذن لهم فى الإنشاد ، وكان يحب القيان ويسمع الغناء ، ولكن من وراء ستار إلا مع فليح ابن أبى العوراء[٧] ، وكان يخرج للصيد ، ويذكر أبو العتاهية فى خبر طويل أنه صحبه فى بعض خرجاته له[٨] .

وهو أول من دعا إلى الخوض فى علم الكلام ، وشجع التأليف فيه والرد على المبتدعين[٩] .

---

(١) راجع البداية والنهاية لابن كثير ١٠ : ١٥٢

(٢) شذرات الذهب : ١ : ٢٤٨ (٣) الأغانى ٢ : ٢٩٨

(٤) أمالى المرتضى : ٣ : ٤ ، ٥ الصلب والحاشية .

(٥) الأغانى : ٤ : ٧٢ (٦) المصدر السابق : ٤ : ٢٦٦

(٧) البيان والتبيين : ٣ : ٣٧٠ ، الأغانى : ٤ : ٣٦٠

(٨) الفخرى : ١٦١ والأغانى : ٤ : ٨

(٩) تاريخ آداب اللغة العربية فى العصر العباسى : ١٢٧



ويشبه الهادى أباه فى غيرته وعدله وسخائه وتسمحه ، بل لعله أن يزيد فى بعض الأمر . أنكر على أمه الخيزران أن تلق أحداً من القواد أو رؤساء الدولة ، ومنعها أن تفتات عليه فى ملكه ، وقال لها فى ذلك قولا شديداً. فقد خاطبته فى أمر فلم يجبها إليه فانصرفت مغضبة : مكانك تستوعبي كلامى ، وإلا فأنا نفىٌ من قرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . ما هذه المواكب التى تغدو وتروح إلى بابك فى كل يوم ؟ أما لك مغزل يشغلك ، أو مصحف يذكرك ، أو بيت يصونك ؟ . . .

وأنشده عكاشة المتقدم ذكره شعراً فى الخمر ، كما أنشد أباه من قبله ، فكان له منه مثل ما كان من أبيه[1] .

وكان يقول لحاجبه : لا تحجب عنى الناس ، فإن ذلك يزيل عنى البركة . وكان يشرب النبيذ ، ويسمع الغناء . ومدحه أبو العتاهية فأعطاه عشرة آلاف درهم ، وهنأه بمولود ، فأعطاه ألف دينار وطيبا كثيرا[2] .

ووفد له أبو العتاهية من الشعراء ، والموصلى من المغنين ، فأبى الأول بعد موته أن يجيب الرشيد إلى الشعر ، وأبى الآخر أن يجيبه إلى الغناء فحبسهما[3] .

وجاء الرشيد فنفخ فى الدولة من روحه ، وكان روحا قويا جادا ، فمضت فى سبيل المجد والحضارة خطوات : كان يتولى قيادة الجند للغزو ، وإمارة الناس للحج ، يغزو سنة ويحج أخرى ، حتى جعل شعاره الغزو والحج ، وكان إذا حج حج معه مائة من الفقهاء وأبناؤهم ، وإذا لم يحج أحج ثلثمائة بالنفقة السابغة ، والكسوة الباهرة . ويقال إنه حج ماشيا ، ولم يحج خليفة ماشيا غيره[4] .

وقال فيه أبو المعالى الكلابى :

---

(١) الأغانى : ٣ : ٢٦٤

(٢) الأغانى : ٤ : ٥٤ — ٥٦

(٣) المرجع السابق ٤ : ٧٣

(٤) الفخرى : ١٧٥ ، وكان يمشى على اللبود تبسط له من منزله . (النجوم الزاهرة ٢ : ٦٥)



فمن يطلب لقاءك أو يُرده ... فبالحرمين أو أقصى الثغور
ففى أرض العدو على طمِرٍّ ... وفى أرض الترفّه فوق كور
وما حاز الثغور سواك خلق ... من المتخلفين على الأمور

وكان يستمع للوعظ ويتأثر به أشد التأثر ، كالذى كان منه مع أبى العتاهية وابن السماك فيما ذكرنا آنفا . وكان يصلى كل يوم مائة ركعة ، ويتصدق كل يوم بألف درهم[1] .

وكان مقصد العلماء والشعراء وغيرهم ، يحضرون مجلسه ، وينالون من صلاته. ويصف ابن طبا طبا ذلك فيقول : ولم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقراء والقضاة والكتاب والندماء والمغنين — ما اجتمع على باب الرشيد ، وكان يصل كل واحد منهم أجزل صلة ، ويرفعه إلى أعلى درجة[2] ، بل لقد رحل هو وأولاده إلى الحجاز سنة ١٧٤هـ ، ليسمعوا موطأ الإمام مالك ، فكان ذلك فى مجلس حافل ، شهده فقهاء العراق والحجاز[3] . ومن أمثلة تواضعه للعلماء أنه صب الماء على يدى أبى معاوية الضرير[4] .

وتدل مجالسه للرواة على مشاركة فى اللغة ، وسعة فى الرواية وملكة فى تمييز الآثار الأدبية : رووا أنه أرِق ذات ليلة فأدخل الأصمعى عليه ، لأول مرة ، فقال له الرشيد : أشاعر أم راوية ؟ قال : راوية لكل ذى جد وهزل بعد أن يكون محسنا . فقال : تالله ما رأيت ادعاء أعم . فقال : أنا على الميدان ، فأطلق من عنانى يا أمير المؤمنين . فقال قد أنصف القارَة من راماها، ثم قال : ما معنى هذه الكلمة بديا ؟ قال : فيها قولان : القارة هى الحرّة من الأرض . وزعمت الرواة أن القارة كانت رُماة للتبابعة ، والملِك إذ ذاك أبو حسان ، فواقف عسكره عسكر السعد فخرج فارس من السعد قد وضع سهمه فى كبد قوسه ، فقال : أين

---

(١) الفخرى : ١٧٥
(٢) المصدر السابق ١٧٧
(٣) شذرات الذهب : ١ : ٢٩٠ — ٢٩١ وتاريخ آداب اللغة العربية فى العصر العباسى : ١٢٢
(٤) الفخرى : ١٧٦



رماة العرب ؟ فقالت العرب : قد أنصف القارة من راماها . فقال الرشيد : أصبت ، ثم قال : . . أتروى كلمة عدى بن الرقاع : عرف الديار توهما فاعتادها ؟

قلت : نعم . قال : هات ، فمضيت فيها . . . حتى إذا بلغت إلى قوله :

تزجى أغن كأن إبرة روقه قلم أصاب من الدواة مدادها

استوى جالسا ، ثم قال لى : أتحفظ فى هذا ذكرا ؟ قلت نعم . ذكرت الرواة أن الفرزدق قال : كنت فى المجلس ، وجرير إلى جانبى ، فلما ابتدأ عدى فى قصيدته قلت لجرير مسرا إليه : هلم نسخر من هذا الشامى ، فلما ذقنا كلامه يئسنا منه . . . فلما بلغ إلى قوله :

ولقد أراد الله إذ ولاكها من أمة إصلاحها ورشادها

قال له الرشيد : ما تراه قال حين أنشده الشاعر هذا البيت ؟ فقال : كذلك أراد الله ، فقال الرشيد : ما كان فى جلالته يقول هذا ، أحسبه قال : ما شاء الله . قال وكذا جاءت الرواية(١) .

وكان يعطى الجزيل وينفق الكثير ، لا يبالى المال ، ولا يحذر الإقلال : رووا أنه حج ومعه يحيى بن خالد بن برمك ومعه ولداه الفضل وجعفر ، فلما وصلوا إلى مدينة الرسول صلوات الله عليه جلس الرشيد ومعه يحيى فأعطيا الناس ، وجلس الأمين ومعه الفضل بن يحيى فأعطيا الناس ، وجلس المأمون ومعه جعفر فأعطيا الناس ، فأعطوا فى تلك السنة ثلاث أعطيات ضربت بكثرتها الأمثال ، وكانوا يسمونه عام الأعطيات الثلاث ، وأثرى الناس بسبب ذلك(٢) .

وأنشده منصور بن سلمة النميرى قصيدته التى يقول فيها :

وقد وقف المديح بمنتهاه وغايته وصار إلى المصير

---

(١) تجد الخبر كاملا فى أمالى المرتضى : ٣ : ٩٧ — ١٠٠ والقصيدة فى مدح الوليد ابن عبد الملك ومطلعها كاملا :

عرف الديار توهما فاعتادها من بعد ما شمل البلى أبلادها

والأبلاد جمع بلد وهو الأثر . (الأغانى : ١ : ٣٠٠)

(٢) الفخرى : ١٨٢



إلى من لا يشير إلى سواه إذا ذكر الندى كف المشير

فلما فرغ منها أدخله بيت المال وحكمه فيه(١)، وأعجبته جارية عند إبراهيم ابن المهدي، فاشتراها منه بستة وثلاثين ألف دينار(٢).

ويروى أنه كان في داره من الجواري والحظايا وخدمهن وخدم زوجته وأخواته أربعة آلاف جارية، وأنهن حضرن يوماً بين يديه، فغنته المطربات منهن فطرب جداً، وأمر بمال فنثر عليهن. وكان مبلغ ما حصل لكل واحدة منهن ثلاثة آلاف درهم في ذلك اليوم(٣).

ولعل مما يكفي في هذا المجال أن البرامكة وهم من صنائع الرشيد كانوا فيما يقول ابن خلدون إذا كسبوا معدماً فإنما هو الولاية والنعمة آخر الدهر، لا العطاء الذي يستنفده يوم أو بعض يوم(٤) . . .

وكان إلى نسكه ودينه يشرب النبيذ، ويحب الغناء، ويجزل الثواب عليه، وله في ذلك ذكر عريض، وأنباء مستفيضة، حتى صار الرشيد أسرع الخلفاء خطوراً بالبال وتمثلا للذهن، كلما ذكرت الحضارة العباسية بل الإسلامية عامة، بما توافر لها وعرف عنها من رفاهية وبذخ ونعيم.

ولهذا يختلف الناس في فهمه وتصوره، فيفهمه بعض جادا متماسكا، ويصوروه عابداً ناسكا، ويفهمه بعض آخر عابثا لاهيا، ويصوره مولعا مستهترا، وأكثر ما يبدو كذلك في كتب الأدب والأخبار.

وما هو واحد من هذين وكفى، ولكنه منهما جميعاً، وهو رجل كان يعرف حق ربه ونفسه معا، ويعمل لأمته خليفة ولقلبه إنسانا، لم يشأ أن يقاوم التطور، أو يعوق مسيره، فقد كان أقوى من أن يقاوم، وأمضى من أن يعوّق، تهيأت له الأسباب منذ غزا الإسلام الأرض ودخل الناس فيه من كل جنس

---

(١) أمالي المرتضى: ٤ : ١٨٤ — ١٨٦

(٢) الأغاني: ٥ : ١٦٤

(٣) تاريخ ابن كثير: ١٠ : ٢٢٠

(٤) المقدمة: ١٩٧



وجبوب . وآن له أن يأخذ على الطريقة حتى يبلغ غاية مداه ، فنهج آل العباس فى الإيقاع بأعدائهم والتمكين لدولتهم على الفرس . ومنذ اتخذوهم أولياء من دون قومهم فى الصغير والكبير .

وقد مضى الخلفاء منذ بعيد على الإصابة من اللهو ، والاستمتاع بالسماع ، وجرى فقهاء العراق على التسمح فى النبيذ ، لا يرون فيه رأيهم فى الخمر .

وكان الرشيد على تحضره ورفاهيته متماسكا ، لا يفرط فى دينه كما سبق ، ولا يتنكر للعرب أو يزدرى خصائص الصحراء .

ففى القصة التى روينا عنه وعن الأصمعى من قبل — أن الأصمعى حين وصل فى إنشاد قصيدة عدى بن الرقاع إلى وصف الجمل قال الفضل : ناشدتك الله ألا تقطع علينا ما أمتعنا به السهر من ليلتنا هذه بصفة جمل أجرب ، فقال له الرشيد : اسكت ، فالإبل هى التى أخرجتك من دارك ، واستلبت تاج ملكك ، ثم ماتت وعملت جلودها سياطا ، ثم ضربت بها أنت وقومك . فقال الفضل : لقد عوقبت على غير ذنب ، الحمد لله . فقال الرشيد : أخطأت ، الحمد لله على النعم . ولو قلت : أستغفر الله كنت مصيباً . وفيها أيضاً أن الرشيد نهض فأخذ الخادم يصلح عقب النعل فى رجله ، وكانت عربية ، فقال الرشيد : عقرتنى يا غلام ، فقال الفضل : قاتل الله الأعاجم ، أما إنها لو كانت سندية لما احتجت إلى هذه المكلفة ، فقال الرشيد : هذه نعلى ونعل آبائى . كم تعارض فلا نترك من جواب ممض[1] . . .

ولما صح عنده أن على بن عيسى بن ماهان واليه على خراسان يظلم الناس ، ولا يتوخى خيرهم عزله ، واستصفى أمواله ، وأموال أولاده وكتابه ، واستقدمهم جميعاً مقرنين فى الأصفاد ، على ما كان من ثقته بعلى وحسن رأيه فيه .

أولئك هم خلفاء بنى العباس فى صدر دولتهم ، كل كان لوقته صالحا ،

---

(١) أمالى المرتضى : ٣ : ٩٨ — ٩٩



وفى مهمته كافيا : أبو العباس بقسوته وشدة بطشه لشق الطريق والتمهيد للبناء ، والمنصور بحزمه وصرامته وجده وقوة شخصيته وسعة حيلته وحسن تدبيره وقصده فى الإنفاق لإرساء الأساس وإقامة البناء : والمهدى والهادى والرشيد بتسمحهم وعزمهم وغيرتهم وسخائهم للإكمال والتزيين ، فبلغت الدولة بهم غاية مداها ، قوة ، وثراء ، وعمارة ، وعلما .

سكن قلبها ، وسلمت أطرافها إلا الأندلس وبلاد المغرب ، فاستأنف الناس أعمالهم كل فيما هو ميسر له ، فحسنت الحال وشاع الرخاء ، وجعلت الأموال والغلات تتدفق إلى بغداد ، بالجباية أو التجارة ، فتردهما على الناس حضارة وعلما ، كما تتدفق مياه الروافد إلى النهر الأعظم ، فيحيي الزرع والضرع ، ويملأ الوادى خصبا ونماء . قال ابن خلدون : ورأيت فى بعض تواريخ الرشيد أن المحمول إلى بيت المال فى أيامه سبعة آلاف قنطار وخمسمائة قنطار فى كل سنة (١) .

وفصّل ما كان يحمل من الأقاليم إلى بيت المال لعهد المأمون، فإذا من مصر ألف ألف دينار وتسعمائة ألف دينار وعشرون ألف دينار ،ومن فلسطين ثلثمائة ألف دينار وعشرة آلاف دينار وثلثمائة ألف رطل زيت ، ومن الأردن سبعة وتسعون ألف دينار وهكذا (٢) .

وجعل الشعراء والأدباء والعلماء والمترجمون وأصحاب الفنون وكل ذى إحسان فى صناعة ينسلون إليها من كل حدب ، يعرضون إنتاجهم ، ويزاحمون أندادهم فى سوق البراعة والإتقان . وقد كانت سوقا نافقة حافلة ، يشجع عليها ويرعى أمورها الخلفاء أصالة وأصحاب الوجاهة والسلطان محاكاة وتشبها ، فكان السيد الحميرى يمدح معن بن زائدة ، والعتابى ومنصور النمرى وسلم الخاسر وأبو ثمامة الخطيب ممن يمدح البرامكة . وترجم يحي بن غالب كتاب المنثور ليحي بن خالد ، وكان

---

(١) المقدمة : ١٩٩ ، وذكر فى ضحا الإسلام (١ : ١١١) أن القنطار فى حساب ابن خلدون عشرة آلاف دينار ، فتكون الجملة ٧٥ مليون دينار .

(٢) المقدمة ١٩٧



سهل بن بشر من المترجمين يخدم طاهر بن الحسين ، ثم الحسن بن سهل . وألف الأصمعى كتاب النوادر لجعفر بن يحيى ، حتى أصبحت بغداد حاضرة المشرق والمغرب ووارثة حضارة الدنيا .

وبلغ من تعلق الناس بالعلم ، وحرصهم على طلبه أن الفراء حين فرغ من إملاء كتاب المعانى - حبسه الوراقون عن الناس ؛ ليبيعوه بلغة العصر فى السوق السوداء ، ينسخون كل خمس ورقات بدرهم ، فشكا الناس إلى الفراء ، فنصح الوراقين أن يدعوا الإعنات وييسروا العلم على الطالبيه ، ولكنهم لم يفعلوا ، فلم يسع العالم الجليل إلا أن يعالج الأمر بعلاجه الحاسم ، فأذّن فى الناس أنه سيملى كتاب معان أتم شرحا وأبسط قولا ، وجلس فأملى فى الحمد مائة ورقة ، فجاء الوراقون يعتذرون ، وقبلوا درهما فى كل عشر ورقات .

وكانت الحياة الدينية مزاجا مختلطا : فيها نسك ومجانة ، وإيمان وزندقة ، وتصوف وخلاعة ، يتمثل النسك فى أمثال زياد بن أبى زياد ميسرة المخزومى ، وأم الخير رابعة العدوية ، وإسماعيل بن خالد البجلى الأحمسى ، وعمرو بن عبيد ، وفى كثير غيرهم من الزهاد والعلماء ومن اقتدى بهم . وتتمثل المجانة والزندقة والخلاعة أكثر ما تتمثل فى الفساق المستهترين ، والدهاة الحاقدين من الموالى ، أمثال بشار ، وأبى نواس ، وابن المقفع .

استسلم الأولون للشهوات واندفعوا فى الآثام ، لا يزعهم وازع من دين أو أدب أو حياء ، حتى رجعوا إلى مثل ما كان عليه الناس فى دولتهم المنحلة البائدة واستجاب الآخرون للحقد على الدولة والكيد لها والتربص بها .

لقد كان لهم فى قومهم مكانة وقدر ، وأصبح لهم فى الدولة الجديدة مكانة وقدر . إذاً لقد زال عنهم الكبت ، ووُضع الإصر ، وحل القيد ، وآن لعيونهم أن تنظر وتتأمل ، ولعقولهم أن تفكر وتدبر ، وآن لرواسبهم أن تطفو ، ولكواهيتهم أن تبدو ، فماذا رأوا وماذا كانت عاقبة هذا الرأى ؟

رأوا أنهم أحق بالملك من العرب ، فهو فيهم عريق وفي العرب محدث . وهم أصحاب حضارة أصيلة ومجد أثيل ، أما العرب فليس لهم عهد بحضارة ولا مجد . ورأوا مجانهم يفسدون في الجانب الاجتماعي من الدولة عامدين أو غير عامدين ، فجعلوا فسادهم هم في الجانبين الآخرين : الديني والسياسي . فإذا زيغ ينشر ، وضلال يبعث ، وشراك تنصب ، ومكايد تكاد .

ولا نزعم أن هؤلاء المفسدين قد اجتمعوا للأمر ، وتآمروا فيه ، وتوزعوا أسبابه . ولكنا نعتقد أن شعور الحقد على العرب، والرغبة في زوال دولتهم - قد أثارهم وجمع بينهم ، فإذا هم يسعون إلى غاية واحدة ، ويرمون إلى هدف واحد ، كل في ميدانه ، وبالسلاح الذي تهيأ له ، ولا رجحان هنا للتعمد على الغفلة ما دامت العاقبة واحدة على كل حال .

وخشي الخلفاء والعلية خطر المجان والمتزندقة على الدولة منذ لاحت بوادره ، ونشط دعاته . فحرم المهدي على إبراهيم الموصلي أن يتصل بولديه الهادي والرشيد ، لئلا يفسدهما ، ولكنه عصاه فضربه ثلثمائة سوط وقيده وحبسه ، ثم عفا عنه وأحلفه بالطلاق والعتاق وكل يمين لا فسحة له فيها ألا يدخل عليهما أبداً[1] .

وقدم مالك بن السمح البصرة على سليمان بن على حين أفضى الأمر إلى بني هاشم ، فمتّ إليه بأكثر من سبب ، فقال له سليمان : أنا عارف بكل ما قلته يا مالك ، ولكني كما تعلم ، أخاف أن تفسد عليّ أولادي ، وأنا واصلك ومعطيك ما تريد ، وجاعل لك شيئاً أبعث إليك به مادمت حياً في كل عام، على أن تخرج من البصرة وترجع إلى بلدك[2] .

وتتبع الخلفاء الزنادقة قتلا وتشريداً، حتى أقام الهادي لهم قيّماً يعالج أمرهم[3] . وممن ألف في الرد عليهم أبو الربيع محمد بن الليث الخطيب[4] .

---

(١) الأغاني : ٥ : ١٦٠ — ١٦٢

(٢) الأغاني : ٥ : ١٠٧

(٣) الأغاني : ٣ : ٢٤٧

(٤) الفهرست : ١٧٥



والخلاصة أن هذه المرحلة من حكم آل العباس هى مرحلة القادة الموجهين، والأئمة المقدمين، اقتضتهم فكانوا، ودعتهم فأجابوا، ليقيموا كيان الدولة السياسى والثقافى. كان للأول أبو جعفر المنصور، ومحمد المهدى، وهارون الرشيد من الخلفاء وأعوانهم. وكان للآخر بشار، ومروان بن أبى حفصة، وأبو نواس، ومسلم بن الوليد وأضرابهم من الشعراء، وابن المقفع وأبو أيوب المورياني، ويعقوب ابن داود، ويحي بن برمك وأضرابهم من الكتاب. وداود بن على، وأبو جعفر المنصور. وعبد الملك بن صالح، وشبيب بن شيبة وأضرابهم من الخطباء، والخليل بن أحمد، وسيبويه، وأبو عبيدة معمر بن المثنى، والأصمعى والكسائى وأضرابهم من اللغويين والنحاة، وأبو حنيفة، ومالك، والشافعى، وسعيد ابن بشير، والليث بن سعد، والحسن البصرى، وواصل بن عطاء وأضرابهم من الفقهاء والمحدثين وعلماء الكلام، ابتكروا وقادوا ووجهوا كما أرادتهم الظروف والأحوال، حتى لقد يكفى الصالحين من خلفهم أن يحافظوا على ما تركوا لهم من تراث، وأن يدعوه لحكم الزمان وسنة التطور.

وإذا كان بعض الأعلام يأتى قبل عصره فيعيش فيه بجفوا منكوراً - فقد أتى سيبويه - رحمه الله - فى العصر الذى يتطلبه ويليق به. فأخذ منه وأعطاه، وأثر فيه وتأثر به، كأحسن ما يكون العبقرى مع عصره تجاوباً ووفاقاً.



تمهيد :

أعلم أن سيبويه لم يكن من سلالة الملوك أو الأمراء ، وأن أحداً لم يكن يعلم منذ طفولته أن سيصبح إماماً من أئمة العربية، وعلماً من أعلام المسلمين قاطبة ، فولد ونشأ مغموراً منكَّراً، لا يُلقى الناس إليه بالا ، ولا يعلمون من أمره شيئاً، إلا ما يعلمون عن أنداده من أبناء الموالى وغيرهم من الدهماء عامة .

ولهذا لم أكن أتوقع أنى سأجد أنباء مولده ولا تاريخ نشأته مبسوطا كاملا ، ولا مجملا مقاربا ، فللعصر حكمه ، وللبيئة اعتبارها . وليس سيبويه فى ذلك وحيداً ولا بدعاً من الأعلام . ولكنى كنت أتوقع أنى سأجد تاريخه بعدما نضج واستوى رجلا ـ مذكوراً على غير ما وجدت من الاضطراب وشدة الخلاف والاقتضاب .

فهذه وفاته مثلا : لقد قيل عن مكانها إنها كانت بساوة ، وقيل بالبصرة ، وقيل بالبيضاء ، وقيل بشيراز (١) . وقيل عن تاريخها إنها كانت سنة ١٦١ ، وقيل سنة ١٧٧ ، وقيل سنة ١٨٠ ، وقيل سنة ١٨٨ ، وقيل سنة ١٩٤ (٢) .

وقد يكون من حسن المجانسة أو توافق المصادفة أن يختلف الرواة ، وتكثر الأقوال فى أنباء نحوى إمام كبير ؛ فالنحاة قوم عرفوا بالخلاف وتعدد الآراء ، ولكن حين يبلغ خلافهم وتعدد آرائهم ما يبلغانه فى تاريخ وفاة سيبويه لا يكونان ألبتة فى شىء من الحسن أو التوافق .

---

(١) راجع معجم الأدباء : ٦ : ٨٠ - ٨١ ، وبغية الوعاة : ٣٦٧

(٢) راجع وفيات الأعيان : ٣ : ١٣٤ ، تاريخ بغداد : ١٢ : ١٩٩



فالحد الأدنى لتاريخ هذه الوفاة كما يصوره الرواة هو سنة ١٦١ ، وحدها الأعلى هو سنة ١٩٤ ، أى أن مدى الفرق بين الحدين ليس عاما ولا عامين ، ولا بضعة أعوام ، ولكنه ثلاثة وثلاثون عاما ، وهو عدد يزيد على سنى حياته كلها فى بعض الأقوال ، فقد قيل فيما قيل إنه توفى وعمره ثنتان وثلاثون سنة[1] ، حتى لقد يخطر بالبال أن الأمر ليس خلافا فى تاريخ الوفاة ، فهو أشد من ذلك وأكبر ، ولكنه خطأ أو لبس تورط بعضهم فيه ، فحسب سنة ١٦١ من تواريخ الوفاة وما هى منها ، وإنما هى تاريخ الميلاد .

ولعل مرد ذلك إلى أن سيبويه لم يشتهر فى حياته كما اشتهر بعد مماته ، اختضره الموت شابا ، لم يمهله حتى يقرأ كتابه على الناس ، أو يقرأه الناس عليه[2] ، وهو مناط شهرته وسر عبقريته ، فلم يظهر فضله فى حياته كاملا ، ولم يتدارك الرواة أنباءه بالتتبع والدرس فى أوانها الموعود ، فكانت هذه البلبلة العجيبة وهذا الاضطراب الشديد .

إن الذين كتبوا عن سيبويه قديما لكثير ، ولكنه لسوء الحظ كثير يشبه القليل ، أو كثير يفضله بعض أنواع القليل ؛ لأنه أشتات من الأنباء معادة مقتضبة ، أو متخالفة متشاكسة ، وهى على الحالين مطلقة مرسلة لاتسندها حجة ولا دليل ، وقلما يظفر الباحث من تخالفها بشىء ذى بال . ولا مراء أن هذا الذى نقول عن أنباء سيبويه يمكن أن يقال مثله عن أنباء آخرين من القدماء ، ولكن أنباء سيبويه مع ذلك لا تكاد تقترن بشىء من أحداث التاريخ التى تعين على توضيح المبهم ، أو تحديد الشائع كما فى أنباء كثير .

ومثل من يدرس سيبويه فى أنبائه تلك ليتقص حياته ويرسم شخصيته ، كمثل من يدرس تمثالا باليا ، طال عليه القدم ، ونالت منه الأحداث ، فذهبت

---

(١) النجوم الزاهرة : ١٠٠ ، معجم الأدباء : ٦ : ٨٠ ، بغية الوعاة : ٣٦٧

(٢) تهذيب اللغة : ٩ ، وشذرات الذهب : ١ : ٢٥٢



ه ضياعا ، وجعلت بقيته جذاذا منثوراً . وإنه على ذلك ليحاول أن يقيمه صاً ماثلا ، ويرده مخلقاً سويا . فإذا استقام له أن يجمع متفرقه ، وينشر حطامه فأنى يستقيم له أن يتم صورته ويعيدها سيرتها الأولى ؟

وأيا ما تكن العاقبة فقد جعلت للحقيقة علىّ عهداً أن أتحراها فى مظانها ، وأطلبها ما وجدت سبيلا إليها ، غير عابىء بكد ، ولا باخل بجهد ، أطاول وأصبر ما وسعتنى المطاولة وأمكنتنى المصابرة ، حتى يتبين الصواب من الخطأ ، والنافق من الزيف . وبحسبى هذا وكفى . والله يهدى السبيل ، وييسر المسير ، ويعين على إدراك ما قصدنا إليه .

موطن سيبويه :

كان لسيبويه موطنان : البيضاء والبصرة ، ولد فى الأولى ، ونشأ وعاش فى الأخرى . والبيضاء مدينة مشهورة فى فارس ، وأكبر مدينة فى كورة اصطخر ، على ثمانية فراسخ من شيراز ، وسميت البيضاء بقلعة فيها كان يبين بياضها من بعيد . وكانت معسكر المسلمين ، يقصدونها فى فتح اصطخر ، تامة العمارة ، بناؤها من الطين ، موفورة الخصب جدا ، ينتفع بميرتها أهل شيراز[1] .

أصله وولاؤه

يعتزى سيبويه بأصله إلى فارس ، وبالولاء إلى الحارث بن كعب ، بن عمرو ، ابن علة[2] ، بن جلد[3] ، بن مالك ، بن أدد[4] .

---

(١) راجع معجم البلدان لياقوت .

(٢) كنكرة : اسم ناقص (الاشتقاق : ٢٣٧) .

(٣) فى تاريخ بغداد (١٢ : ١٩٥) وأخبار النحويين البصريين (٤٨) : ابن خالد . وهو تحريف .

(٤) طبقات النحاة للزبيدى . الورقة : ٣٨ . وإنباه الرواة : ٢ : ٣٤٦، ٣٥٦ . وفى تاريخ بغداد (١٢ : ١٩٥) : ويقال هو مولى آل ربيع بن زياد الحارثى .



قال فى جمهرة الأنساب : ولدُ الحارث بن كعب : كعب ، وربيعة . فولد كعب بن الحارث بن كعب : ربيعة ، ومالك . . . ومن بنى مالك بن كعب بن الحارث بن كعب : بنو عبد المدان، واسمه عمرو بن الديان ، واسم الديان يزيد . وهم بيت مذحج[١] ، وأخوال أبى العباس السفاح ، منهم الربيع بن عبد الله ، ويحيى بن زياد بن عبيد الله متهم بالزندقة ، وأخوه منصور بن زياد ، وبنوه محمد والفضل وزياد بنو منصور بن زياد . لهم قدر فى دولة بنى العباس. والربيع بن أنس ابن الديان ولى خراسان[٢] .

وجاء فى صبح الأعشى : قال فى العبر : وديارهم (يعنى بنى الحارث بن كعب) بنواحى نجران من اليمن ، يجاورون لبنى ذهل بن مزيقياء[٣]. منهم بشير الحارثى الذى قدم على النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال له ما اسمك؟ قال : أكبر . قال : بل أنت بشير[٤] .

ويشير حاجب بن زرارة التميمى إلى بنى عبد المدان فى قوله مفتخراً :

شربت الخمر حتى خلت أنى ... أبو قابوس أو عبد المدان

أمشّى فى بنى عدس بن زيد ... رخى البال منطلق اللسان

ويقول شريك بن الأعور الحارثى وقد حركه معاوية بكلام أغضبه :

أيشتمنى معاوية بن حرب ... وسيفى صارم ومعى لسانى ؟

وحولى من ذوى يمن ليوث ... ضراغمة تهش إلى الطعان

فلا تبسط لسانك يا بن حرب ... فإنك قد بلغت مدى الأمانى

فإن تك من أمية فى ذراها ... فإنى فى ذرا عبد المدان

وإن تك للشقاء لنا أميراً ... فإنا لا نقيم على الهوان[٥]

---

(١) مذحج: يقال هو فى الأصل اسم أكمة ولدت أمهم عليها فسموا بها. راجع الاشتقاق: ٢٣٧ (٢) جمهرة الأنساب: ٣٩١ (٣) لقب عمرو بن عامر ملك اليمن، وكان فيما يزعمون يلبس كل يوم حلتين ، ويمزقهما بالعشى ، يكره العود فيهما (٤) صبح الأعشى: ١: ٣٢٧ (٥) راجع الأمالى الشجرية: ١: ١١٦، ١١٧



ولا ندرى أكان ولاء سيبويه فى بنى الحارث هؤلاء ولاء عتق أم ولاء إسلام ؟ أى هل كان قومه رقيقاً لهم فأعتقوهم، أو كانوا غير مسلمين فأسلموا على يد أحد منهم [1].

أسرته :

لم أجد فى تاريخ سيبويه خبراً ، ولا إشارة فى خبر تدل من قريب أو بعيد على أن أسرته كانت ذات مقام معلوم ، أو ذكر مأثور فى الفرس أو فى العرب، ككثير من الموالى الآخرين . فلعلها كانت من غمار الأسر وجملة السواد ، ولولا علم سيبويه واتساع شهرته ما كان لها ذكر فى التاريخ ؛ هو صانع مجدها ، وإليه يرجع أولها فيه. ويذكر الرواة اثنين من آبائه : عثمان وقنبرا، لايزيدون عليهما، كأنهم لا يعرفون غيرهما ، ولايهتدون سبيلا إلى المزيد عليهما ، أو كأنهم يرون أن المزيد لاجدوى منه ولا غناء فيه ، فليس يزيد الناس بهم علما ؛ لأنه تكثير من نكرات مغمورة ، وتصعيد فى أصول مجهولة بعضها فوق بعض .

وهم يذكرون أمه عرضاً حين يتكلمون عن لفظ سيبويه، فيقولون إن أمه كانت ترقصه به [2] ، وربما دل ذلك منها على اعتزاز بالأصل القديم ، وتشبث ببقية واهنة من القومية الدائرة، فالكلمة ـ كما هو مشهور ـ فارسية،ومعناها غير شائع التداول ولا قريب التناول من أذهان العرب . ويذكرون عرضاً كذلك حين يتكلمون عن وفاته : أنه كان معه أخ له يحنو عليه ، ويعنى به وهو يعانى سكرات الموت [3] . ذلك كل ما اهتديت إليه من تاريخ أسرة هذا الإمام الجليل.

مولده :

لا أعرف أن أحداً من الرواة أو المؤرخين ذكر تاريخ ميلاد سيبويه ،

---

(١) راجع فجر الإسلام : ١٠٦ (٢) تاريخ ابن كثير : ١٠ : ١٧٦
(٣) طبقات الزبيدى : الورقة : ٤٤ .



لا تحديداً ولا تقريباً . ولا أرى ذلك يمنع أن أحاول معرفة الفترة التي ولد فيها على سبيل التقريب . فالأكثرون على أنه توفى حوالى سنة ١٨٠، وأن سنه يومئذ كانت حوالى الأربعين . فإذا أخذنا بهذا وذاك وكلاهما حقيق أن يؤخذ به كما سنحققه فى موضعه إن شاء الله ـ كان لنا أن نقول إنه ولد ـ رحمه الله ـ مع ميلاد الدولة العباسية ، سنة نيف وثلاثين ومائة .

اسمه :

هو عمرو بن عثمان بن قنبر، ويكنى أبا بشر وأبا الحسن وأبا عثمان، وأثبتها أبو بشر[1] . ويلقب سيبويه ، ونلاحظ أن عمراً وعثمان وبشرا أسماء أموية مشهورة ، فهل جاءت التسمية بها عفواً لا قصد معه ولا تدبير ، أو هى ظاهرة من ظواهر الرغبة فى التقرب والزلفى إلى الدولة القائمة، كدأب الأقليات مع الأكثريات والمغلوبين مع الغالبين ، أو من ظواهر الرغبة فى التودد والمسالمة للدولة العربية ، التى غلبت عليها العصبية القومية، وعرفت بإيثار العرب والانتصار لها .

إنه لأمر يستوقف النظر ويدعو إلى التأمل على كل حال ، بل إنه ـ بتكرير الأسماء فيه على هذه الصورة ـ لحقيق أن يرجح فى الرأى أنه لم يأت عفواً خالصاً .

ولا أرى أن ميلاد سيبويه مع ميلاد الدولة الجديدة يبطل هذا الرأى أو يدابره، بل لعله أدنى إلى تعزيزه والالتقاء به . فقد يسبق إلى الذهن والدولة الجديدة تغالب عدوها، وتجد فى انتزاع الملك منه أنها ثورة من تلك الثورات التى امتحنت بها دولة بنى أمية أكثر حياتها ، فى جهات شتى وعلى أيدى خصوم مختلفين ، ثم خرجت منها آخر الأمر غالبة مظفرة . وقد كان بعضها من الخطر وشدة العنف بحيث زلزلت منه الدولة زلزالا شديداً ، خيف عليها منه أن تتصدع وتنهار .

ومعلوم أن السنين الأولى من عمر الدولة العباسية انقضت فى محاربة الأمويين

---

(١) مراتب النحويين : ١٠٦ .



نو استئصال شأفة المنافسين والطامعين جميعاً، دون تفرقة ولا تمييز . فالفترة التى ولد سيبويه فيها على الأقل غامضة مبهمة ، يتعذر على غير الطامع المغامر أن يقطع فيها برأى، أو يستقر فيها على حال . وربما غلب الهوى فيها على العقل ، واشتبهت الأمنية بالرأى ، فإذا فريق إلى يمين وفريق إلى يسار . وربما طاب فيها لبعض الناس أن يتشبثوا بالحاضر المعتاد ، لا يزعهم عنه تقلص ظله وانتشار الأمر عليه ؛ وفاء له ، أو رجاء فيه ، أو انقياداً لحكم العادة والإلف .

والناس بعد يخطئون ويصيبون ، كذلك كانوا وكذلك يكونون ، فإذا قدرنا أن أصحاب هذه التسميات من آل سيبويه كانوا ناساً من الناس ، يجوز عليهم ما يجوز على الآخرين صح لنا أن نقدر أنهم فى هذه التسميات كانوا غير موفقين .

أما قنبر فضبطه الدارقطنى بفتح القاف ، وسكون النون ، وفتح الباء ، أى هكذا : قَنْبَر[1] . وجاء على هذا الوزن فى قول الزمخشرى يرثى سيبويه :

ألا صلى الإله صلاة صدق على عمرو بن عثمان بن قنبر
فإن كتابه لم يغن عنه بنو قلم ولا أبناء منبر[2]

وضبطه فى تاج العروس بضم ، ثم بفتح وسكون ، أى هكذا قُنَبْر .

وأما سيبويه فلقب اشتهر به عمرو بن عثمان ، وغلب عليه جداً ، حتى لا يكاد يعرف باسمه وكنيته إلا بين المتخصصين ، ولا يكاد يذكر بهما إلا فى كتب التراجم والتاريخ .

والكلمة فارسية، تتألف من (سيب) بمعنى تفاح، وبوى بمعنى رائحة ، فمعناها مجتمعة رائحة التفاح . ويقال بل تتألف من (سى) بمعنى ثلاثين ، وبوى بمعنى رائحة ، فمعناها مجتمعة ثلاثون رائحة . والمراد ذو الثلاثين رائحة ، أى الكثير

(١) طبقات النحاة : ٢٠٦ .
(٢) بغية الوعاة : ٢٦٦ .



المطر أو الساطع العرف[1] . وكلا التركيبين محتمل ، والخلاف بين المعنيين غير بعيد ، لكن الأول أشهر ، كما يفهم من كلامهم عن سبب تلقيبه به ، وسيأتى ذلك قريباً .

أما ضبطه فبكسر السين ، وسكون الياء ، وفتح الباء والواو ، وسكون الياء هكذا سِيْبَوَيْه ، ويقال إن العجم ينطقونه بضم الباء ، وسكون الواو ، وفتح الياء هكذا سِيْبُوْيَه ، كراهة أن يختم بكلمة (ويه) لأنها للندبة[2] .

ومقتضى التحليلين أن تكون الباء مضمومة ، ومقتضى التحليل الأول أن تكون مع ذلك مشددة . فلعلهم عدلوا عن التشديد للتخفيف ، فالمشدد أثقل من غيره ، لأنه يكلف من جهد النطق ما لا يكلف الآخر كما لا يخفى ويزيد من ثقله وامتلاء الفم به أن المشدد هنا باء ، وأنها مضمومة تليها واو ممدودة ، مما يجعل الصوت نخراً طويلا مدوياً .

وعدلوا عن الضم إلى الفتح ليذهبوا به مذهب المختوم (بويه) فى النطق والإعراب ، وقد كان هذا النوع من الأسماء معروفاً قديماً ، ويتحدث عنه سيبويه فى الكتاب فيقول : « وأما عمرويه فإنه زعم أنه أعجمى ، وأنه ضرب من الأسماء الأعجمية ، وألزموا آخره شيئاً يلزم الأعجمية ، فكما تركوا صرف الأعجمية جعلوا ذا بمنزلة الصوت ، لأنهم رأوه قد جمع أمرين ، فحطوه درجة عن إسماعيل وأشباهه ، وجعلوه فى النكرة بمنزلة غاق منونة مكسورة فى كل موضع . . . وعمرويه عندهم بمنزلة حضرموت فى أنه ضم الآخر إلى الأول ، وعمرويه فى المعرفة مكسور فى حال الجر والرفع والنصب غير منون . وفى النكرة تقول : هذا عمرويهٍ آخر[3] .

وقال فى التاج : وسيبويه ونحوه اسم بُنى مع الصوت ، فجعلا اسماً واحداً ،

---

(١) راجع المعجم فى اللغة الفارسية ، وطبقات النحاة لابن قاضى شهبة : ٢٠٦

(٢) راجع تاج العروس ، ووفيات الأعيان : ٣ : ١٣٣

(٣) الكتاب : ٢ : ٥٢ — ٥٣



وكسروا آخره كما كسروا غاق ، لأنه ضارع الأصوات ، وفارق خمسة عشر ، لأن آخره لم يضارع الأصوات فينون فى التنكير[1] .

وقال فى اللسان : ويهِ إغراء ، ومنهم من ينون فيقول : ويها . . . وإذا أغريته بالشىء قلت : ويها يا فلان ، وهو تحريض كما يقال دونك يا فلان .

قال الكميت :

وجاءت حوادث فى مثلها يقال لمثلىَ : وَيْـهاً فلُ[2]

فقد تناسوا فى سيبويه أصل (بوى) الفارسى ، ونظروا فيه إلى الحال التى صار إليها وحدها، واعتبروا الاسم كله فى كتب النحو واللغة من المركب المزجى المختوم بويه ، وجعلوا حكمه فى الإعراب كحكمه ، مبنياً على الكسر عند الأكثرين ، تشبيهاً له باسم الصوت[3] .

ويختلف الرواة فى سبب هذا اللقب ، فقيل : لأن أمه كانت ترقصه به ، وقيل لأن وجنتيه كانتا كالتفاح[4] ، وقيل: لأن من يلقاه كان لا يزال يشم منه رائحة الطيب، وقيل: لأنه كان يعتاد شم رائحة التفاح، وقيل: لقب به للطافته[5] .

والرأى الأول وجيه من ناحية ، ومشكل من ناحية أخرى : وجيه من ناحية أنه يدل بفحواه على أن اللقب من وضع أسرة سيبويه ، وينبغى أن يكون كذلك ، فهى فارسية ، وهو فارسى مثلها . ومشكل من ناحية أنه لا يبين حكمة اختيارها رائحة التفاح خاصة ، مع أن التفاح فاكهة لا طيب . فهلا لقبا من روائح الزهر أو الورد، إذا لم يكن بد من التلقيب برائحة طيبة ، فالزهر أصيل فى الطيب

---

(١) التاج مادة « ويه » (٢) فل : يريد يا فلان . اللسان مادة « ويه » .
(٣) ذكر الصبان فى حاشيته على الأشمونى: أن ويه اسم صوت: ١ : ١١٣ ، غير أن تعريف اسم الصوت لا ينطبق عليه . فهو ما وضع لخطاب ما لا يعقل من صغر الآدميين أو لحكاية الأصوات ، إلا أن يكون مما يحرض به غير العاقل أيضاً ، كما أن هلا يستحث به العاقل مع أنه لزجر الخيل . قال : ألا حييا ليلى وقولا لها : هلاَ (الأشمونى والصبان عليه : ٢ : ١٥٨) (٤) راجع تاريخ بغداد : ١٢ : ١٩٥ — ١٩٦ ، وتاريخ ابن كثير : ١٠ : ١٧٦ (٥) راجع بغية الوعاة : ٣٦٦ ، وروضات الجنات : ٥٠٢ .



والورد عند الفرس أثير، كان له فيهم منزلة، وكان لهم به ولوع.

على أنه قد يكون اختيار التفاح دون غيره راجعاً إلى أنه كان من غلة البيئة وخصوصية الموطن، فقد كانت البيضاء فيما أسلفنا بلدة طيبة، زكية التربة، موفورة الخصب. وما زالت شيراز ونواحيها إلى اليوم حالية بالحدائق والكروم[1]. فكأنهم أرادوا أن تكون صلتهم بالوطن متينة، وذكراهم له متجددة، مقيمين فيه ومرتحلين عنه. وقد بدا لهم فى التفاح من هذه الناحية مالم يبد مثله فى غيره، إذ كان فى الوطن أعرق، وبه أوثق، وعليه أدل. وكان مع ذلك طيباً فى الذوق والحس معاً

وأما بقية الآراء فمشكلة من ناحيتين، فهى من ناحية تُجمع بمفهومها على أن اللقب لم يوضع إلا بعد ماشب سيبويه وترعرع، بل بعد ما عرفه الناس، وأخذوا يهتمون به ويلاحظون من أحواله وعاداته، أو أنه وضع على الأقل فى البصرة، إذ كان منشؤه بها كما سيأتى.

وعجيب أن يلقب فى البصرة باللسان الفارسى، مع أن البصرة حاضرة عربية استحدثت فى الإسلام. أفما كان الأشبه أن يلقب بلسانها ولسان الدولة التى استحدثتها، والتى لا تزال لها السيادة وبيدها السلطان؟

والناحية الأخرى التى تشكل منها بقية الآراء أنها لا تفسر حكمة اللقب تفسيراً مفهوماً يمكن الاقتناع به والاطمئنان إليه، إذ كيف يلقب الناس امرأ بسيبويه أى رائحة التفاح لأن وجنتيه كالتفاح، أو لأنه كان يشم رائحته، أو لأنه كان لطيفاً مثله؟ فالأشبه فى الحالة الأولى أن يلقب بلون التفاح لا برائحته؛ لأن الوجنتين إنما يشبهان بالتفاح فى لونه لا فى رائحته، والأشبه فى الحالة الثانية أن يلقب بشامّ التفاح لا برائحته؟ لأن الرائحة لم تكن تفوح منه، ولكن من التفاح نفسه، هو صاحبها، وسيبويه إنما كان يستطيبها فيشمها، والأقرب فى الحالة

---

(١) راجع جغرافية آسيا واستراليشيا : ٧٢



الثالثة ألا يلقب بالتفاح ولا رائحته ، فليس كلاهما بالمثل السائر ولا المثل الحاضر في اللطافة ، ولكن هناك أمثلة لها معروفة متداولة كالأزهار والحواء .

بقي رأي من يقول : إنه لقب به لأن من يلقاه كان لا يزال يشم منه رائحة الطيب ، وهو كما يبدو قائم على أن سيبويه معناها ثلاثون رائحة . والمناسبة حينئذ بين اللقب وسببه ظاهرة ، فهي حقيقة بالقبول ، وقد يشكك فيها ما شكك في المناسبات الأخرى ، التي تفهم أن اللقب صنع في البصرة لا في البيضاء . فمكانها إذاً وراء مناسبة الرأي الأول مع سائر المناسبات ، هي أدنى إليها وأولى بها .

فقد استبان من ذلك كله أن الرأي الأول هو أرجح الآراء وأحقها بالقبول ، ويصح لنا بالاستناد إليه أن نزعم أن قصة سيبويه في لقبه وقعت حوادثها وتتابعت على النمط الآتي : وضع اللقب واضع من أسرة الطفل ، يحكي به مزية البيئة وخصوصية الموطن ، وتلقفته الأم في غبطة وحنان ، فجعلت ترقص الطفل به ، فألفته الآذان وتمرست به الألسنة ، واقترن مع صورته في الأذهان . ورأى الناس في الفتى شواهد تصدق اللقب وتذكر به ، كنضارة وجنتيه أو طيب عرفه ، فشاع فيهم لقبه حتى ما كاد يعرف بينهم إلا به .

وعلى هذا تكون الأوصاف التي حسبها الرواة أسباب اللقب ليست في غالب الرأي أسبابه ، ولكنها شواهد الصدق فيه ودلائل المطابقة بينه وبين صاحبه . فليس يغلب اللقب على الإنسان ، ويسير تداوله في الناس هكذا حتى تكون فيه أثارة منه قليلة أو كثيرة . فإن كانت مع ذلك هي التي أوحت باللقب وسوغت وضعه كانت سببه ومأتاه ، وإلا كانت الشاهد على صحة التلقيب به ، وصدق الدلالة على صاحبه ، ولكن لابد منها على كل حال .

ومهما يكن من أمر فاللقب طريف ، فيه من الهداية والتوفيق ، فما أعلم أن أحداً سبق إليه سيبويه ، وإن كنت لأعلم أن له أصحاباً أخذوه عنه وشاركوه فيه . ولقد كان لسيبويه منه نصيب في نفسه وطبعه ، كان في الناس



كرائحة التفاح فى الطيب ، لطيفـا هادئا وديعا ، لايغضب ولا يخاشن حتى فى المواقف المثيرة، التى لايلام الحليم فيها أن يغضب، ولاالرزين أن يخف ويثور :رأيته كذلك فى مناظرته المشهورة مع الكسائى ، وفى مناظرة له أخرى مع الأصمعى ، وقد خلت كلتاهما من المودة والرحمة، وسلامة دواعى الصدر أو تكاد. وسنتحدث عنهما بموضعهما إن شاء الله .

وسيبويه كلمة ذات إشعاع ، لاتدل على معناها الأصيل وحده ، ولكن تضيف إليه معانى أخرى ملازمة ، من الاختصاص بالعربية ، والهداية فيها ، والغيرة عليها ، والغضب لها ، إذا نالها سوء أو تهددها شر ، كأنه وحده صاحب أمرها أو المسئول الأول عنها . نلمح ذلك بين العامة والخاصة فى الرضا والغضب ، وحين المدح والسخرية ؛ وندع هنا نصيب الخاصة من ذلك ، فله مقام آخر من الكتاب ، ونعرض لشىء من أقوال العامة وأشباههم ، بما تنطوى عليه من معنى وتشير إليه من دلالة .

قال رجل لسماك بالبصرة : بكم هذه السمكة؟ قال : بدرهمان . فضحك الرجل فقال السماك : ويلك ! أنت أحمق ! سمعت سيبويه يقول : ثمنها درهمان[1] فلم يجد السماك فى موقفه هذا من العجز والاستخذاء من يأخذ بيده ويعينه على خصمه إلا سيبويه ، فيلوذ به ، ويتقول عليه حين لايعرف من آرائه مالا يسعفه بما أراد ، ولا يرى أنه بما فعل قد وارى من خطئه، وبلغ من صاحبه وكفى ، ولكنه يرى مع ذلك أنه أصبح جديراً أن يتهم بالحمق ويؤخذ بالزراية ؛ لأنه لم يعرف من علم سيبويه ماعرف .

وذهب نحوى ليعود مريضا ، فقال لولده : كيف حال أبيك ؟ فقال: ياعم ، ورمت قدميه . قال : لاتلحن ، وقل : قدماه ، ثم ماذا ؟ قال : وصل الورم إلى ركبتاه . قال : لاتلحن ، وقل ركبتيه ، ثم ماذا ؟ قال : أدخل الله القدمين

(١) معجم الأدباء : ٦ : ٨٦ .



والركبتين فى بطن عيالك وعيال سيبويه ونفطويه[1] . . . فقد سخط الابن على صديق أبيه، لأنه لم يشأ أن يهادن اللحن ويغضى عنه فى هذا المقام، فجعل يتتبعه ، وينهى عنه ، ويلح بالتصويب عليــــه ، كأنه لايأسى لصاحبه، ولا يشارك فى الإشفاق عليه ، وخاصة بعد ماساءت حاله ، وامتد الورم من قدميه إلى ركبتيه ، وكأنه لايسأل عنه وفاء له ، ولكن شماتة به ، فلذلك غضب الابن غضباً شديدا، ولم يشأ أن يحمل الرجل تبعته وحده ، لأنه ليس فيها وحيدا فأضاف إليه سيبويه، لأنه أستاذه الذى علمه أن يكون للحن بالمرصاد ، لايسكت عنه ، ولا يجامل ، صاحبه ، أيا ماتكن الظروف والأحوال ، ثم أضاف إليه من يعرف من النحويين الذين ابتلوا بلقب يوازن لقبه ، فهو يرى أن هذا القدر من المشاركة كاف فى اعتبارهم مسئولين معه فى هذا الشر الذى زينوه ودعوا إليه . وهم لذلك يستحقون مايستحق من نقمة الناقمين ، ولعنة اللاعنين .

ولا تزال فينا بقية من هذا إلى اليوم ، فالناس لعهدنا إذا رأوا رجلا يلحن فى كلامه ، وأرادوا أن يحدثوا عن جنايته على اللغة والبيان ، سمعتهم يقولون فيما يقولون : قد أساء إلى سيبويه ، وأقض مضجعه فى قبره ، فهم لايعدون هذه الجناية واقعة على اللغة بما حرفت منها ، ولا على البيان بما أفسدته ، ولكنهم يعدونها واقعة على سيبويه ، كأنهم يرونه دون غيره صاحب أمرهما والقيم عليهما، أو كأنهم لايرون فى أئمة اللغة وأساطين البيان من هو أحق منه بالغيرة عليهما، والغضب لهما حيا وميتا .

وهم إذا رأوا رجلا يحرص على سلامة اللغة ويتحرى صحة الضبط والإعراب، أو رأوا رجلا يبهرهم بعلمه من اللغة وفقهه فيها، ثم بدا لهم أن يمدحوه سمعتهم يقولون عنه فيما يقولون : هو سيبويه العصر ، ويجدد ذكره فيه ، أو هو وارث علم سيبويه ، وخليفته فى الناس .

---

(١) راجع روضات الجنات : ٥٠٢ — ٥٠٣ .



ولم ينل سيبويه ذلك عفوا ، ولا وقع عليه مصادفة ؛ فالزيف قد يخفى حينا، ولكنه لا يظل خافيا أبدا ، يهتك الزمن ستره ويكشف للناس عن حقيقته . ولكنها العبقرية القادرة المتفننة، والأستاذية البارعة المتمرسة، استطاع بفضلهما الإمام الجليل أن يحل محله الحق من التجلة والإكبار ، وأن ينال جزاءه الأوفى من الإعجاب والحمد وبعد الصيت وخلود الذكر .

ولقب بسيبويه ثلاثة آخرون من النحاة(١) ؛ لعلمهم بالنحو واتساع شهرتهم فيه ، وهم :

١ — محمد بن موسى بن عبد العزيز المصرى ، ولد سنة ٢٨٤ ، وكان عارفا بالنحو والمعانى والقراءات والغريب والإعراب وعلوم الحديث والفقه والكلام وأخبار الناس والأشعار والنوادر ، وكان يتكلم فى الزهد وأحوال الصالحين، عفيفا متنسكا ، ذا منزلة عند الملوك .

وعنى أكثر ما عنى بالنحو والغريب حتى استحق بهما لقب سيبويه. ومات سنة ٣٨٤(٢) .

٢ — ومحمد بن عبد العزيز التيمى الأصبهانى ، عاش فى القرن الرابع ، وكان أديباً عالماً بالنحو واللغة(٣) .

٣ — وعلى بن عبد الله بن إبراهيم الكوفى المغربى . ولد بعد الستمائة . وتوفى بالقاهرة سنة ٦٦٧ ، وكان عالما بالنحو ، وله شعر يتكلف فيه إستعمال المصطلحات النحوية ، كقوله :

عذّبت قلبى بهجر منك متصل	يا من هواه ضمير غير منفصل
ما زال من غير تأكيد صدودك لى	فما عدولك من عطف إلى بدل(٤) ؟

---

(١) بغية الوعاة : ٤٢٦
(٢) المصدر السابق : ١٠٨
(٣) المصدر السابق : ٦٧ ، ١٥٣
(٤) المصدر السابق ٣٣٩

نشأته :

قالوا : إن سيبويه نشـــأ بالبصرة ، فقد رحلت إذاً أسرته إليها ، ولكننا لا نعرف سبب هذه الرحلة ، ولا التاريخ الذى وقعت فيه ، غير أنا نعرف أن الوطن على الناس عزيز وإليهم حبيب ، وأنهم لا يرحلون عنه اختيارا ، ولكن اضطرارا ، تدفعهم إليها دوافع الحياة الآمنة المطمئنة .

فلعل هذه الأسرة إنما رحلت عن البيضاء من أجل صبيها العتيد ، رأت أن للفرس فى دولة بنى العباس مجالا واسعا وعملا كثيراً ، ورأت أنها إذا ظلت حيث كانت لاتتحول ولا تريم ـ فأرجح الاحتمال أن تظل على ما هى عليه ، بعيدة عن الرجاء فى الدولة والإفادة منها . فليس يسعها إذاً إلا أن ترحل ، وأن تكون الرحلة إلى حيث يقيم السلطان ، أو إلى حيث تكون منه قريباً . وهناك تنشىء الصبى نشأة الكفاح والمنافسة ، ثم تدفع به إلى الميدان موفورا العدة تام الأهبة ، عسى أن يكون له عند السلطان مثل ما كان للكفاة الصالحين من أبناء جلدته . وكفاها هى أنها قعدت عما نهضوا إليه وفاتها ما أدركوه ؛ لأن أحداً منها لم يتهيأ له مثل ما تهيأ لهم من الأسباب . وقد يؤيد ذلك أن سيبويه حين أدرك بغيته من العلم ووثق بنفسه فيه ـ رحل إلى بغداد ، يريد أن ينافس الكسائى ويزاحمه على منزلته من الخلفاء ، والكسائى يومئذ شيخ بغداد وأستاذ الأمراء .

وكانت حواضر الثقافة الإسلامية يومئذ ثلاثا : الحجاز ، والبصرة ، والكوفة . فأما الحجاز فقد ولـّى زمانه وذهب مجده ، إلا ذكريات عطرة يعيش عليها ويتعزى بها ، هجره السلطان ، ورحل عنه كثير من أهله . وهيهات أن يرجع إليه هؤلاء وهؤلاء . ثم هو بعيد ناء ، والرحلة إليه غير هينة . فما قصـــدها إليه ورجاؤها فيه ؟ والبصرة أقرب إلى فارس من الكوفة ، وأقل منها تعرضا لمحن الثورات والفتن . فهى إذاً أحق أن ترحل إليها وتتخذها مقاما لها .



والبصرة من مآثر عمر على العمران ، بنيت لعهده سنة ١٤ من الهجرة، وقبل الكوفة بستة أشهر . وكان سكانها من الرجال لعهد المنصور خمسمائة ألف رجل. فقد فرق فيهم رحمه الله ألف ألف درهم ، فأصاب الرأس منهم درهمين[١] وكان واليها لعهده عمه سليمان بن علي ، وإليه لجأ أخوه عبد الله فراراً من أبي مسلم بعد أن هزمه في نصيبين ، فلبث مختفياً عنده حتى علم المنصور خبره، فطلبه وآمنه، فخرج به سليمان إليه . فأمر المنصور بحبسه ، وبقي في السجن حتى مات[٢] .

وخرج بها لعهد المنصور أيضاً إبراهيم بن عبد الله أخو النفس الزكية ، فتبعه منها خلق كثير، فاستولى على البصرة وما حولها ، وعلى واسط والأهواز، فأرسل عليه المنصور ابن أخيه عيسى بن موسى، فهزم إبراهيم وقتله عند باخمرى، وهي قرية قريبة من الكوفة[٣] .

وعاصر سيبويه من أعلامها المشهورين : بشار بن برد ، والسيد الحميري ، وأبا نواس ، وخلف الأحمر ، وعيسى بن عمر ، والخليل بن أحمد ، والحسن البصري ، ويونس بن حبيب ، والأصمعي ، وغيرهم .

دراسته :

هبط سيبويه البصرة والدراسة الإسلامية نوعان : دينية وأدبية . وتشمل الدينية القراءات والتفسير والحديث والفقه، وتشمل الأدبية اللغة والنحو والصرف ورواية الشعر وغيرها ، ولم تكن الدراسة يومئذ تلتزم طبعاً خطة موضوعة ، ولا منهجا مرسوما ، وإنما كانت دراسة حرة في حلقات يعقدها العلماء بالمساجد، أو دراسة خاصة في بيوت الخلفاء وأصحاب السلطان والجاه ، وكان الطلاب يختلفون إلى الحلقات يدرسون ما يشاءون دون تخصص ولا توجيه ، فكان أحدهم ربما

---

(١) شرح مقامات الحريري للشريشي : ٢ : ٤٢١ (٢) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية : ٦١ — ٦٣ ، والفخري : ١٥٠ — ١٥١ (٣) الفخري : ١٥٠



يخرج فقيها محدثا قارئا راويا نحويا إلى آخر العلوم الأدبية ، لا يدع علما إلا درسه وظهر فيه، حتى ليصعب نسبته إلى علم دون علم . وكان ربما خرج كذلك ولكن يغلب عليه علم أو أكثر فينسب إلى ما غلب عليه ، ثم هو مع ذلك يذكر بغيره أولا يذكر .

وقد طلب سيبويه أولا علوم الدين، ثم انصرف إلى علوم الأدب ، وغلب عليه النحو حتى صار فيه الإمام الأعظم . قال القفطي : كان سيبويه فى أول أيامه يصحب الفقهاء وأهل الحديث[1] . وقال الزبيدي . فبينا هو يستملي على حماد بن سلمة قول النبي صلى الله عليه وسلم : «ليس من أصحابي إلا من لو شئت لأخذت عليه ليس أبا الدرداء[2]»، فقال سيبويه : ليس أبو الدرداء ، وظنه اسم ليس، فقال حماد ابن سلمة : لحنت ياسيبويه ، ليس هذا حيث ذهبت ، إنما ليس ها هنا استثناء[3] فقال سيبويه : لا جرم لأطلبن علما لا تلحنني فيه أبداً، ثم لزم الخليل[4] .

ويبدو أن سيبويه ظل مع ذلك على صلته بحماد يأخذ عنه الحديث أو يرجع إليه عند الحاجة فيه على الأقل . ويروون فى ذلك أنه جاء يوما إليه، فقال : أحدثك هشام بن عروة عن أبيه فى رجل رعُف فى الصلاة ؟ فقال حماد : أخطأت[5]، إنما هو رعَف ، فانصرف إلى الخليل، فشكا إليه ما لقيه من حماد ، فقال : صدق حماد ، ومثل حماد يقول هذا[6] .

فذكر الخليل فى الخبر ورجوع سيبويه إليه فيما سمع من حماد ، وحُكم الخليل لحماد ، كل ذلك دليل على اتصاله به وأخذه عنه . ولهذا بقيت له في الحديث

---

(١) إنباه الرواة : ٢ : ٢٥٥ (٢) هو عويمر بن عامر بن مالك بن قيس وقيل غير ذلك . أسلم وحسن إسلامه ، وكان فقيها عاقلا حكيما شهد ما بعد أحد من المشاهد وتوفى بدمشق حوالى سنة ٣٢ (راجع الإصابة : ٦ : ٧٠ والاستيعاب : ٦٦٢ (٣) طبقات الزبيدى: ٣٨، ويروى الحديث فى الجامع الصغير: ٢: ٢٧٤ هكذا: «ما من أحد من أصحابى إلا ولو شئت لأخذت عليه فى بعض خلقه غير أبى عبيدة بن الجراح» (٤) بغية الوعاة (٥) ذكر الزبيدى وبعض أصحاب المعجمات أن الضم لغة ضعيفة، وذكرها صاحب القاموس دون أن ينبه على ضعفها (٦) طبقات الزبيدى : ٣٨ ، وطبقات ابن قاضى شهبة : ٢٠٧ .



مقاولة مذكورة ، تدل على ثقة فيه وإحاطة به : ذكر محمد بن سلمان قال : كان سيبويه النحوى جالساً فى حلقته بالبصرة ، فتذاكرنا شيئاً من حديث قتادة ، فذكر حديثاً غريباً ، وقال : لم يرو هذا إلا سعيد بن أبى العروبة . فقال بعض ولد جعفر بن سليمان ما هاتان الزائدتان يا أبا بشر ؟ فقال : هكذا يقال ؛ لأن العروبة هى الجمعة ، ومن قال عروبة فقد أخطأ .[1] قال ابن سلام : فذكرت ذلك ليونس ، فقال : أصاب ، لله دره !

وفى الكتاب دلائل واضحة تدل على علمه بالقراءة ، كقوله « وكان عيسى يقرأ هذا الحرف : « فدعا ربه إنى مغلوب فانتصر » . أراد أن يحكى كما قال عز وجل : « والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم » كأنه قال والله أعلم : قالوا : ما نعبدهم ويزعمون أنها فى قراءة ابن مسعود كذا[2] » .

ويقول ابن الجزرى : « إنه . . . روى القراءة عن أبى عمرو بن العلاء ، كذا روى الهذلى ، وهو بعيد[3] . وروى القراءة عنه أبو عمر الجرمى[4] » .

ويذكر فى مواطن كثيرة من الكتاب أنه سمع من العرب ، وأخذ عنهم ، كقوله : « وقد سمعنا من العرب من يُشمه الرفع ، كأنه يقول : متى أنام غير مؤرق[5] » وقوله : « وسمعنا عربيا موثوقا بعربيته يقول : « لا تذهب به تُغلبُ عليه ، فهذا كقوله : لا تدن من الأسد يأكلك[6] » .

وفى الكتاب مع ذلك شواهد كثيرة من القرآن الكريم ، ونصوص الشعر والرجز لشعراء ورجاز مختلفين ، وفيه فيض غزير من المفردات والأساليب العربية فى شتى مطالب التعبير ، يشرحها ، ويحللها ويمثل بها لما يريد .

---

(١) فى اللسان : يقال يوم عروبة ويوم العروبة والأفصح ألا يدخلها الألف واللام .

(٢) الكتاب : ١ : ٤٧١ (٣) لم يذكر المؤلف سبب ذلك ، وربما كان سببه أن أبا عمرو توفى سنة ١٥٤ (نزهة الألبا : ٣٨) .

(٤) طبقات القراء : ١ : ٦٠٢ ، وفى نزهة الألبا : ١٩٧ . أن الجرمى لقى يونس بن حبيب ولم يلق سيبويه . (٥) الكتاب : ١ : ٤٥٠

(٦) المصدر السابق : ٤٠١



وتدل رواية هذه الشواهد مجردة على أنه كان يحفظ القرآن واللغة . وإذا لحظنا مع ذلك حسن عرضه لها ، وبراعته فى اصطناعها ، ومقدرته على التخريج وتصنيف الأشباه وإدراك الفروق بينها — بدا لنا مبلغه من التفقه فى العربية والنفاذ إلى أسرارها ، مع سلامة ذوق ودقة ملاحظة وأستاذية لا تبارى .

وإذاً نستطيع أن نقول مع القائلين إن سيبويه رحمه الله : « قد تعلق من كل علم بسبب ، وضرب فيه بسهم[1] إلى جانب إمامته فى العربية .

وتدل بعض أنبائه على أنه كان يحب الكتب حبا جما ، ويقبل على العلم إقبالا شديداً ، حتى لا يكاد يفضله لديه شىء أو يشغله عنه شىء . ويروون فى ذلك أنه كانت عنده جارية ، وكانت له محبة ، فلما رأت إعراضه عنها وانصرافه إلى كتابه ، يجمع جزازاته ويؤلف أبوابه الأولى — ترصدت له حتى خرج لبعض شأنه فأخذت جذوة نار وطرحتها فى الكتب حتى احترقت ، فلما رجع سيبويه ورأى كتبه وقد صارت هباء غشى عليه أسفا ، ثم أفاق فطلقها[2] .

كذلك تدل بعض أنبائه على نزعة فيه عملية ، ورغبة عنده بادية فى تطبيق معارفه على مشاهد الحياة . فقد روى الزبيدى عن ابن عائشة قال : « كنا نجلس مع سيبويه النحوى فى المسجد . . فبينا نحن عنده ذات يوم إذ هبت ريح أطارت الورق ، فقال لبعض أهل الحلقة : انظر أى ريح هى ؟ وكان على منارة المسجد تمثال فرس من صُفر ، فنظر ثم عاد فقال : لا يثبت الفرس على شىء . فقال سيبويه : العرب تقول فى مثل هذا : تذاءبت الريح ، أى فعلت فعل الذئب ، ليختل فيتوهم الناظر أنه عدة ذئاب »[3] .

---

(١) طبقات الزبيدى : ٣٩

(٢) راجع طبقات النحاة لابن قاضى شبهة : ٢١٠

(٣) طبقات الزبيدى : ٣٩



هل كان سيبويه يعرف الفارسية :

هذا سؤال يغلب أن يخطر بالبال ، فلم يسعنى إلا أن أورده وأحاول الإجابة عنه ، فقد كان سيبويه فارسيا وولد بالبيضاء ، وهى من بلاد فارس ، وقد عقد فى كتابه باباً عنوانه : « هـذا باب اطراد الإبدال فى الفارسية » . فكيف مع كل هذه الملابسات والأسباب يمر الإنسان بسيبويه فى نشأته والعلوم التى درستها ثم لا يسأل نفسه هذا السؤال ، ويود لو وجد عنه جواباً ؟

وينبغى مع ذلك ألا يغيب عن البال أولا أن فارس فتحت فى فجر الإسلام ، فتحها عمر بن الخطاب(١) ، فقد مضى عليها خاضعة للعرب حتى أوائل الدولة العباسية أكثر من قرن . وهى مدة كافية لصبغ هـذه البلاد بالصبغة العربية من كل جانب .

وثانياً أن سيبويه حمل إلى البصرة صغيرا ، فنشأ فيها ، وعاش بين أهلها ، وأخذ علمه عن علمائها . وهى كما لا يخفى مدينة عربية خالصة . صحيح أنه يمكن أن يكون أبواه عارفين بالفارسية ، وأن يأخذها الصبى عنهما فى المنزل ، وكلما أفرداه بحديث، على نحو ما نرى من أبناء الجاليات الأجنبية فى مصر، ولكن ينبغى أن يُعلم مع ذلك أن وضع أسرة سيبويه فى البصرة ، بل فى فارس أيضاً — غير وضع الجاليات الأجنبية فى مصر ، تلك كانت من أمة فتحت بلادها ، وغلبت على أمرها ، وأصبح أكثر أهلها موالى للعرب . وكانت الفصاحة فى العربية غاية الغايات ووسيلة الوصول إلى السلطان ، ولا كذلك الجاليات فى مصر .

وثالثاً أن علماء العربية يعرضون فى غير موطن للكلام عن الأعجمية، وموقف العربية منها وعلاقتها بها وطريقه اصطناعها لها(٢) .

---

(١) راجع الفخرى ٧٤—٧٩

(٢) راجع المزهر : ١ : ١٥٩ — ١٦٦



على أنى مع كل أولئك أرجح أن سيبويه كان يعرف الفارسية ، وبعبارة أدق تعبيراً كان يلم بها . وما قصدت بعرض تلك الملاحظات آنفا أن أنفى علمه بها أو أشكك فيه ، وإنما قصدت أن ينشأ الرأى فى كنفها وعلى هدى منها .

وذلك أولا لأن أمه — على الأقل — كانت فيما أعتقد تعرف الفارسية وتعتز بها ، بآية ما لقبته بسيبويه وبما كانت ترقصه به .

وثانيا أن نشأة سيبويه بالبصرة ، واندغام الفرس فى العرب وتقربهم إليهم بعلم العربية والفصاحة فيها — كل أولئك لا يستوجب أن يحذر أبواه أو أمه على التخصيص أن تعلمه الفارسية كلما عرضت مناسبة وأمكنت فرصة . فلم تكن الفارسية محظورة ولا الثقافة الأعجمية مضطهدة ، ولا سيما فى حكم العباسيين .

وعلم أولاد الجاليات الأجنبية فى مصر للغاتهم — كعلم آبائهم بها فى أوطانهم أو يكاد ولا تعدو العربية أن تكون عند كثير منهم لغة إضافية ، يكتفون منها بقدر الحاجة فى المعاملة القليلة ، والمخاطبة فيما تدعو الضرورة إليه من الشئون العابرة . وربما علموا خدمهم وموظفيهم لغاتهم الوطنية ليتخاطبوا معهم بها .

وثالثا أن أحاديث علماء العربية عن الأعجمية كانت فيما أعلم عن الأعجمية عامة لتمييز ألفاظها من العربية ، أو لشرح طريقة العرب فى تعريبها ، أو بيان حكمها الإعرابى أو لنحو ذلك . وقد صنع سيبويه هذا الصنيع فى الكتاب ، فعقد باباً عنوانه : (هذا باب ما أعرب من الأعجمية) ومن قوله فيه : « اعلم أنهم مما يغيرون من الحروف الأعجمية ما ليس من حروفهم ألبتة ، فربما ألحقوه ببناء كلامهم ، وربما لم يلحقوه ، فأما ما ألحقوه ببناء كلامهم فدرهم ، ألحقوه ببناء هجرع[1] وبهرج ألحقوه بسلهب[2] » .

وزاد سيبويه فعقد فى الكتاب أيضا مع الباب الذى ذكرنا باباً عنوانه : (هذه

---

(١) الهجرع : الأحمق ، والطويل الممشوق .

(٢) السلهب : الطويل (الكتاب : ٢ : ٣٤٢) .



باب اطراد الإبدال فى الفارسية) . ومن قوله فيه « يبدلون من الحرف الذى بين الكاف والجيم : الجيم ؛ لقربها منها ، ولم يكن من إبدالها بد ، لأنها ليست من حروفهم ، وذلك نحو الجُربُز والآجر والجورب . وربما أبدلوا القاف لأنها قريبة أيضا ، قال بعضهم : قُربُز ، وقالوا : كُربَق وقُربَق[1] . ويبدلون مكان آخر الحرف الذى لا يثبت فى كلامهم إذا وصلوا : الجيم ، وذلك نحو كُوسَة وموزَة ، لأن هذه الحروف تبدل وتحذف فى كلام الفرس همزة مرة ، وياء مرة أخرى[2] » .

وهذا فيما يظهر كلام عارف بالفارسية ، فهو كما ترى يوازن بين الكلمة فى نطقها الفارسى الأصيل ونطقها بعد التعريب ، ويتحدث عن التغيرات التى تصيب بعض الحروف فى اللسان الفارسى ، ثم يعرض ملاحظاته بعد ذلك فى صورة تشبه الضوابط والقوانين . فلماذا خص الفارسية بهذا الحديث ؟ وكيف يجرؤ عليه ويستقيم له القول فيه إذا كان يجهل الفارسية ؟ ويخيل إلى أن معرفته للفارسية كانت محدودة على كل ، حال لا تبلغ به مبلغ الترجمة والنقل مثلا ، للاعتبارات التى سلفت . ظنّ أعرضه ، وإحساس أترجم عنه والله وحده يعلم حقائق الأمور .

شيوخه :

ذكروا أن سيبويه كان يأخذ الحديث عن حماد بن سلمة[3] ، ولكنهم لم يذكروا أسماء الذين أخذ عنهم بقية علوم الدين ، فلم يكن الحديث كل مادرس[4] منها كما سبق . ولم أر فى الكتاب دليلا على أنه أخذ عنه شيئا من اللغة ، وإذا يكون حماد هو كل من نعرف من شيوخ سيبويه الذين أخذ عنهم علوم الدين .

وكان حماد مولى لربيعة بن مالك الإمام المشهور . ولعل علمه بالحديث

---

(١) القربق : دكان البقال .

(٢) الكتاب : ٣٤٢ — ٣٤٣ .

(٣) طبقات الزبيدى : ٣٨ .

(٤) راجع إنباه الرواة : ٢ : ٣٥٥ .



إنما جاءه من هذه الناحية فقدكان فيه إماما حجة ، روى له مسلم والأربعة ، وكان مع ذلك رأسا فى العربية ، وشيخا من أشياخها المقدمين فى البصرة ، فصيحا بليغا .

وذكره الجرمى فقال : مارأيت فقيها قط أفصح من عبد الوارث[١] ، وكان حماد بن سلمة أفصح منه . ولكن سيبويه مع ذلك آثر أن يأخذ العربية من غيره ولا نعرف سر ذلك ، وقدكان حقيقا أن يأخذها عنه كما أخذها عن غيره ، وكما أخذ عنه الحديث . وقد يكون سيبويه رأى منه فى العربية أقل مما رأى منه فى علوم الدين ومن الآخرين فى العربية ، فعدل عنه إليهم حين بدا له أن يهب لها نفسه .

وكان حماد كبير القدر ، صاحب سنة ، زاهداً ، شديداً على أهل البدع . وتوفى سنة ١٦٧ . ومما قيل فى رثائه :

ياطالب النحو ألا فابكه بعد أبى عمرو وحماد[٢]

وأما شيوخه فى العربية فهم كما جاء فى بغية الوعاة : الخليل ، ويونس ، وأبو الخطاب الأخفش ، وعيسى بن عمر[٣] . وقال السيرافى : « وذكر أبو زيد النحوى اللغوى كالمفتخر بذلك بعد موت سيبويه ، قال : كلما قال سيبويه : وأخبرنى الثقة فأنا أخبرته[٤] » . ولم أجد فى المراجع التى اطلعت عليها ذكراً لغير هؤلاء ، وإذا يكون الذين ذكرهم الرواة من شيوخ سيبويه فى العربية هم الأربعة

---

(١) هو عبدالوارث بن سعيد التيمى توفى سنة ١٨٠ (التهذيب: ٦ : ٤٤١) .

(٢) راجع أخبار النحويين البصريين : ٤٢ - ٤٤ ، وبغية الوعاة : ٢٤٠ . ولعله يريد بحماد فى البيت حماد بن الزبرقان لا حمادا الراوية ، فلم يعرف عن الآخر شىء من النحو ، وكان إلى ذلك من أهل الكوفة (راجع أخبار النحويين البصريين : ٤٤) .

(٣) راجع بغية الوعاة : ٣٦٦ .

(٤) أخبار النحويين البصريين : ٤٨ - ٤٩ .



الأولون، لكنهم يصيرون خمسة إذا أضفنا إليهم أبا زيد، وأخذنا بما قال عن نفسه بعد موت سيبويه .

وقد رأيت سيبويه يروى فى الكتاب عن هارون بعض الأحيان . وإذا نستطيع أن نقول : إن أساتذة سيبويه المعروفين ستة ، أولئك الخمسة ، ويضاف إليهم هارون . وسنعرّف بكل منهم ، ونوردهم مرتبين على حسب نصيب كل من الرواية فى الكتاب .

فالأول الخليل : وهو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدى[1] الأزدى البصرى ، أخذ عن أبى عمرو بن العلاء ، وكان رحمه الله من أذكياء التاريخ ، وعباقرة العلماء ، صنع للعربية كثيراً وآتاها من الفضل مالم يؤتها أحد من العلماء ابتكر العروض ، وخرج به إلى الناس علماً كاملا ؛ فضبط به الشعر العربى وحفظه من الاختلال ، وابتكر طريقة أحصى بها مفردات اللغة وميز بها المهمل من المستعمل ، ثم دون على هداها معجم العين ، وله غيره من الكتب : كتاب الإيقاع، وكتاب النقط والشكل ، وكتاب النغم .

وكان فى النحو إماماً مقدماً ، لايبارى فى تصحيح القياس واستنباط المسائل والتماس العلل لها والأسباب ، وتخرج عليه نفر من شيوخ العربية ، حفظوا علمه ونقلوه من بعده إلى الناس ، أشهرهم سيبويه ، وكان رحمه الله زاهداً ناسكا متقشفاً وهب نفسه لله ، وللعلم راضياً مختاراً . ولو شاء لأصاب من الدنيا حظ الواجدين الموسرين . قال عنه النضر بن شميل : أكلت الدنيا بعلم الخليل بن أحمد وكتبه ، وهو فى خص لايُشعر به ، ومات سنة ١٦٠ على المشهور[2] .

وكانت صلة سيبويه بالخليل قائمة على الحب الخالص ، والإجلال المتبادل . أقبل عليه سيبويه يوماً فقال الخليل له: مرحبا بزائر لايُمل . قالوا: وماسمع الخليل يقولها لغيره[3] . وكان سيبويه إذا روى عن الخليل، وبدا له أن يبدى رأيا بعد

---

(١) نسبة إلى فراهيد بن مالك بن فهم بن عبدالله بن مالك بن مضر الأزدى (بغية الوعاة : ٢٤٤) . (٢) راجع أخبار النحويين البصريين : ٣٨ — ٤٠ ، ونزهة الألبا : ٥٤ - ٥٩ ، بغية الوعاة ٢٤٣ - ٣٤٥ وتاريخ أدب اللغة فى العصر العباسى : ١٠٠ - ١٠١ . (٣) طبقات الزبيدى : ٣٩ .



رأيه قال : وقال غيره ، ولم يصرح باسمه ، إجلالا لشيخه أن يذكر اسمه مع اسمه[1] في مجال الرأى وحديث المعرفة . وأكثر الرواية عنه فى الكتاب ، وكلما قال سيبويه : وسألته ، أو قال ، من غير أن يذكر القائل فإنما يعنيه . فما صرح فيه باسمه قوله :

وسألت الخليل عن ماأحسن وجوههما ، فقال لأن الاثنين جميع ، وهذا بمنزلة قول الاثنين نحن فعلنا[2] » .. وقوله : وأما قول الأخطل :

ولقد أبيت من الفتاة بمنزل فأبيت لاحرج ولامحروم

فزعم الخليل أن هذا ليس على إضمار أنا ، ولو جاز هذا على إضمار أنا لجاز كان عبد الله لامسلم ولا صالح على إضمار هو[3] . وقوله « : فالفعل إذا كان غاية منصوب ، والاسم إذا كان غاية جر ، وهذا قول الخليل[4] » .

ومما لم يصرح فيه باسمه قوله : « وسألته عن الإضافة إلى عدو ، فقال : عدوى[5] » . وقوله : « واعلم أن من قال : أقاويل ، وأبابيت فى أبيات ، وأناييب فى أنياب لايقول . أقوالان ولا أبياتان ، قلت : فلم ذلك ؟ قال : لأنك لاتريد بقولك : هذه أنعام وهذه أبيات وهذه بيوت ماتريد بقولك : هذا رجل وأنت تريد رجل واحد ، ولكنك تريد الجمع[6] » . ومما أضمر فيه اسمه بعد اسم الخليل قوله : « وسألت الخليل عن قوله :

ألا رجلا جزاه الله خيرا يدل على محصلة تبيت

فزعم أنه ليس على التمنى ، ولكنه بمنزلة قول الرجل : فهلا خيراً من ذلك كأنه قال : ألا ترُونى رجلا جزاه الله خيراً . وأمايونس فزعم أنه نون مضطرا

---

(١) مقدمة نسخة الكتاب المخطوطة رقم ١٤٠ بدار الكتب الورقة : ١

(٢) الكتاب : ١ : ٢٤١ .

(٣) الكتاب : ١ : ٢٥٩ . (٤) المصدر السابق : ٤١٣ .

(٥) الكتاب : ٢ : ٧٣ . (٦) المصدر السابق : ٢٠٢ .



وزعم أن قوله لا نسب اليوم ولا خلة ، على الاضطرار . وأما غيره فوجهه على ماذكرت لك . والذى قال مذهب[1] » .

جملة ماروى عنه فى الكتاب ٥٢٢ مرة ، وهو قدر لم يرو مثله ولا قريباً منه عن أحد من أساتذته .

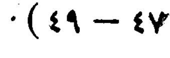
والثانى يونس : وهو أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب البصرى . أخذ عن أبى عمرو بن العلاء ، وسمع من العرب . وكان رحمه الله من أكابر النحويين وأعلمهم بتصاريف النحو . وله فيه مذاهب وأقيسة تفرد بها ، وكانت له حلقة بالبصرة، يقصدها طلاب العربية وفصحاء الأعراب ووفود البادية. وقضى حياته كلها عزباً لم يتزوج ولم يتسر ، لاهم له إلا طلب العلم ومحادثة الرجال .

وكان فيه رحمه الله إحساس بالقلق ، ونزوع إلى حرية الرأى ، حتى فيما ألف الناس السكوت عنه ، والتسليم به ، ولعل فى هذا سر الأقيسة والمذاهب النحوية التى تفرد بها وخالف الأئمة فيها .

رووا أنه كان يقول: ثلاثة والله أشتهى أن أُمكن من مناظرتهم يوم القيامة : آدم عليه السلام ، فأقول له : قد مكنك الله تعالى من الجنة وحرم عليك الشجرة، فقصدتها حتى طرحتنا فى هذا المكروه ، ويوسف عليه السلام فأقول له : كنت بمصر وأبوك يعقوب بكنعان ، وبينك وبينه عشر مراحل، يبكى عليك حتى ابيضت عيناه من الحزن ، ولم ترسل إليه: إنى فى عافية وتريحه مما كان فيه، وطلحة والزبير أقول لهما : إن على بن أبى طالب بايعتماه بالمدينة وخلعتماه بالعراق ، فأى شىء أحدث ؟ ومات سنة ١٨٧ ، ومن كتبه : كتاب معانى القرآن ، وكتاب النوادر

---

(١) الكتاب: ١ : ٣٥٩ ، والبيت من قصيدة طويلة لعمرو بن قعاس المرادى والمحصلة بكسر الصاد : المرأة تحصل تراب المعدن . ويقال إنها بفتح الصاد، وإن البيت وصلته لأعرابى أراد أن يتزوج امرأة بمتعة (راجع خزانة الأدب : ٢ :



٤٧ — ٤٩) .



الكبير ، وكتاب الأمثال(١) .

وأخذ عنه الكسائى والفراء وسيبويه ، وجملة ماروى عنه سيبويه فى الكتاب ٢٠٠ ، وهو قدر يلى فى عدده قدر ماروى عن الخليل ، وكان يروى عن أبى عمرو من طريق يونس قليلا ، وعن ابن أبى إسحق من طريقه فى بعض الأحيان .

فما أخذه عن يونس قوله : « وزعم يونس أن قوماً يقولون : هذه عشرون أضعافها ، وهذه عشرون أضعاف أى مضاعفة ، والنصب أكثر(٢) » ، ومما روى عن أبى عمرو من طريقه قوله : « وقال قوم : يا أخانا زيدُ وقد زعم يونس أن أبا عمرو كان يقوله . وهو قول أهل المدينة(٣) » . ومما روى عن ابن أبى إسحاق من طريقه قوله : « فإن سميت المؤنث بعمرو أو زيد لم يجز الصرف . هذا قول ابن أبى إسحق وأبى عمرو فيما حدثنا يونس(٤) » .

والثالث الأخفش : وهو أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد ، مولى قيس ابن ثعلبة ، وأحد الأخافشة الثلاثة المشهورين(٥) . لقى الأعراب ، وأخذ عنهم وعن أبى عمرو بن العلاء وطبقته ، حتى صار من أكابر علماء العربية وأئمتها المذكورين .

وهو أول من فسر الشعر بيتاً بيتاً ، يعقب كل بيت تفسيره . وكان الناس قبله إذا فرغوا من القصيدة فسروها جملة ، وأخـذ عنه الكسائى ، ويونس وأبو عبيدة ، وسيبويه . وكان ثقة ورعا دينا(٦) .

---

(١) راجع أخبار النحويين البصريين : ٣٣ ، ونزهة الألبا : ٥٩ — ٦٤ ، وبغية الوعاة : ٤٢٦ ، والفهرست : ٦٣

(٢) الكتاب : ١ : ٢٧٥ (٣) المصدر السابق : ٣٠٤

(٤) الكتاب : ٢ : ٢٣

(٥) الأكبر : وهو أبو الخطاب المذكور ، والأوسط : وهو سعيد بن مسعدة والأصغر : وهو على بن سليمان (بغية الوعاة : ٤٣٦)

(٦) راجع نزهة الألبا : ٥٣ — ٥٤ ، وبغية الوعاة : ٥٩٦

(٧) وفيات الأعيان : ٣ : ١٣٣ ، وإنباه الرواة : ٢ : ٣٤٦



وقد أخذ سيبويه عنه اللغة ، وهو يذكره فى الكتاب بكنيته ، وكل ما يرويه عنه نصوص ومفردات ، وقد روى عنه ٤٧ مرة ، منها :

(هذا باب ما تكون فيه أنّ وأنْ مع صلتهما بمنزلة غيرهما من الأسماء) ، وذلك قولك: ما أتانى إلا أنهم قالوا ... ومثل ذلك قولهم : مامنعنى إلا أن يغضب علىّ فلان : والحجة على أن هذا فى موضع رفع أن أبا الخطاب حدثنا أنه سمع من العرب الموثوق بهم من ينشد هذا البيت رفعا :

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت حمامة فى غصون ذات أو قال[1]

والثالث عيسى بن عمر: وهو أبو سليمان عيسى بن عمر ، مولى خالد بن الوليد ، نزل فى ثقيف فنسب إليهم . وكان رحمه الله إماما ثقة فى العربية والنحو والقراءة . أخذ عن أبى عمرو بن العلاء ، وعبدالله بن أبى إسحاق ، وروى عن الحسن البصرى ، والعجاج بن رؤبة وغيره .

وكان يتقعر فى كلامه ، يؤثر اصطناع الغريب على المألوف . وحديثه حين ضربه يوسف بن عمر بن هبيرة مشهور ، وقد سبق أن رويناه فى المقدمة . وكان له كتابان فى النحو : الجامع والمكمل ، أو الإكمال . ولكنهما لم يقعا لأحد ، ويقول المبرد : إنه قرأ أوراقا من أحدهما ، فكان كالإشارة إلى الأصول[2] . ويقول فيهما الخليل :

بطل النحو جميعا كله غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك إكمال وهذا جامع وهما للناس شمس وقمر

وكان عيسى ضريرا ، ومات رحمه الله سنة ١٤٩[3] . وروى عنه سيبويه فى الكتاب ٢٢ مرة ، منها :

« وكان عيسى يقول ادخلوا الأولُ فالأولُ ؛ لأن معناه ليدخل ، فحمله على

---

(١) الكتاب : ١ : ٣٦٨ — ٣٦٩ ، والبيت من قصيدة لأبى قيس بن الأسلت ، وضمير يمنع للوجناء فيما سبق . الأوقال جمع وقل بفتح فسكون وهو المقل اليابس . وروى غير بالفتح مبنية جوازا لإضافتها إلى مبنى (راجع خزانة الأدب : ٣ : ٣٧١ — ٣٧٩) . (٢) مراتب النحويين : ٢٣ ، وطبقات النحويين : ٣٧ . (٣) راجع أخبار النحويين البصريين: ٣١ — ٣٣ ونزهة الألبا : ٢٥ — ٣١ ، بغية الوعاة : ٣٧٠ ، والفهرست : ٦٢



المعنى ، وليس بأبعد من ميثبك يزيد ضارع لخصومة[١] » .

والرابع أبوزيد : ولم أر سيبويه فى الكتاب يروى عنه ، ويقول السيرافى : « وذكر أبوزيد النحوى اللغوى كالمفتخر بذلك بعد موت سيبويه قال : كلما قال سيبويه وأخبرنى الثقة فأنا أخبرته[٢] » .

وهو كلام يدل على أن السيرافى يشك فى صحة هذه الدعوى ؛ لأنه يحمله تبعتها ، ويردها فيه إلى مايشبه الفخر بها ، ولكن بعد موت سيبويه ، حين تقطع مابينه وبين الأحياء ، فما يستطيع إنكاراً ولا إقرارا .

وأرى برغم ذلك أن أبا زيدحقيق بالتصديق فقدكان من شيوخ سيبويه[٣] . فقد قال سيبويه فى الكتاب : وأخبرنى الثقة أو مايشبهها غير مرة . وادعى أبوزيد أنه المعنى بها ، ولم يذكر الرواة أن أحدا نازعه إياها . وكان الرجل من أهل الثقة ، روى له أبو داود والترمذى ، مع أنه لم ينقطع للحديث ، ولا كان الحديث أغلب عليه .

وهو أبو زيد سعيد بن أوس الأنصارى الخزرجى ، شهد جده ثابت بن بشير أحدا والمشاهد بعدها ، وكان أحد الستة الذين جمعوا القرآن فى عهد الرسول صلوات الله عليه .

وقد أكثر أبوزيد السماع من العرب ، وأخذ عن أبى عمرو بن العلاء ، ورؤبة بن العجاج وعمرو بن عبيد وغيرهم ، وكان رحمه الله إماماً من أئمة العربية، لكنه لم يبلغ فى النحو شأو الخليل وسيبويه ، غلبت عليه اللغة والنوادر والغريب.

وكان لايتعصب فى طلب المعرفة ، فعامة كتاب النوادر عن المفضل الضبى ،

---

(١) الكتاب : ١ : ١٩٦

(٢) أخبار النحويين البصريين : ٤٨ — ٤٩

(٣) بغية الوعاة : ١ : ٢٠٤



مع أنه كوفي ، وأبو زيد بصري . قال في أول كتاب النوادر : أنشدني المفضل لضمرة بن ضمرة ، جاهلي :

بكرت تلومك بعد وهن في الندى ... بَسْلٌ عليك ملامتي وعتابي
أؤصرها وبنيّ عمى ساغب ... فكفاك من إبة علىّ وعاب
هل تخمشن إبلى علىّ وجوهها ... أم تعصبن رءوسها بسلاب[1]

ولا يعرف الرواة أحداً غيره من علماء البصرة بالنحو واللغة أخذ عن أهل الكوفة شيئاً من علم العرب . ومن كتبه : كتاب الإبل والشاء ، وكتاب النبات والشجر ، وكتاب الجمع والتثنية ، وكتاب النوادر . ويقال : إن في كتبه المصنفة في اللغة من شواهد النحو عن العرب ما ليس لغيره . وسئل عنه أبو عبيدة والأصمعي فقالا : ماشئت من عفاف ، وتقوى ، وإسلام . وتوفى رحمه الله بالبصرة سنة ٢١٤ ، أو ٢١٥[2] .

وقد روى عنه سيبويه في الكتاب تسع مرات ، وجملة ما روى عنه من اللغة ، كقوله : « وحدثنا من لا نتهم أنه سمع من العرب من يقول : رويد نفسِه جعله مصدرا كقوله : فضرب الرقاب[3] .

ولا نعرف على التحقيق لماذا آثر سيبويه ألا يصرح باسم أبي زيد في الرواية عنه ، لا يعدل عن ذلك أبدا ، على حين يصرح بأسماء آخرين ، أو يراوح بين التصريح والإضمار ، كدأبه مع الخليل ؟ ربما كان في ذلك نوع من التكريم لأبي زيد ؛ ولا سيما أنه يكنى عنه بأفضل ما يكنى به عن الرواة والعلماء ، مثل : من نثق به ، ومن لا نتهم ، فكأنما أراد سيبويه أن يدعو الناس إلى هذه التسمية ، وأن يشاركه فيها من لم يكن يشاركه ؛ إجلالا للرجل ومكافأة :

---

(١) بسل : حرام . أصرها : أشد أخلافها . الإبة : العيب . السلاب عصابة سوداء تشد المرأة بها رأسها في المصيبة . (٢) أخبار النحويين البصريين : ٥٢ — ٥٧ ، ونزهة الألبا : ١٧٣ — ١٧٩ ، والفهرست : ٨١ ، وبغية الوعاة : ٢٥٤

(٣) الكتاب : ١ : ١٢٥

والخامس هارون : وهو فيما أرجح أبو عبد الله هارون بن موسى البصرى، فلم يعينه سيبويه، ولا أعرف مسمى باسمه يمكن أن يكون أستاذاً له إلا هارون المذكور، وكان يهوديا فأسلم وحسن إسلامه وحفظ القرآن، وبرع فى القراءة، درس النحو، وسمع الحديث. وروى له الشيخان. وهو أول من تتبع وجوه القرآن وألفها، وتتبع الشاذ منها، وبحث عن أسناده، ومات فى حدود سنة ١٧٠ (١).

وقد روى عنه سيبويه خمس مرات، كلها من القراءات، كقوله: « وحدثنا هارون أن بعضهم قرأ: « فلا جناح عليهما أن يصَّلحا بينهما صلحا (٢) »، وقوله: « وتقول: ودّ لو تأتيه فتحدثه، والرفع جيد على معنى التمنى. ومثله قوله عز وجل: « ودوا لو تُدهن فيدهنون ». وزعم هارون أنها فى بعض المصاحف: ودوا لو تدهن فيدهنوا (٣) ».

هؤلاء هم من عرفنا من العلماء الذين ساهموا فى صنع سيبويه العالم النحوى الجليل، وأمدوه بما استمد لكتابه من مسائل النحو واللغة والقراءات. وهناك آخرون سمع منهم أو رُوى له عنهم، ولم يذكر من هؤلاء وأولئك إلا أبا عمرو ابن العلاء، وعبد الله بن أبى إسحاق، فتراه حينا يقول فى الكتاب: « وقد ذكر لى بعضهم أن الخليل قال: أن مضمرة بعد إذا (٤) »، وحينا يقول: « هذه الأسماء، يعنى (أسماء الإشارة) لما كانت مبهمة تقع على كل شىء، وكثرت فى كلامهم خالفوا بها ماسواها من الأسماء فى تحقيرها، وغير تحقيرها، وصارت عندهم بمنزلة لا، وفى، ونحوها: فإذا صار اسما عمل فيه ما عمل بلا ؛ لأنك قد حولته إلى تلك الحال كما حولت لا، وهذا قول يونس والخليل ومن رأينا من العلماء (٥) ».

وقد نقل سيبويه عن أبى عمرو ٤٤ مرة، يذكر فى أكثرها أن الرواية عن

---

(١) نزهة الألبا: ٤١ — ٤٢، بغية الوعاة: ٤٠٦ (٢) الكتاب: ٢ : ٤٢١ والإدغام قراءة عاصم الجحدرى. المحتسب: ١ : ٢٠١ (٣) الكتاب: ١ : ٤٢٢ (٤) المصدر السابق: ٤١٢ (٥) الكتاب: ٢ : ٤٢

يونس، ويضمر فى أقلها السند أو يغفله جملة، كقوله : «وحدثنى يونس أن أبا عمرو كان يقول : الوجه ما أتانى القوم إلا عبدُ الله[1]» وقوله: «وزعموا أن أبا عمرو كان ينشد هذا البيت نصبا :

قبِّح من يزنى بعو ف من ذوات الخُمُر
الآكلَ الأسلاء لا يحفل ضوء القمر[2]»

وقوله : «وذلك قول بعض العرب : يا للعجب، ويا للماء، وكأنه نبه بقوله يا غير الماء للماء. وعلى ذلك قال أبو عمرو : يا ويلٌ لك، وياويحٌ لك، كأنه نبه إنسانا ثم جعل الويل له[3]».

وكان أبو عمرو رحمه الله من أعلام القراءات واللغة، أخذ النحو عن نصر ابن عاصم تلميذ أبى الأسود، وأخذ عنه الخليل بن أحمد ويونس بن حبيب وغيرهما. واختلف فى اسمه، فقيل : زبان، وقيل اسمه كنيته. وتوفى رحمه الله سنة ١٥٤[4].

ويقولون إن سيبويه أخذ الحروف عنه. وفى الكتاب دليل على ذلك، قال : ورأيت أبا عمرو أخذ بهن فى قوله عز وجل : «يا ويلتا أألد؟[5]»، أما النحو فالراجح أنه لم يأخذه عنه، فلم أر أحداً ذكره، وليس فى الكتاب دليل عليه.

وعجيب أن يأخذ النحو عن عيسى بن عمر سماعا، ولا يأخذه عن أبى عمرو بن العلاء، إلا نقلا، مع أنه أخذ عنه الحروف، ومع أن وفاته كانت بعد عيسى بنحو خمس سنوات[6].

---

(١) الكتاب : ١ : ٣٦٠. (٢) المصدر السابق : ٢٥٣ والبيتان لرجل من أزد السراة، يذم رجلا بالنهم والقعود عن السرى، ويدعو على من يرضاه من النساء. والاسلاء جمع سلى وهو المشيمة ويروى الأشلاء. ونصب الآكل على الذم (راجع تحصيل عين الذهب بحاشية للكتاب : ١ : ٢٥٣).

(٣) الكتاب : ١ : ٣٢٠ (٤) أخبار النحويين : ٢٨ : ونزهة الألبا ٣١—٣٨ (٥) الكتاب : ٢ : ١٦٧ (٦) راجع معجم الأدباء : ١١ : ١٥٧ وما بعدها.



وربما كان سبب ذلك أن وفاة أبى عمرو كانت فى الكوفة ، فقد رحل إليها إذاً ، وكأن الرحلة وقعت قبل أن يبلغ سيبويه السن التى يطيق فيها مدارسة العلوم.

وأما جملة ما نقل سيبويه عن ابن أبى إسحاق فكانت أربعاً كلها من النحو والاستشهاد له ، وسنده فى الرواية هنا يونس ، كما كان سنده هناك فى الرواية عن أبى عمرو .

ومما نقل عنه قوله : « فإن سميت المؤنث بعمرو أو زيد لم يجز الصرف . هذا قول ابن أبى إسحاق . وأبى عمرو فيما حدثنى يونس . وهو القياس[١] » .

وكان عبد الله بن أبى إسحق إماماً فى العربية والقراءة ، ومن أهل الإحسان فى القياس ، ويقال إنه أول من علل النحو ، وكان كعيسى بن عمر يطعن على العرب . ويذكر مثالبها . وكان ينقد شعر الفرزدق ويرده عليه ،وهجاه الفرزدق لذلك . ومات بالبصرة[٢] سنة ١١٧ .

ونقل سيبويه عن أهل الكوفة أربع مرات فى الكتاب ، ثلاث من القراءات وواحدة من الصرف : قال : وسألت الخليل عن قولهم اضرب أيّهم أفضل ، فقال : القياس النصب ، كما تقول : اضرب الذى أفضل . . . وحدثنا هارون أن الكوفيين يقرءونها ثم لننزعن من كل شيعة أيّهم أشد على الرحمن عتياً . وهى لغة جيدة ، نصبوها كما جروها حين قالوا : امرر على أيهم أفضل[٣].

وقال : « وقال عز وجل : أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ، فانتصب لأنه أمر بالاشهاد لأن تذكر إحداهما الأخرى ، ومن أجل أن تذكر . وقرأ أهل الكوفة: فتذكر رفعاً[٤] » . وقال: وإن شئت قلت فى تتذكرون ونحوها: تذكرون ، كما قلت: تكلمون، وهى قراءة ، وهى قراءة أهل الكوفة فيما بلغنا[٥] ».

---

(١) الكتاب . ٢ : ٢٣ (٢) أخبار النحويين البصريين : ٢٥ — ٢٨ ، نزهة الألبا : ٢٢ — ٢٥ . (٣) الكتاب : ١ : ٣٩٧ . (٤) المصدر السابق : ٤٣٠ . (٥) الكتاب : ٢ : ٤٢٦

وأما ما روى عنهم من الصرف فقوله : « وتقول في فيعَّل من حويت وقويت: حيَّا، وقيًّا ... وتقول منهما في فيعِل: حيٌّ وقيٌّ ... وينبغي أن يكون فيعَّل هو وجه الكلام فيه؛ لأن فيعِلا عاقبت فيعَّلا فيما الواو والياء فيه عين ، ولا ينبغي أن يكون في قول الكوفيين إلا فيعلا مكسور العين ، لأنهم يزعمون أنه فيعل ، وأنه محدود عن أصله »[1] .

ويروى الراوي أن الرؤاسي قال: بعث إلىّ الخليل يطلب كتابي الفيصل ، فبعثته إليه فقرأه ، فكل ما في كتاب سيبويه : وقال الكوفي كذا فإنما عنى الرؤاسي[2] . ولا يعنيني أن يكون القسم الأخير من الخبر للرؤاسي أيضا أو لغيره ، ولكن الذي يعنيني أن أقول: إني لم أر سيبويه يقول ذلك في الكتاب، لا بلفظه ولا بمعناه، مع أن العبارة كما لا يخفى تدل على تكرار قولها ، وتعدد مواطن ذكرها . فإذا كانت ندت مرة مني في موطن، فلا أدري كيف ندت في سائر المرات والمواطن ؟

فهل هي كلمة يريد بها قائلها مجرد الإدلال بفضل الرؤاسي ، شيخ الكوفة ومقدم نحاتها على الخليل وسيبويه شيخي البصرة وإمامَيْ نحاتها ؟ أظن أن الأمر لا يعدو أن يكون كذلك . فإن الخليل لا يكاد يروى لسيبويه عن شيخه ، فكيف يأخذ نفسه بالرواية له عن الرؤاسي لمجرد أنه قرأ كتابه إذا صح ذلك. ؟ فالقراءة وحدها لا تستوجب الرواية، إلا إذا كان الخليل لم يقنع بقراءة الكتاب، فنسخه وحفظه . وهيهات أن يبلغ اهتمام الخليل به هذا المبلغ، فهو أول ما ألفت الكوفة من كتب النحو .

وهذا جدول يبين من أخذ عنهم وروى لهم سيبويه في الكتاب ، ويبين

---

(١) الكتاب : ٢ : ٣٩٣ .

(٢) بغية الوعاة : ٣٣ .



كذلك مرات الأخذ والرواية ، كما انتهينا إليها بالتتبع والإحصاء ونحن نقرأ الكتاب :

الترتيب	الاسم	عدد المرات
١	الخليل بن أحمد	٥٢٢
٢	يونس بن حبيب	٢٠٠
٣	أبو الخطاب الأخفش	٤٧
٤	أبو عمرو بن العلاء	٤٤
٥	عيسى بن عمر	٢٢
٦	أبو زيد الأنصارى	٩
٧	هارون بن موسى	٥
٨	عبد الله بن أبي إسحق	٧
٩	الكوفيون	٤

زملاؤه :

كان لسيبويه زملاء ، أخذوا العلم معه عن الخليل ، وبرز منهم أربعة ، وهم : سيبويه وقد غلب عليه النحو ، ومؤرج السدوسى وقد غلب عليه الشعر واللغة ، وعلى بن نصر الجهضمى وقد غلب عليه الحديث ، والنضر بن شميل وقد غلبت عليه اللغة[١] . كرعوا مما فى معين الخليل ، وكان لكل مع ذلك لون خاص ومزية غير مزايا الآخرين .

فأما مؤرج فهو أبو فيد[٢] مؤرج بن عمرو السدوسى ، أخذ عن

---

(١) راجع أخبار النحويين البصريين : ٤٩ .
(٢) الفيد : الزعفران أو رائحته .



أبى زيد الأنصارى ، وسمع الحديث من أبى عمر بن العلاء وغيره ، وصحب الخليل فكان من أكابر أصحابه . وله من الكتب كتاب غريب القرآن ، والأنواء ، والمعانى ، وغيرها ، ومات سنة ١٧٤ ، أو سنة ١٩٥ ، أو بعد المائتين[١] .

وأما على بن نصر الجهضمى ، فكان محدثا ثقة ، روى له الجماعة ، ومات سنة ١٨٠[٢] .

وأما النضر فهو أبو الحسن النضر بن شميل . أخذ عن الخليل ، وسمع من فصحاء العرب ، ويقال إنه أقام فى البادية أربعين سنة . وكان رحمه الله إماماً فى اللغة ، وعلماً فى رواية الأخبار والسنن ، وله من الكتب : كتاب السلاح ، وكتاب المدخل إلى كتاب العين ، وكتاب الشمس والقمر ، وغيرها . ومات سنة ٢٠٣ ، أو سنة ٢٠٤[٣] .

تلاميذه :

كان لسيبويه تلاميذ ، أبرزهم اثنان : الأخفش ، وقطرب[٤] .

فأما الأخفش فأبو الحسن سعيد بن مسعدة ، مولى بنى مجاشع بن دارم . أخذ عن شيوخ سيبويه ، وكان فيما يقال أسن منه ، ثم أخذ عنه ، وكان أحذق تلاميذه وأحفظهم لعلمه ، حتى كان الطريق إلى الكتاب : قرأه عليه بعض العلماء ، وعنهم ذاع فى الناس ، وجول فى الأقطار . وألف الأخفش كتبا كثيرة فى النحو والعروض والقوافى ، وله فى كل فن منها مذاهب مشهورة ، وأقوال مذكورة عند علماء العربية .

---

(١) راجع نزهة الألبا : ١٧٩ — ١٨٤ ، وبغية الوعاة : ٤٠٠ ، والفهرست : ٧١
(٢) بغية الوعاة : ٣٥٨
(٣) نزهة الألبا : ١١٠ — ١١٦ ، وبغية الوعاة : ١٠٤ — ١٠٥
(٤) أخبار النحويين البصريين : ٤٩



ومن كتبه : المقاييس فى النحو ، والاشتقاق ، والأصوات ، والعروض والقوافى . ومات رحمه الله بعد سنة ٢٠٧ بقليل[١] .

وأما قطرب فهو أبو على محمد بن المستنير البصرى ، أحد علماء اللغة والنحو لازم سيبويه ، وأخذ عن جماعة غيره من علماء البصرة ، وكان ثقة فيما يحكيه واتخذه أبو دلف[٢] القاسم بن عيسى مؤدبا لولده . وله من الكتب : كتاب معانى القرآن ، وكتاب النوادر ، وكتاب العلل فى النحو ، وكتاب إعراب القرآن ، وغيرها : وقطرب لقب أطلقه عليه سيبويه لمباكرته له فى الأسحار ، فيقال : إنه قال له يوما وقد خرج سحراً فرآه ببابه : إنما أنت قطرب ليل[٣] . ومات رحمه الله سنة ٢٠٦[٤] .

مناظرة الكسائى :

كان سيبويه يناظر العلماء ويناظرونه ، فيظهر عليهم أو يظهرون عليه ، كدأب العلماء فى عصره وفى كل العصور ، وإن كانت المناظرات لتخضع طبعا لحكم الزمان والمكان، وتتأثر بهما فى صبغتها والبواعث عليها ، فإذا هى مختلفات من هذه الناحية قليلا أو كثيراً .

وتعد مناظرة سيبويه للكسائى أشهر مناظرات سيبويه كلها ، بل أشهر مناظرات النحاة قاطبة ، بما لقيت من دراسة العلماء ورواية الرواة ، فلا أعلم أن مناظرة ظفرت بمثل ما ظفرت هى به من ذلك . لقد أكثروا فيها الخلاف ،

---

(١) راجع أخبار النحويين : ٥٠ — ٥١ . ونزهة الألبا : ١٨٤ — ١٨٨ ، وبغية الوعاة : ٢٥٨

(٢) من قواد المأمون ثم المعتصم ، وكان كريما سريا ممدحا شجاعا ، صاحب صنعة فى الغناء . وكان له شعر حسن ومؤلفات. وتوفى سنة ٢٢٥ (وفيات الأعيان .

(٣) القطرب : دويبة تدب ولا تفتر . ومن كلام الحريرى : فكن أجول من قطرب .

(٤) راجع نزهة الألبا : ١١٩ — ١٢٠ ، والفهرست : ٧٨ ، وبغية الوعاة : ١٠٤



وأطالوا عنها الحديث، وجدوا فى تخريجها والاحتجاج لها، وأبوا إلا أن يدعوا فيها آثار للعصبية للمدرستين، ويجعلوها ميداناً آخر من ميادين الجدل المستمر بينهما على تعاقب الأجيال، فإذا أقوال متخالفة وآراء متضاربة، يضل بينها الباحث، ويخفى عليه وجه الصواب فيها[١].

لأنهم لم يروها مناظرة عالم لعالم وكفى، ولكنهم اعتبروها مناظرة بين مدرسة البصرة ممثلة فى فتاها سيبويه، ومدرسة الكوفة ممثلة فى شيخها الكسائى، واعتبروا النصر فيها نصرا لإحدى المدرستين على الأخرى، يكسبها فخرا تدل به، وفضلا تحمد عليه.

ويبدو أن أهل الكوفة هم الذين وضعوها هذا الوضع، ونظروا إليها هذه النظرة أولا؛ فقد خرج إليها سيبويه وحده، وبرز له الكسائى فى جمع من شيعته وحواريه، ولو أن أهل البصرة أرادوها مبارزة علمية بين المدرستين لصحب بعضهم سيبويه فيها. وكان الكسائى والأحمر وهما يخاطبان سيبويه فى المناظرة لا يدعوانه باسمه، ولكن بالنسبة إلى وطنه فكانا يقولان له: يابصرى، يكررانها بلفظ واحد، كأنما يصدران فيها عن سابقة اتفاق[٢].

وإذا قدرنا الأمر من ناحيته الواقعية لم نعى بالعذر كله أو بعضه للكوفيين فيما صنعوا؛ فالمناظرة بالظروف التى وقعت فيها، والملابسات التى اقترنت بها كانت مثيرة تهيج النفوس، وتزين لها أن تأتى من الأمر ما لا عهد لها بمثله فى حال الهدوء والاعتدال.

فالبصرة قد سبقت الكوفة إلى النحو، وكان أبو الأسود الدؤلى ينزلها، وهو أبو النحاة ورائدهم، فقد صار لها فى النحو سابقة مذكورة وعهد غير محدث،

---

(١) راجع على سبيل المثال: طبقات الزبيدى: ٤٠ — ٤٤، وتاريخ بغداد: ١٢: ١٩٨، وإنباه الرواة: ٢: ٣٤٨، ووفيات الأعيان: ٣: ١٣٤، والإنصاف فى مسائل الخلاف: ٢: ٤١١ — ٤١٥

(٢) راجع طبقات الزبيدى: ٤١



من قبل أن يظهر فيه علماء من أهل الكوفة . على أن أهل الكوفة سبقوا فى مجال آخر ، فأسرعوا إلى خلفاء بنى العباس ، يطرقون أبوابهم ، ويتبوءون أماكنهم فى مجالسهم ، وقدرهم الخلفـــاء ووثقوا بهم ، فأكرموهم ، واتخذوهم مؤدبين لأولادهم وأولياء عهودهم ، وأصبح مذهبهم الوليد هو المذهب الرسمى فى النحو .

ولم يشأ أهل البصرة أو نفر منهم على الأصح أن يدعوا إخوانهم وما سبقوا إليه ، ويخلوا بينهم وبين الخير الذى أفاضه الله عليهم أو يأخذوا منه بنصيب . فهذا فتى من علمائهم لم يجاوز الشباب بعد ، قد نازعته نفسه وساورته همته ، فشد إليهم الرحال ينفس عليهم ، ويأبى إلا أن ينازلهم فى دارهم ، ويزاحمهم على منزلتهم من الخلفاء . إنه يطلب الكسائى للمناظرة ، فى دار الخلافة ، وبحضرة الوزير يحيى بن خالد ، وفى الملأ من تلاميذ الكسائى وحوارييه وغيرهم . وكان الكسائى يومئذ كما وصفه يحيى بن خالد « شيخ مدينة السلام ، وقارئها ، ومؤدب ولد أمير المؤمنين ، وكل من فى المصر له ومعه(١) » .

فماذا عسى أن يبقى لمن هم دونه من أهل صناعته إذا قدر لهذا الوافد المغامر أن يظهر عليه ؟ وهل من حرج على نحاة الكوفة إذا هم أعظموا الأمر وأعدوا له ؟ وإذا كان سيبويه فى منافسته لشيخهم الكسائى غير مخطىء ولا ملوم ، فحقيق بحكم القياس والمجازاة أن يكونوا هم أيضا غير مخطئين ولا ملومين ، لأنه إن يكن بما صنع يبغى لنفسه خيرا يرتجيه فإنهم بما صنعوا يدفعون عن خير كسبوه وجهدوا فيه . وهل من حرج على نحاة البصرة أن يشكروا تألب نحاة الكوفة على سيبويه ، حتى يخرج من بغداد على الحال التى خرج من الاستكانة والهزيمة ؟ .

لا أرى أن على هؤلاء أو أولئك حرجا فى أصل ما تورطوا فيه ، ولكن الحرج حقا أن يخرج الفريقان أو نفر منهما على الاعتدال فى المنافسة ، كأنهم لا يخشون

---

(١) طبقات الزبيدى : ٤١



أن يشوه وجه الحقيقة أو يخفى على الناس جملة . فروى الكوفيون قصة المناظرة بما ينتقص سيبويه ، واتهمهم البصريون فيها بالرشوة والافتعال . وكان بعض ذلك كثيراً .

ولا نعرف متى كانت هذه المناظرة على التعيين ، ولكن المعروف أنها وقعت فى خلافة الرشيد ، وفى وزارة يحي بن خالد ، أى سنة ١٧٠ هجرية أو بعدها . وكان الداعى إليها المنافسة العلمية، والرغبة فى المزاحمة على أبواب الخلفاء .

وسنقص هنا نبأها مجرداً ، ونشير فى الهامش إلى بقاياها ؛ لتكون بين يديك خالصة نقية، وتكون بقاياها منك غير بعيد ، تتوالى تباعا كل بموضعه المحدود ، لا يكاد يفوتك منها شيء .

قدم سيبويه بغداد[١] ، وقصد يحي بن خالد يسأله أن يجمع بينه وبين الكسائى[٢]

---

(١) يروى عن المبرد أن الكسائى لما علم بمقدم سيبويه شق أمره عليه ، فجاء جعفر بن يحي وأخاه الفضل، فقال : أنا وليكما وصاحبكما ، وهذا الرجل إنما قدم ليذهب محلى، قالا : فاحتل لنفسك ، فإنا سنجمع بينكما (طبقات الزبيدى : ٤٠) ويروى عن مسلمة بن عاصم تلميذ الفراء أن سيبويه حين ورد بغداد أتى حلقة الكسائى ، وفيها الفراء وهشام وغيرهما ، فقال الفراء للكسائى لا تكلمه ، ودعنا وإياه ؛ فإن العامة لا تعرف ما يجرى بينكما ، وتغليبهما بالظاهر . فجعل سيبويه يسأل عن مسائل والفراء يجيب ، ثم قال له الفراء : ما تقول فى قول الشاعر :

تمت بقربى الزينبين كلاهما إليك ، وقربى خالد وسعيد

فلحقت سيبويه حيرة السؤال ، وقال : أريد أن أمضى لحاجة ، فلما خرج قال الفراء لأهل الحلقة : قد جاء وقت الانصراف ، فقوموا بنا فقاموا ، وخرج سيبويه فوجدهم قد انصرفوا (راجع تاريخ بغداد ١٢ : ١٩٨) . هذا وهشام المذكور هو أبو عبد الله هشام بن معاوية الضرير، أحد أعيان أصحاب الكسائى. مات سنة ٢٠٩ (بغية الوعاة : ٤٠٩) .

(٢) يروى عن الأخفش أن يحي بن خالد نصح لسيبويه ألا يناظر الكسائى ، لمكانته فى بغداد وعند الخليفة ، وأن الرشيد حين عرف الخبر أمر أن يجمع بينهما (طبقات الزبيدى : ٤١) ، وسواء أكان يحي فى نصيحته هذه متعصباً أم منصفاً لا شك أن نصيحته كانت حكمية ، أثبتت الحوادث صدقها ، وليس هذا عجيباً ؛ فمثل يحي فى مكانته حقيق أن يكون أعرف بالأمور ، وأقدر على وزنها وزناً دقيقاً .

فجعل له موعداً[١] وحضر سيبويه[٢] للموعد فإذا نفر من أصحاب الكسائى هناك، منهم الأحمر[٣] والفراء[٤]، كأنهم دبروا أمراً: أن يناجزوا سيبويه، ويستدرجوه للمناظرة قبل الكسائى، ليفلوا من حدته، ويخضدوا من شوكته، فيلقى الكسائى وقد فقد شيئاً مما يلقى به المهاجم منافسه من حماسة وثقة وتصميم.

وبرز الأحمر له، فسأله عن مسائل لم يتفقوا على عدتها[٥]، ولم يذكروا شيئاً منها ولو على سبيل المثال، ولكن الذى اتفقوا عليه ولم يفتهم ذكره — أن سيبويه كلما أجاب بجواب قال له الفراء: أخطأت، أو أخطأت يا بصرى.

وبرز له الفراء، ليتم ما بدأ صاحبه فقال: ما تقول فيمن قال هؤلاء أبون ومررت بأبين، كيف تقول على مثاله من: وأيت، أو أويت؟ فقدر وأخطأ، فقال له الفراء: أعد النظر، فقدر وأخطأ، فقال: أعد النظر ثلاث مرات، وهو فى كل مرة يجيب ولا يصيب. فلما أكثرا عليه وضاق بهما قال: لست أكلمكما أو يحضر صاحبكما فأناظره.

وجاء الكسائى فى ناس من العرب، فقال لصاحبه: تسألنى أو أسألك؟ فقال سيبويه: بل تسألنى أنت. فقال الكسائى،: كيف تقول: قد كنت

---

(١) قيل إن اجتماعهما كان عند البرامكة وقيل فى دار الرشيد، وقيل فى مجلس الأمين (طبقات الزبيدى: ٤٠ - ٤١)، (وشذرات الذهب: ١ : ٢٥٢).

(٢) فى إنباه الرواة (٢ : ٣٤٨): أن أبا سعيد الأخفش حضر المناظرة، ولم أره فى غيره.

(٣) هو أبو على بن المبارك، أول من دون عن الكسائى، اشتهر بالنحو وسعة الرواية. ومات سنة ٢٠٦ أو سنة ٢٠٧ (نزهة الألبا: ١٢٥ - ١٢٦).

(٤) هو أبو زكريا يحى بن زياد، أخذ عن الكسائى وغيره، وكان إماماً ثقة فى اللغة والنحو، فقيهاً منجماً، خبيراً بأيام العرب. توفى سنة ٢٠٧ (نزهة الألبا: ١٣٦ - ١٣٧).

(٥) قيل مائة، وقيل ثلاث، والأول عن الأخفش، والآخر عن الفراء (طبقات الزبيدى: ٤١ - ٤٣): ولو كان مكان سيبويه أحد ممن هم دونه علماً لكان حقيقاً أن يصيب ولو فى مسألة واحدة من المائة، إلا يكن عن معرفة فمن مصادفة. فإما كان سيبويه جاهلا فدما، وإما كان مناظره جاحداً مصراً.

أحسب أن العقرب أشد لسعة من الزنبور، فإذا الزنبور إياها بعينها(١) ؟ ثم سأله عن مسائل من هذا النوع: خرجت فإذا عبد الله القائم أو القائمَ(٢) ، فقال سيبويه فى ذلك كله بالرفع ، فقال الكسائى : العرب ترفع فى ذلك كله وتنصب ، فدفع سيبويه قوله . فقال يحيى بن خالد : قد اختلفتما وأنتما رئيسا بلديكما ، فمن يحكم بينكما ؟ فقال الكسائى : الأعراب . وها هم أولاء بالباب، فأمر يحيى فأدخل منهم من كان حاضراً(٣) ، فقالوا بقول الكسائى ، فانقطع سيبويه واستكان، وانصرف الناس يتحدثون بانتصار الكوفى وهزيمة البصرى .

وتعد هذه المناظرة فى جملتها نمطاً من المناظرات مألوفاً فى رأى العصر الذى جرت فيه، ويعد كل من صاحبيها مجزياً بها ومحتملا تبعاتها ، فقد كان عصر التوسع فى الرواية والتتبع فى التحصيل . فلا عجب أن تجرى المساءلة ، أو تدور المناظرة مطلقة شاملة ، وعلى غير أهبة ولا استعداد ، ودون بحث أو مراجعة . ولا عجب أن يكون مدار الحكم فيها جواب مسألة واحدة، فإما صواب فظفر وإما خطأ ففشل.

ولهذا رأينا أنصار سيبويه لا يجادلون فى أسس المناظرة ومبادئها ، ولا فى ارتباط آخرها بأولها وإفضاء مقدماتها إلى نتيجتها ، ولكنهم إنما يجادلون فى نزاهتها والملابسات التى صحبتها وفى موضوعها من قبل الشذوذ والشيوع لا غير . وفى ذلك معنى التسليم بأن العالم الحق جدير أن يحيط بكل شىء ، ويتوقع أن يسأل عن كل شىء .

---

(١) ويروى : كنت أظن الزنبور أشد لسعاً من النحلة فإذا ... (وفيات الأعيان : ٣ : ١٣٤ ، مغنى اللبيب : ١ : ٧٤) .

(٢) ويروى : فإذا عبد الله قائم، ولا يخفى الفرق بينه وبين المسألة الزنبورية، فإن قائماً نكرة ، فيمكن أن تنصب حالا، ولا كذلك إياها (راجع طبقات الزبيدى : ٤٠ - ٤١) .

(٣) منهم أبو دثار الفقعسى ، وأبو الجراح العقيلى ، وأبو ثروان العكلى . وقد ذكرهم ابن النديم فى الفهرست مع من ذكر فى باب أسماء فصحاء العرب المشهورين : ٦٩ - ٧١ .



فقال قائلون منهم : إن الأعراب الذين شهدوا للكسائى كانوا من الذين أقام فيهم الكسائى وأخذ عنهم اللغة[١] . وقال آخرون : إنهم رشوا : أو علموا منزلة الكسائى عند الرشيد فوافقوه ، وقال آخرون : إنهم قالوا: القول قول الكسائى ، ولم ينطقوا بالنصب ، وإن سيبويه قال ليحي : مرهم أن ينطقوا بذلك ؛ فإن ألسنتهم لا تطاوعهم عليه[٢] .

وقالوا عن موضوع المناظرة : إن قول سيبويه فيه هو القول : لأنه يجرى على طريقة القرآن فى هذا التعبير . قال تعالى : « فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين، ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين » . وقال : « فألقاها فإذا هى حية تسعى » .

وأما قول الكسائى فإذا ثبتت روايته عن العرب فشاذ من الشاذ ، مثله كمثل الجرّ بلعل ونحوه[٣] ، ثم هم يتكلفون له بعد ذلك أوجها من التخريج والتأويل[٤] .

ويرد الخطيب البغدادى على البصريين تهمة الرشوة فيقول : « ... فقال بعض الجهال : إن الكسائى واطأ الأعراب من الليل حتى تكلموا بالذى أراده . وهذا قول لا يعرج عليه ؛ لأن مثل هذا لا يخفى على الخليفة والوزير وأهل بغداد

---

(١) طبقات الزبيدى : ٤١ .

(٢) طبقات ابن قاضى شهبة : ٢٠٩ - ٢١٠ ، ويقال : إن الأمين أمر أعرابياً أن يقول بقول الكسائى ، فاعتذر بأن لسانه لا يسبق إلا إلى الصواب، فأمر أن يقول شخص : قال سيبويه كذا . وقال الكسائى كذا، فما الصواب ؟ فيقول العربى: الصواب ما قال الكسائى (راجع وفيات الأعيان : ٣ : ١٣٤) .

(٣) راجع مغنى اللبيب : ١ : ٧٧ ، وقد احتج فى الإنصاف لقول سيبويه، ورد قول الكسائى، فارجع إليه هناك : ٢ : ٤١١ - ٤١٥ .

(٤) منها : أن إياها مفعول به لفعل محذوف ، والأصل فإذا هو يشابهها، ثم حذف الفعل فانفصل الضمير ، والجملة المحذوفة خبر المبتدأ. ونظيره فى ذلك قراءة على: « لئن أكله الذئب ونحن عصبة » : بنصب عصبة، أى نرى عصبة ،ومنها : أن إياها مفعول مطلق ، والأصل فإذا هو يلسع لسعتها ، ثم حذف الفعل كما تقول : ما أنت إلا شرب الإبل ، ثم حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . (راجع مغنى اللبيب : ٢ : ٧٧ - ٧٨) .



أجمعين[١] » : ويردها كذلك أستاذنا الإسكندرى فيقول : « وما يروى فى هذه الحكاية غير هذا فمن زيادة متعصبي البصريين ، وليس فى العلم كبير[٢] » .

ونلاحظ أن كلا العالمين الجليلين يغلب على رده العنف والمبالغة . ولا أرى لشيء منهما داعياً ولا مسوغا ، فالذين رددوا التهمة جمهرة كبيرة ، وليسوا من النحويين وحدهم ، ولكن من المؤرخين كذلك . ولم أر منهم من ينكرها أو يستبعد وقوعها ، مما يوحى على الأقل بالتوقف فيها والتسليم بإمكان حدوثها . وهم إن اختلفوا فى تصوير وقائع التهمة — لا يختلفون فى حقيقتها : أن المحكمين اتبعوا الهوى ، ومالوا بالحكم عن وجه المستبين . وليس بالمستساغ ولا بالهين أن يرمى كل أولئك جملة واحدة بالجهل والتعصب الأعمى من غير بينة قائمة ولا حجة قاطعة ، إلا قول الخطيب : « وهذا قول لايعرج عليه ؛ لأن مثل هذا لا يخفى على الخليفة والوزير وأهل بغداد أجمعين » .

ولست أدرى كيف يكون علم الخليفة والوزير وأهل بغداد أجمعين أمراً حتما فى رأى الخطيب، مع أنه ذكر قبل هذه العبارة أن الاتفاق أو المواطأة كما يقول إنما دبرت بليل ؟ فهل كان للخليفة والوزير وأهل بغداد عيون وأرصاد يبثونهم حول العلماء ومريديهم من حيث لا يشعرون ، ليرفعوا إليهم كل ما يلفظون من قول، وكل مايعملون من عمل ؛ ولماذا يسيء الظن بالمتآمرين، فيتهمهم بالغفلة وقلة التحرز ، حتى يشتهر أمرهم هنا وهناك ويذيع خبرهم فى الناس من جميع الطبقات ؟

وليت شعرى إذا صح أن يكون للخطيب البغدادى شفاعة أو معذرة فى غضبته تلك ، من قبل أنه يدفع عن أهل بلده والمستوطنيه — فماذا عسى أن يكون لأستاذنا الإسكندرى من شفاعة أو معذرة فى غضبته ؟ وكيف هان عليه أن يتهم جمهرة ضخمة من النحاة والمؤرخين بالتعصب والافتعال ، ولم يهن عليه أن يصدق أن شخصاً واحداً أو بضعة أشخاص من الكوفيين يمكن أن يحملهم التعصب للكسائى على الكيد لسيبويه فى صورة ما ، حتى يكون لصاحبهم الغلب والظفر ، ولمنافسه الوافد الشاب المغامر الهزيمة والإخفاق ؟

---

(١) تاريخ بغداد: ١٢: ١٠٥ (٢) تاريخ آداب اللغة العربية فى العصر العباسى: ١٠٣



نعم، فنحن لانسيغ أن يغول الكسائي وهو من هو، علما ومكانة وفضلا - إلى مثل هذا التدبير بحكم المنافسة وفى سبيل الحفاظ على مقامه العالى، ولكنى لاأرى بعيداً أن يتكلف ذلك متكلف من بعض أنصاره ومريديه.

ولو أن متهما أراد أن يتهم الكوفيين بإعنات سيبويه والكيد له ماأعوزته القرينة المعززة بل البينة الشاهدة، تتهيأ له فى بعض أحداث المناظرة، ومن بعض زعماء المشاركين فيها. فقد سبق أنهم رووا عن الفراء أن سيبويه لم يعرف كيف يصوغ له من وأى أو أوى على مثال أب. وما أظن باحثاً منصفاً يمكن أن يقبل هذا الكلام على ما خيلت، أو أن يسكت عنه، فإنه يحمل دلائل الاسترابة فيه.

فما كان سيبويه ولا تلميذ من تلاميذه ولا أحد ممن هم دونه ودونهم ليعيا بمثل هذه الصياغة؛ ولكن الفراء فيما أرجح أراد أن تكون على رأيه هو فى وزن كلمة أب، لا على رأى سيبويه فى وزنها. وليس بعيدا أن يعلم الفراء رأى سيبويه، ولا يعلم سيبويه رأى الفراء، لأن البصرة كما تقدم أسبق إلى النحو وأعرق فيه وقد كان سيبويه على الأقل ندا للكسائى، وهو أستاذ الفراء.

ومهما يكن الواقع فإن سيبويه لا يمكن أن يعدل عن رأيه فى وزن (لأب)، لمجرد أن يسأله سائل مخالف أن يصوغ على مثاله، وإنما يكون ذلك ممكناً لو جرت مناظرة بينه وبين مخالفيه فى وزن الكلمة، ولم يستطع سيبويه أن يحتج لرأيه وينفى رأى الآخرين.

وكان سيبويه يرى أن كلمة أب على وزن فعل بفتحتين(١)، وكان الفراء يرى

---

(١) ويحتجون لرأى سيبويه بأن الكلمة سمع فيها (أبا) بالقصر كفتى، والواو المتحركة لا تقلب ألفاً إلا إذا انفتح ما قبلها، وبأن مثناها أبوان بفتح الباء، وتجمع على آباء، والساكن العين من الثلاثى لا يجمع قياساً على أفعال إلا إذا اعتلت عينه ومثاله من وأى أو أوى على مذهب سيبويه: وأى أو أوى، كلاهما كهوى، وإذا جمعا بالواو والنون مسمى بهما حذفت الألف وبقيت الفتحة قبلها، كما تحذف من كل مقصور عند جمعه هذا الجمع، فيقال: وأون أو أوون.

=



أنها على فعل بفتح فسكون[١] . فلما أجاب سيبويه على وفق رأيه أو الفراء جوابه، ولم يكن سيبويه فيما لقي من الفراء وحيدا ، ولا كان الفراء فيما أخذ به سيبويه وحيدا كذلك ، ولكنها فيما يظهر سنة الكوفيين أو فريق منهم مع البصريين .
فقد حدث أبو عثمان المازني قال : « دخلت بغداد ، فألقيت على مسائل، فكنت أجيب فيها على مذهبي ، ويخطئونني على مذاهبهم »[٢] .

وما أرى أن المسألة الزنبورية تبعد من هذه السنة ، وقد فطن لها سيبويه فيما تقول بعض الروايات ، إذ قال للكسائي وأصحابه حين أنكروا جوابه : « أما عرب بلدنا فلا تعرف إلا هو هي »[٣] وفي المناظرة على كل حال روح المتعسفين، إذ أنكر سيبويه النصب لأنه لم ير له وجهاً من القياس ، وفزع الكسائي إلى العرب يريد أن يسمع منهم[٤] .

وما أريد بهذا دفاعا عن البصريين ولا اتهاماً للكوفيين ، ولكني أتأمل الحوادث وأستوحيها ، وأناقش أقوال العلماء فيها وأحكامهم عليها ، عسى أن يظهر الحق ويعتدل الوضع ، فلست من هؤلاء ولا من أولئك في شيء ، وقد مضى زمن هذا التعصب أو كاد ، ويجب أن يتنزه عنه الباحثون والدارسون ، فإنه مفسدة للحكم ، ومضيعة للحق والعدل .

وإذا رجعنا إلى المناظرة مرة أخرى ، ننظر إليها بعين العصر الحاضر ، ونقدرها بمعاييره ، لم نجدها شيئاً ، ولم نجد حكمها عدلا ، فليس يصح في المفاضلة أن يحكم لامرىء أو يحكم عليه بكلمة يقولها ، كائنة ما كانت قيمتها . فإن المصادفة في هذا المجال عملا لا امراء فيه .

= وأما على مذهب للفراء فمثاله من وأى : وأ ى ومن أوى أيّ ، كلاهما كظبي، وأصل الأخير أوي ، فقلبت واوه ياء ، لاجتماعها مع الياء وسبقها بالسكون ، وجمعهما مسمى بهما وأيون وأيون (راجع مغنى اللبيب وحاشية الأمير عليه : ١ : ٧٧)

(١) راجع شرح الأشموني وحاشية الصبان عليه ١ : ٦٥ .
(٢) المغنى : ١ : ٧٧ . (٣) طبقات الزبيدى : ٤١ .
(٤) الأمالي الشجرية : ١ : ٢٢٩ .

واللغة رِواية ، وقد يتهيأ للطالب الناشىء منها مالا يتهيأ للراوية المحيط . وهذا مختار الصحاح مثلا ، لقد روى الفعل (يتعيش) بمعنى يتكلف أسباب العيش ، ولم يروه القاموس المحيط . وفرق مابينهما كفرق مابين القليل والكثير ، فهل يصح أن نحكم لمختار الصحاح على القاموس المحيط ، لمجرد أنه روى (يتعيش) ولم يروها القاموس ؟ .

ولأبى الحسن حازم بن محمد الأنصارى القَرْطاجَنّى[١] منظومة فى النحو مطلعها :

الحمد لله مُعلى قدر من عَلِما ... وجاعل العقل فى سبل الهدى علَما

وقد ذكر فيها المسألة الزنبورية ، وحكى مناظرة سيبويه والكسائى فيها فقال :

والعرب قد تحذف الأخبار بعد إذا ... إذا عَنَت فجأة الأمر الذى دهما

وربما نصبوا للحال بعد إذا ... وربما رفعوا من بعدها ربّما

فإن توالى ضميران اكتسى بهما ... وجه الحقيقة من إشكالها غمما[٢]

لذاك أعيت على الأفهام مسألة ... أهدت إلى سيبويه الحتف والغُمما

قد كانت العقرب العوجاء أحسبها ... قدماً أشد من الزنبور وقع حُمى

وفى الجواب عليها هل إذا هو هى ... أو هل إذا هو إياها ؟ قد اختصما

وخطأ ابن زياد وابن حمزة فيـ ... ـما قال فيها أبا بشر ، وقد ظلما[٣]

وغاظ عمراً علىّ فى حكومته ... ياليته لم يكن فى أمره حكما

---

(١) نسبة إلى قرطاجنة الأندلس ، أحد أئمة الأدب واللغة . نزل تونس ، وامتدح فى منظومته هذه صاحب إفريقية أبا عبد الله محمد بن يحيى بن عبد الواحد ابن أبى حفص . مات سنة ٦٨٤ (راجع حاشية الأمير على المغنى : ١ : ٧٥ ، وبغية الوعاة : ٢١٤) .

(٢) الغمم : سيلان الشعر حتى تضيق الجبهة والقفا . وكنى به عن الخفاء .

(٣) ابن زياد : يحيى الفراء . وابن حمزة : على الكسائى . وأبو بشر : عمرو سيبويه .



ثم قال :

وليس يخلو امرؤ من حاسد أَضِم ... لولا التنافس فى الدنيا لما أَضِما[١]
والغبن فى العلم أشجى محنة عُلِمت ... وأبرح[٢] الناس شجواً عالم هُضِما[٣]

ونلاحظ أن السيرافى لم يرو قصة هذه المناظرة فى أخبار النحويين البصريين، بل لم يشر إليها من قرب أو بعد ، وهذا لا يعنى طبعاً أنها مشكوك فيها أو غير صحيحة . فشهرتها واسعة ، وأنباؤها مستفيضة ، والعلم بها متواتر . ولا أعرف أن أحداً نفاها أو شك فيها . وهيهات أن يجتمع كل أولئك لغير ثابت من الأمر ولا واقع .

وإنما أغفل السيرافى روايتها لأنها فيما أرجح تعدل به عما قصد إليه من الإيجاز فى رواية أخبار النحويين . وفى شهرتها وتحقق العلم بها غناء عن ذكرها وتكرار روايتها . وهذا أبو البركات الأنبارى لا يزيد فى الحديث عنها على أن يقول : « وورد سيبويه إلى بغداد ، وناظر بها الكسائى وأصحابه . والمناظرة مشهورة »[٤] .

بعد المناظرة :

قالوا : إن الوزير يحى أجاز سيبويه بعد المناظرة بعشرة آلاف درهم وتفيد بعض الروايات أنه أجازه بها من تلقاء نفسه[٥] ، كأنما رحمه ورثى لحاله ، ولم يشأ أن يجمع عليه الإخفاق والحرمان ، وقد هاجر إليه منتجعاً راجياً . وتذكر بعض الروايات أنه أجازه استجابة لرغبة الكسائى إليه[٦] . فإذا صح ذلك — وليس

---

(١) أضم كفرح : حاقد ، أو غضبان ، والفعل كفرح .

(٢) البرح : الشدة . (٣) راجع شذرات الذهب : ١ : ٢٥٤ ، ومغنى اللبيب وحاشية الأمير عليه : ١ : ٧٥ — ٧٦ . (٤) نزهة الألبا : ٧٩ .

(٥) راجع طبقات النحاة لابن قاضى شهبة : ٢٠٧ ، وطبقات الزبيدى: ٤٢ ، وفى الصفحة ٤٠ منها أن البرامكة أعطوه وأخذوا له من الرشيد .

(٦) راجع إنباه الرواة : ٢ : ٣٤٨ ، وبغية الوعاة : ٣٦٦، والفهرست: ٧٦ .



ثمة ما ينفى صحته — فمجاملة كريمة من عالم جليل لعالم جليل ، وهو أهل لها وحقيق أن يحمد بها

فقد نما الرجل إلى مستوى الموقف فى أنفه المعالى ؛ فصح فهمه له ، وحسن عمله فيه . كانت منافسة ، ثم انتهت ، فيجب أن ينتهى معها كل أثر لها ، وأن يعود الأمر بينهما إلى ما ينبغى أن يكون عليه من مودة ورحمة ، وطيب مجاملة ؛ فالعلم بين أهله رحم ماسة ، وواشجة موصولة ، لولا شوائب عابرة وغواش متقشعة ، أو هكذا يجب أن تكون .

وخرج سيبويه من بغداد مخذولا ، لم يبلغ أمله ، ولم ينزل المنزل الذى كان يطمح إليه ، ولكنه مع ذلك أبى أن يدع المحاولة ويستسلم لليأس ، فأرض الله واسعة ، وثقة الرجل بنفسه لا تزال راسخة ، وإخفاقه فى دار الخلافة لا يعنى أنه مقضى عليه بالإخفاق فى كل مكان . والله أرحم بالعامل الدءوب من أن يخذله فى كفاحه ، وبالساعى الطلوب من أن يصده عن غايته ، فليرحل إذاً إلى بلد آخر ، يكون أمره إلى أمير أريحى رشيد ، يحب العلم ويكبر العلماء .

قالوا : فسأل عمن يبذل من الملوك ويرغب فى النحو ، فقيل له طلحة ابن طاهر [١] ، فعزم على الخروج إليه فى خراسان ، وهنا يضطرب الرواة وتختلف رواياتهم ، فمن قائل : أنه مضى لوجهه ، ولا يقول إنه عرج على البصرة [٢] ،

---

(١) نزهة الألبا : ٨٩ وتاريخ بغداد : ١٢ : ١٩٨ ، وطلحة بن طاهر : أبوه طاهر بن الحسين بن مصعب بن رزيق بن ماهان ، وكان جده رزيق مولى طلحة الطلحات والى سجستان من قبل مسلم بن زياد بن أبيه والى خراسان . وكان طاهر أشهر قواد المأمون ، وقد ولاه المأمون خراسان ، وولى ابنه عبد الله من الرقة إلى مصر . ولما مات طاهر خلفه ابنه طلحة ، ولبث أميراً سبع سنين . ومات سنة ٢١٣ . وبقى ملك خراسان فى آل طاهر حتى سنة ٢٥٩ ودولتهم أول دول المشرق استقلالا وأحسنها علاقة ببغداد (راجع تاريخ الطبرى ٣ : ١٠٦٥ ، ١٠٩٩ ومحاضرات تاريخ الأمم الإسلامية : ٢١٧ ، ٢٢٦ — ٢٢٨) .

(٢) طبقات الزبيدى : ٤٤ ، ونزهة الألبا : ٨٩ ، وطبقات ابن قاضى شهبة : ٢٠٧ وفيها أن يحى بن خالد وجه به إلى فارس .



ومن قائل إنه عرج عليها، ثم خرج منها إلى خراسان[1] ، وقائل إنه دخل شاطىء البصرة ، ووجه فى طلب الأخفش ، فجاءه ، فقص عليه قصته مع الكسائى ، ثم ودعه ومضى إلى الأهواز . ولو صح أنه أدرك إمارة طلحة بن طاهر لاقتضى ذلك أن يكون الأجل قد امتد به إلى سنة ٢٠٦ ، ولم يقل بهذا أحد ، فقد مات طلحة سنة ٢١٣ ، ولبث أميراً سبع سنين[2] .

والمتوقع فى مثل هذه الحال أن يزور البصرة ؛ لأنها فى طريقه إلى وجهته ؛ وليعد عدة الرحلة الجديدة ، ويصلح من شأن أهله بفضل ما كسب من مال . وأيا ما يكن الواقع فى هذا المقام ، فالذى يذكرون عن هذه الرحلة أنها لم تتم ، نزل به الموت فى بعض الطريق ، فحال بينه وبين ما كان يريد .

فليت شعرى أمضى لطيته قاصداً حتى أقعده عنها المرض ثم الموت ، أم نزل ببعض البلاد فنزل به المرض على الطريق ؟ وفيم كان مقامه وأين كان ؟ وكم لبث فيه ؟ وماذا عمل له من عمل ؟ حقائق لا يعلمها إلا علام الغيوب .

وهكذا لم يكد سيبويه يأخذ على الطريق إلى خراسان حتى لفه الظلام ، واحتواه الغموض ، فإذا طور آخر من أطوار حياته المجهولة . وعزيز علينا أن نجهل من أمر هذه المرحلة ما نجهل ، فإنها المرحلة التى نضجت فيها شخصيته ، واتسعت شهرته . ولكنها الظروف السيئة تقضى قضاءها فيه كما قضته فى كثير .

وفاته :

كان من أثر غموض المدة الأخيرة من حياة سيبويه ـ أن اختلفت أخبار وفاته اختلافا كبيراً ، ربما لم تختلفه فى حادث آخر من أحداث حياته . على أن هناك لمعا من الحقائق يسيرة ، ترى منثورة هنا وهناك ، وقد يكون فى جمع شتاتها بصيص من نور يلتمع فى الساعات الأخيرة من حياة الرجل .

فقد حدثوا أن بعض عائديه دخل عليه فى مرضه فقال له : كيف تجدك

---

(١) إنباه الرواة : ٢ : ٣٤٨ .

(٢) انظر الحاشية (١) من الصفحة ١١٦



أبا بشر ؟ فقال : أجدنى ترحل العافية عنى بانتقال ، وأجد الداء يخامرنى بحلول ، غير أنى وجدت الراحة منذ البارحة . قال : فما تشتهى ؟ قال اشتهى أنى أشتهى . فلما كان من بعد ذلك اليوم دخل إليه وأخوه يبكى ، وقد قطرت دمعة على خده ، فقال لسيبويه كيف تجدك ؟ فقال :

يسر الفتى ما كان قدّم من تقى ... إذا عرف الداء الذى هو قاتله (١)

وحدثوا من طريق آخر : أنه لما اعتل وضع رأسه فى حجر أخيه ، فبكى أخوه لما به ، فقطرت من دمعه قطرة على وجه سيبويه ، فرفع رأسه إليه ، فرآه يبكى ، فقال :

أخيين كنا فرق الدهر بيننـــا ... إلى الأمد الأقصى ومن يأمن الدهرا (٢)

وحدثوا أنه تمثل عند الموت بقول القائل :

يؤمل دنيـــا لتبقى له ... فوافى المنية دون الأجـــل
حثيثاً يروّى أصـــول الفسيل ... فعاش الفسيل ومات الرجل (٣)

وهى أخبار تساير المعروف عن سيبويه من سعة الرواية ، وبراعة الاستشهاد ، وحصافة التعبير . وتدل مع ذلك على الرقة والحنان ، وعلى العظة والاعتبار .

ويقولون إنه مات هماً (٤) من إخفاقه فى مناظرة الكسائى ، وربما كان الذى طوع ذلك لهم أنه فى المشهور من أخباره لم يعمر بعد المناظرة طويلا ، على أنه لا يبعد أن يكون الهم علة وفاته ، فالهم لاشك داء خطير . وفتكه بالأحصاء معلوم . وقد أصاب سيبويه منه كثير ، فإخفاقه ببغداد بدد أمله هباء ، ورده عن طموحه رداً قاسيا . فليس ببعيد أن يورثه سقما يكون حتفه فيه .

ويقال إنه مات بالذرَب (٥) ، وهو المرض لا برء منه ، وفساد المعدة ، وفساد

---

(١) راجع إرشاد الأديب : ٦ : ٨٦ (٢) راجع طبقات الزبيدى : ٤٥
(٣) راجع تاريخ بغداد : ١٢ : ١٩٨ ، والفسيل : النخل الصغير ، الواحدة : فسيلة . (٤) طبقات ابن قاضى شبهة : ٢٠٧
(٥) معجم الأدباء : ١٦ : ١٢٢



الجرح واتساعه . وأيا ما تكن العلة التى مات بها - فقد رجع إلى ربه قبل أن يدرك أمله من الدنيا ، وكان حقيقا بعبقريته أن يناله على ما يريد ، لكن النحس صحبه فى رحلة خراسان ، كما صحبه فى رحلة بغداد ، أو هو قد صحبه فى بغداد ، وما زال به حتى قضى عليه فى الطريق إلى خراسان . كأنما ندبه الله ليخرج كتابه للناس إماما ، ويدعه فيهم للنحو قرآنا ، وكفى . أما الدنيا فليست له ، وليس لها ، وبحسبه ثواب الآخرة ولثواب الآخرة خير وأبقى .

أما مكان الوفاة فالرأى فيه مختلف كثيراً ، فقيل : مات فى ساوة [١] ، وقيل : فى البصرة [٢] ، وقيل : فى فارس [٣] ، وقيل : فى شيراز [٤] ، وقيل : فى البيضاء [٥] .

فأما ساوة والبصرة ، فقد ذكرهما صاحب تاريخ بغداد ، وقفى على أثره فيهما صاحبا وفيات الأعيان وبغية الوعاة ، والظاهر أنه توفى بالبيضاء ؛ لأنها - فيما نعلم - مسقط رأسه ، وقد أتيح له أن يراها ، وحنين الإنسان إلى وطنه طبيعة فيه . وقد يضاف إلى ذلك أنه توفى بين يدى أخيه على ما سبق . ويبدو أن هذا الخلاف العريض لا يرجع فى أكثره إلى الاختلاف فى مكان الوفاة ، بل إلى الاختلاف فى دقة التعبير عنه . وهذه أمثلة منه .

قال فى تهذيب اللغة : « ثم عاد إلى مسقط رأسه بالأهواز فمات ... [٦] » ،

---

(١) تاريخ بغداد : ١٢ : ١٩٨ . ووفيات الأعيان : ١٣٤ . وساوة : مدينة حسنة بين الرى وهمذان ، على ثلاثين فرسخاً من كلتيهما .

(٢) تاريخ بغداد : ١٢ : ١٩٩ ، ووفيات الأعيان : ٣ : ١٣٤ ، وبغية الوعاة : ٣٦٦ - ٣٦٧ .

(٣) أخبار النحويين البصريين : ٥٠ ، والفهرست : ٧٧ .

(٤) تاريخ بغداد : ١٢ : ١٩٩ ، ومراتب النحويين : ١٠٦ ، وإنباه الرواة : ٣ : ٣٥٣ ، ومعجم الأدباء : ١٦ : ١١٦ .

(٥) تهذيب اللغة : ٩ ، ووفيات الأعيان : ٣ : ١٣٤ .

(٦) التهذيب : ٩ .



وقال فى وفيات الأعيان : « وقصد بلاد فارس ، فتوفى بقرية من قرى شيراز يقال لها: البيضاء[1] » . وقال فى مراتب النحويين: «وقبره بشيراز قصبة فارس[2]» . وقال فى إنباه الرواة : « وقبره بشيراز قصبة فارس[3] » .

ففارس إقليم من بلاد الفرس ، وشيراز قصبته ، والبيضاء من قرى شيراز ، وعلى ثمانية فراسخ منها كما سبق ، والأهواز مدينة بخوزستان من أقاليم بلاد الفرس . هى إذا أقسام عمرانية متصلة ، علاقة بعضها ببعض علاقة الأشياء المتداخلة أو الأجزاء يجمعها كل واحد . والمظنون أن بعض الرواة كان يغنى فى روايته بالتعميم عن التخصيص ، وبالناحية أو الكورة عن المدينة أو القرية . والله سبحانه وتعالى أعلم .

قالوا : وقد كتب على قبر سيبويه قول سليمان بن يزيد العدوى :

ذهب الأحبة بعد طول تزاور	ونأى المزار فأسلموك وأقشعوا
تركوك أوحش ما تكون بقفرة	لم يؤنسوك وكربة لم يرفعوا
وقضى القضاء وصرت صاحب حفرة	عنك الأحبة أعرضوا وتصدعوا[4]

وسبق أن روينا للزمخشرى بيتين فى رثائه .

ويقول على أصغر حكمت : « أما أصح الأقوال فى مدفن سيبويه فهو شيراز ، وقد زرت قبره فى حى (سندسياه) ، عليه رخام .

وذكر مؤلف كتاب شد الإزار ، المتوفى سنة ٧٩١ هـ : أنه لم يتأكد من موضع قبره فى باهلية . ولكن ابنه عيسى بن جنيد تعرف (على) القبر ، وأشار إلى المحل الذى هو الآن معروف لدى عامة سكان شيراز . وكان على قبره (رخامة) وكانت (الرخامة) سابقاً ذات كتابة ونقوش ، وقد نحتت عليها أبيات من الشعر ، ولكن مرور الزمن محا تلك الخطوط ، وأصبحت (الرخامة) صافية لماعة .

(١) الوفيات : ٣ : ١٣٤ .
(٢) المراتب : الورقة : ١٠٦ . (٣) الإنباه ٢ : ٣٥٣ .
(٤) طبقات : الزبيدى : ٤٤ .



ويذكر عيسى بن جنيد عن سبب لمعان تلك (الرخامة) : أن المعروف عند عامة الناس فى شيراز - أن من طلاب العلم مَن إذا أراد أن يصل إلى درجة الكمال يأتى قبر سيبويه ، ويمسح صدوه على تلك (الرخامة) ، ليكتسب البركة من صاحب القبر .

وقد فشت هذه العادة بين الناس فى مدينة شيراز ، فيأتون بأطفالهم المصابين بمرض السعال الديكى ، ويمسحون رقابهم وصدورهم ، فذهبت الكتابة[1] .

وأما تاريخ وفاته فالآراء فيه أشد خلافا . فقيل : سنة ١٦١ ، وقيل : سنة ١٧٧ ، وقيل : سنة ١٨٠ وقيل : سنة ١٨٨ ، وقيل : سنة ١٩٤[2] : وتحرج بعضهم من تعيين هذا التاريخ ، فذكر أنه توفى فى أيام الرشيد ، قبل جماعة كان أخذ عنهم : منهم يونس بن حبيب . وكانت وفاة يونس سنة ١٨٣[3] .

فأما سنة ١٦١ فبعيد ؛ لأنه قدم بغداد فى خلافة الرشيد ، لم أر فى ذلك خلافا ولا مراء ، والرشيد إنما بويع بالخلافة سنة ١٧٠ ، ويرد بعض القدماء هذه الرواية رداً عنيفاً ، ويصفها بأنها غلط قبيح[4] ، ولكنه لا يعزز كلامه ببينة ، ولا يقيم له حجة . ومثلها سنة ١٩٤ ؛ لأنها تعنى أن بين خروجه من بغداد ووفاته فى فارس نحو عشرين عاما . وهو أمد طويل لا تحتمله مثل هذه الرحلة ، ولا يظن أن يعيشه هكذا مجهولا أو خاملا . وسنة ١٨٨ من هذه غير بعيد ، والرأى فيهما واحـــد ؛ لأنهما تنتجان نتيجة واحدة أو نتيجتين متشابهتين جداً .

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ، الجزء ٣٤ ، نوفمبر سنة ١٩٧٤ ، نقلا عن كتابه شد الإزار .

(٢) راجع : إنباه الرواة : ٢ : ٣٥٣ وبغيه الوعاة : ٣٦٦ - ٣٦٧ ، وتاريخ أبى الفداء : ٢ : ١٥ ، وتاريخ بغداد : ١٢ : ١٩٩ ، وشذرات الذهب : ١ : ٢٥٢ ، وطبقات الزبيدى : ٤٥ ، وطبقات ابن قاضى شهبة : ١١ ، والفهرست : ٧٧ ، ومعجم الأدباء : ١٦ ، ١١٥ - ١١٦ ، ووفيات الأعيان : ٣ ١٣٤ .

(٣) أخبار النحويين البصريين : ٤٨ ، ٥٠ .

(٤) تاريخ بغداد : ١٢ : ١٩٩ .



بقيت سنتا ١٧٧ ، ١٨٠ . والمدى بينهما قريب ، والخطب فيهما غير كبير . والأكثرون على أن سنة ١٨٠ هي تاريخ الوفاة . ورجحه فى نزهة الألبا ، وعلله بأنه مات قبل الكسائى ، والكسائى مات سنة ١٨٣ (١) ، وكلام المتوقفين فى تحديد الوفاة يظاهر ذلك ولا يخالفه .

سنه :

اضطربت أقوال الرواة فى جملة سنه كما اضطربت فى تاريخ حياته ، فقيل : نيف وثلاثون ، وقيل : نيف وأربعون (٢) والأخير أشبه بالصواب وأدنى إليه ؛ لأنه روى عن عيسى بن عمر . وقد مات عيسى سنة ١٤٩ ، ومات سيبويه فيما رجحنا سنة ١٨٠ ، فبين وفاة عيسى ووفاة سيبويه إحدى وثلاثون سنة . وما كان ليأخذ عنه حتى يستطيعه ، وما كان ليستطيعه حتى يجاوز سن الحداثة ، فإذا قدرناها بنحو خمسة عشر عاما بقى من حياته نحو خمسة عشر أخرى ، وهى كل ما أنفقه فى الطلب والتدريس والإنتاج والرحلة هنا وهناك (٣) .

شخصيته :

المرء شخص ونفس ، أوذات وصفات . وقد كان سيبويه فى شخصه إبان الحداثة غلاما له ذؤابتان ، وكان جميلا ، نظيفاً ، طيب الرائحة ، فى لسانه حبسة تعوق لسانه عن الانطلاق والاسترسال (٤) :

وكان فى نفسه وديعاً سمحاً ، حسن الظن بالناس ، عزوفا عن الصغائر ، مترفعا عن الغنم الرخيص . قال الأخفش سعيد بن مسعدة : كان سيبويه إذا وضع شيئاً من كتابه عرضه علي ، وهو يرى أنى أعلم منه ، وكان أعلم منى ، وأنا اليوم أعلم منه (٥) :

---

(١) نزهة الألبا : ٨١ .

(٢) راجع تهذيب اللغة : ٩ ، وطبقات الزبيدى : ٥٤ ، ووفيات الأعيان : ٣ : ١٣٤ والنجوم الزاهرة : ٢ : ١٠٠ .

(٣) راجع معجم الأدباء : ١٦ : ١١٥ - ١١٦ .

(٤) طبقات الزبيدى : ٣٨ - ٣٩ .

(٥) المصدر السابق : ٣٩ .



وأخذ عنه الأخفش وكان أكبر منه سنا . ولما برع جاءه يوما يناظره ، فقال إنما ناظرتك لأستفيد منك ، فقال سيبويه . أتراني أشك في هذا[١] ؟

وحدث أبو حاتم السجستاني: أنه سأل الأصمعي عن المناظرة التي جرت بينه وبين سيبويه، فقال : عرض على شيء من الأبيات التي وضعها سيبويه في كتابه ، ففسرتها على خلاف ما فسره ، فبلغ ذلك سيبويه ، فبلغني أنه قال . لا ناظرته إلا في المسجد الجامع ، فصليت يوما في الجامع ثم خرجت ،فتلقاني في المسجد فقال لي : اجلس يا أبا سعيد . ما الذي أنكرت من بيت كذا وبيت كذا ؟ ولم فسرت على خلاف ما يجب ؟ فقلت : ما فسرت إلا على ما يجب ، والذي فسرته أنت ووضعته خطأ . تسألني وأجيب ؟ ورفعت صوتي ، فسمع العامة فصاحتي ونظروا إلى لكنته . فقالوا : لقد غلب الأصمعي سيبويه ، فسرني ذلك ، فقال لي : إذا علمت أنت يا أصمعي ما نزل بك مني لم ألتفت إلى قول هؤلاء ، ونفض يده في وجهي ومضى . ثم قال الأصمعي : يا بني فو الله لقد نزل بي منه شيء ووددت أني لم أتكلم في شيء من العلم[٢] .

وكان مع ذلك طموحا ، شجاعا ، ماضي العزيمة ، متفائلا ، حليما . ومناظرة الكسائي شاهدة بذلك كله : فقد رأينا فيها كيف أنه حين آنس من نفسه القدرة والاكتمال ـ أخذ يحس أن البصرة تضيق به ، وتعجز عن الوفاء برغائبه ، فعزم على الخروج منها لا يملك إلا نفسه وهمته ، ومضى إلى بغداد حاضرة الدولة ، بل حاضرة البر والبحر، ليلقى هناك شيخها العتيد ، وينازله في داره وبين عصبته، بمسمع من الخليفة، وعلى أعين العلية وأصحاب السلطان، لا يهاب ولا يتردد، والكسائي يومئذ شريف المنزلة ، عزيز الجانب ، موفور الكرامة .

ورأينا كيف أنه ظل في بغداد على العهد به وديعاً رابط الجأش واسع الصدر، مع أن جو المناظرة كما سلف كان غريبا مشوبا ، يثير التوجس والاسترابة ، ويهيج السخط والغضب .

---

(١) أخبار النحويين البصريين : ٤٩ ، ونزهة الألبا : ٧٨ - ٧٩ .

(٢) معجم الأدباء : ١٦ : ١٢٥ .



ومع ذلك لقد اتهم بالوشاية إلى السلطان ، وما كان مثل سيبويه ليعدم حانقاً أو حسوداً ينتقصه ويرميه بما ليس فيه ؛ فقديماً قيل : كل ذى نعمة محسود . وقد أكرم الله سيبويه بالعلم النافع ، وأتم عليه النعمة فيه .

أما كيف كان ذلك فقد زعموا أن بشاراً كان يشار سيبويه ، وأنه حضر يوماً حلقة يونس ابن حبيب ، فقال : هل هنا من يرفع خبراً ؟ فقالوا : لا ، فأنشدهم :

بنى أميـــة هبوا من رقادكم ... إن الخليفة يعقوب بن داود
ليس الخليفة بالموجود فالتمسوا ... خليفة الله بين الناى والعود

وكان فى الحلقة سيبويه فوشى به .

وقد كفانا أبو العلاء المعرى مئونة الرد على هذه التهمة ، وهو من هو رزانة وحكمة ، قال : وسيبويه فيما أحسب كان أجل موضعاً من أن يدخل فى هذه الدنيات ، بل يعمد إلى أمور سنيات[١] .

من آراء القدماء فيه وأقوالهم عنه :

للقدماء فى سيبويه آراء حسنة ، وكلمات طيبة ، تجتمع كلها على الإعجاب به والثناء عليه ، وإن يكن بينها شىء من خلاف فى مبلغها من التحفظ والقصد .

قال فى تهذيب اللغة: وكان علامة حسن التصنيف[٢] . وقال فى تاريخ بغداد : كان سيبويه النحوى غاية الخلق فى النحو[٣] . وقال فى وفيات الأعيان : كان أعلم المتقدمين والمتأخرين بالنحو[٤] . وقال فى مراتب النحويين : وهو أعلم الناس بالنحو بعد الخليل[٥] . وقال فى روضات الجنات : إمام أئمة العراق ، وأستاذ العربية على سبيل الإطلاق ، مشتهراً أمره فى الآفاق[٦] ... وقال الزجاج : إذا

---

(١) راجع رسالة الغفران : ٢ : ٣٥ .
(٢) ص : ٩ .
(٣) حـ : ١٢ ، ص : ١٩٦ .
(٤) حـ : ٣ ، ص : ١٣٣ .
(٥) الورقة : ١٠٦ .
(٦) ص : ٥٠٢ .



تأملت الأمثلة من كتاب سيبويه فتبينت أنه أعلم الناس باللغة[١] .

على أن سيبويه لم يسلم من التنقص فى علمه ، كما لم يسلم منه فى شخصه . فقد حدث الزجاج قال : دخلت على ثعلب ، وكان عنده أبو موسى الحامض[٢] ، فعاب سيبويه باللكنة ، ثم قال :

بلغنى عن الفراء أنه قال : دخلت البصرة ، فلقيت يونس وأصحابه فسمعتهم يذكرون سيبويه بالحفظ والدراية وحسن الفطنة . فأتيته فإذا هو أعجم لا يفصح ، سمعته يقول لجارية له : هات ذيك الماء من ذاك الجرة ، فخرجت من عنده ولم أعد إليه . فقلت له : هذا لا يصح من الفراء ، وأنت غير مأمون فى هذه الحكاية ، ولا يعرف أصحاب سيبويه من هذا شيئاً . وكيف يقول فى أول كتابه : هذا باب علم ما الكلم من العربية ؟ وهذا يعجز عن إدراك فهمه كثير من الفصحاء ، فضلا عن النطق به .

فقال ثعلب : قد وجدت فى كتابه نحواً من هذا ، قلت ما هو ؟ قال : يقول فى كتابه فى غير نسخة : حاشا حرف يخفض ما بعده ، كما تخفض حتى وفيها معنى الاستثناء . فقلت له : هذا كذا فى كتابه ، وهو صحيح ، ذهب فى التذكير إلى الحرف ، وفى التأنيث إلى الكلمة[٣] .

ونلاحظ أن أصحاب هذه القصة كلهم من الكوفيين ، قصها الفراء ، ورواها الحامض ، وعزاها ثعلب . وهذا وحده حقيق أن يدعو إلى الاسترابة فيها ، وقلة الاطمئنان إليها ، ولا سيما إذا ذكرنا فضل سيبويه على العربية ومكانه بين أئمتها المقدمين . فكيف إذا ذكرنا مع ذلك أن الفراء والحامض كانا ينفسان على سيبويه ولا يقدرانه حق قدره ، وأن ثعلباً قد دل باحتجاجه لقصة الفراء على أنه ليس أقل من صاحبيه نفاسة على الرجل وقلة إنصاف له ؛ فما كان ثعلب

---

(١) طبقات الزبيدى : ٤٤ . والزجاج هو أبو اسحاق إبراهيم بن السرى ابن سهل ، من النحويين المعروفين بالفضل والدين . توفى سنة ٣٢١ .

(٢) هو سليمان بن محمد ، من نحاة الكوفة المشهورين . توفى سنة ٣٠٥ .

(٣) راجع معجم الأدباء : ١ : ١٣٧ .



فى سعة روايته وطول تمرسه بالعربية ـ ليخفى عليه علم ما يقول الزجاج لتخريج عبارة سيبويه عن (حاشا) لولا الهوى قاتله الله ؛ فإنه قد يغير صاحبه حتى يتجاهل ما علم ، ويتقول ما لم يعلم .

والعبارة التى عزى إلى سيبويه أنه قالها لجاريته بادية التكلف والصنعة ، لأنه يريد ماء بعينه من جرة بعينها ، وتعيين الجرة يغنى عن تعيين الماء ؛ لأنه حالّ فيها وهى محل له . فليس به حاجة إذاً إلى أن يشير إليه ، فيقول : هات هذا الماء من هذه الجرة ، وإنما الوجه أن يقول : هات الماء من هذه الجرة . لكنه الهوى مرة أخرى، قاتله الله .

والقصة بعد إن تكن تحمل ذماً مصنوعاً ـ فقد حملت حمداً مطبوعاً جرى به لسان الفراء من حيث لا يدرى فيما نسبوا إليه ، إذ هو يحدث عن سبب زيارته فى بيته فيقول : دخلت البصرة فلقيت يونس وأصحابه ، فسمعتهم يذكرون سيبويه بالحفظ والدراية وحسن الفطنة ، فإن يكن أحد مستحلا غيبة أحد فالذين معه من أهل صنعته ؛ لأنهم مظنة المنافسة وقلة الإنصاف ، فإذا هم مدحوه وكان مدحهم له بالغيب فالمدح لا مجاملة فيه ولا محاباة .

ولو أن الفراء جاء بسبب آخر لهذه الزيارة غير الثناء عليه ، وقلة الصبر على انتظاره حتى يخرج إلى المسجد لكان أدنى إلى الإلف ، وأشبه به ، فقد كان المسجد مدرسة القوم وناديهم ومتعبدهم ، لا يكادون يغيبون عنه إلا لماما لضرورة قاهرة لا قبل لهم بها .

وقصة أخرى: أن بعضهم فيما يقول عن نفسه ـ سهر ليلة يدرس، ثم نام فرأى جماعة من الجن يتذاكرون الفقه والحديث والحساب والنحو والشعر ، فقال لهم : أفيكم علماء ؟ قالوا : نعم . قال : همى فى النحو ، فإلى من تميلون من النحويين ؟ قالوا : إلى سيبويه . ويسمع الحامض القصة فيقول : إنما مالوا إليه، لأن سيبويه من الجن[1] .

---

(١) راجع نزهة الألبا : ٧٧ .



فكأن الحامض يريد بكلمته هذه أن يلتمس وجهاً يفسر به براعة سيبويه في النحو ، فجعله من الجن ، وإذا لا فضل له فيها ولا فخر له بها ، فإنما تكونه المفاضلة والترجيح بين النظراء والأشباه ، وأين الإنسان من الجن ؟ وما علاقة ما بينهما ؟ هؤلاء خلق وأولئك خلق آخر .

فإن يكن ذلك ما يريد حقاً فسذاجة وغفلة ؛ لأنه لا يكفي لتغيير خلق الله أن نقول بألسنتنا أو نتمنى بقلوبنا . وإذا سيظل سيبويه بعد كلمة الحامض كما كان قبلها خلقا من الإنس ، ويزيد أن صاحبه أراد أن يعيبه أو أن يقلل من فضله ، ويهون من شأنه ، فأسرف في مدحه ، وغلا في إعظام فضله ، حتى جعله شخصية خرافية ، تعزى إليها الأعاجيب ، وتؤلف عنها الأساطير ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ، ولو كره الكارهون ، وأن يظهر آياته ، وإن حالت دونها الحجب والأستار .

ويرحم الله مروان بن أبي حفصة إذ يقول :

هل تطمسون من السماء نجومها ... بأكفكم أو تحجبون هلالها ؟



هو هذا السفر العظيم، الذى أقامه العالم الجليل فى ساحة الخلود أثراً ، وأرسله مع الأيام ذكراً ، وادخره للعربية كنزاً ، وندبه فى العالمين شاهداً على براعته فيها، ونفاذه إلى أسرارها ، وإمامته فى الاشتراع لها ، وضبط أصولها ، على نحو يعز نظيره فى الأولين والآخرين : شمول إحاطة ، وبراعة أستاذية ، وسلامة تحليل ، وصدق نظر ، وصحة حكم .

اسمه :

الراجح أن سيبويه لم يضع لكتابه اسماً ، ولو قد فعل لذكر به فى الماضين، ومضى معه عبر الزمن إلى الخالفين ، ولاندرى لذلك سبباً ولا حكمة ، فقد كانت تسمية الكتب أمراً متعالماً لجيله والجيل الذى سبقه ، فهذا الأخفش سعيد بن مسعدة يسمى الاشتقاق، والمقاييس، والخليل بن أحمد يسمى العين ، والشواهد، وعيسى بن عمر يسمى الإيضاح، والإكمال[1] .

ويخيل إلى أن سيبويه كان على نية العود إلى الكتاب ، لأن لديه منه بقية ، ولايزال فى نفسه منه شىء ، فأرجأ تسميته ، لم يشأ أن يضعها له حتى يفرغ منه ، ويبلغ به غاية مايريد . ويؤيد ذلك أنه لم يقرأه على أحد ولم يقرأه عليه أحد[2] ، وأن يونس وهو من شيوخه لم يعلم نبأ الكتاب إلاعرضاً وبعد وفاته، إذ قيل له : إن سيبويه صنف كتابا فى ألف ورقة من علم الخليل ، فقال : ومتى

---

(١) راجع بغية الوعاة : ٢٥٨ ، ٢٤٥ ، ٢٧

(٢) التهذيب : ٩ ، ونزهة الألبا : ١٨٤

سمع سيبويه هذا كله من الخليل ؟ جيئونى بكتابه، فلما رآه قال : يجب أن يكون صدق فيما حكاه عن الخليل كما صدق فيما حكاه عنى[١] .

وألق بالك إلى تقدير حجم الكتاب بالورقات لا بالمجلدات ، فإنها تلقى فى الروع أن سيبويه تركه جزازات منفصلة ؛ لأنه يبعد أن يجتمع مثل هذا السفر الضخم فى مجلد واحد ، وفى مثل عصره خاصة ، وإذا كان فى مجلدات فالمعتاد أن يقدر حجمه بعددها هى لا بعدد أوراقه ، فذلك أيسر ، وهو على يسره كاف فى تصوير ضخامته[٢] .

ثم إن الكتاب ليس له مقدمة ولا خاتمة ، أوّله : « هذا باب علم ما الكلم من العربية » . وآخره : ومثل هذا قول بعضهم : « عَلْماءِ بنو فلان » فحذف اللام ، يريدون على الماء بنو فلان . وهى عربية » .

على أن العلماء قد سموه عنه ، فدعوه بالكتاب وأمسكوا ، لا يصفونه بصفة ، ولا يخصصونه بإضافة . ورضى الناس منهم هذه التسمية ووافقوا عليها ، لا ينكرها منكر ، ولا يعترض عليها معترض . فكان يقال بالبصرة : قرأ فلان الكتاب ، فيُعلم أنه كتاب سيبويه ، وقرأ نصف الكتاب فلا يشك أنه كتاب سيبويه[٣] ، كأن كتاب سيبويه فى النحو كان هو وحده الحقيق فى رأيهم أن يسمى بالكتاب ، أما غيره فلا ينبغى أن يسمى به ، إلا على ضرب من التجوز أو المجاملة .

فمثل هذه التسمية لا تشيع فى الناس على هذا النحو ، ولا تلاقى منهم كل هذه الموافقة إلا إذا رأوها تحسن الدلالة على مسماها ، وتصدق التعبير عن رأيهم فيه . ونظيرها فى القديم تسمية عمر بن الخطاب بالفاروق ، وطاهر بن الحسين

---

(١) بغية الوعاة : ٣٦٦

(٢) كان المجلد عند القدماء عشر ورقات (وفيات الأعيان : ٥ : ٢٣١) .

(٣) راجع أخبار النحويين البصريين : ٥٠



بذى العينين . ونظيرها فى الحديث : تسمية بيت سعد ببيت الأمة ، وأحمد شوقى بأمير الشعراء .

وكأن الله تعالى فى عدله وحكمته صرف سيبويه عن تسمية كتابه ، وندب العلماء لتسميته عنه ، لتكون شهادة فضل يؤديها له الحاسد الشانىء ، كما يؤديها له الولى الحميم على سواء ، ويكون له منها بعد مماته عزاء عن الهزيمة التى هزمها ببغداد فى حياته ، ويكون للناس فيها أسوة حسنة لمن كان يعمل ويحسن عمله ، ثم لا يلقى من الناس جزاءه المأمول .

تاريخه :

لا نعرف متى بدأ سيبويه يصنف كتابه، ولا متى فرغ منه لا جملة ولا تفصيلا، على أنى وجدت فى الكتاب جملة عابرة يمكن أن تكون إشارة ما إلى جملة الوقت الذى كان يصنفه فيه . وذلك فى باب عنوانه (باب يحمل فيه الاسم على اسم بنى عليه الفعل مرة ، ويحمل مرة أخرى على اسم مبنى على الفعل) ، حيث يقول : ومثله « قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم » إنما هو كفى الله ، ولكنك لما أدخلت الباء عملت ، والموضع موضع نصب ، والمعنى معنى النصب . وهذا قول الخليل رحمه الله[1] .

وما رأيت سيبويه يدعو لشيخه بالرحمة إلا فى هذا الموضع ، ولا رأيته يذكره فى هذا الباب إلا فى هذا الموضع أيضا . وقد رجعت لتحقيق ذلك إلى نسخة خطية فى دار الكتب برقم ١٤٠ ، رواية أبى عبدالله محمد بن يحيى الرباحى[2] ، فوجدت عبارة النصين واحدة ، ورجعت كذلك إلى الجزء الأول من نسخة أخرى خطية برقم ١٣٩ ، وروايته غير معروفة ، فوجدت عبارة النص فيه خالية من جملة (رحمه الله) .

---

(١) الكتاب : ١ : ٤٨

(٢) أصله من جيان ، وغلب عليه علم العربية ، مات سنة ٣٥٣ (بغية الوعاة : ١١٣) .



فإذا كان النص الذى نقلنا آنفا هو ماخطه سيبويه فى الكتاب ، ولم تكن الجملة الدعائية دخيلة فيه — صح لنا أن نقول: إنه رحمه الله صنف بعض الكتاب فى حياة الخليل وصنف البعض الآخر بعد موته . وقد كانت وفاة الخليل سنة ١٦٠ ، وكانت سن سيبويه حينئذ لا تبعد من الثلاثين .

ولو أن سيبويه التزم أن يدعو للخليل بالرحمة كلما ذكر اسمه فى الأبواب التى كتبها بعد وفاته — لصح لنا أن نقول : إنه صنفه كله فى حياته إلا الباب الذى نقلنا منه النص آنفا ، وأن نقول : إنه لم يجر فى ترتيب تصنيفه على ترتيب أبوابه فقد ذكر اسمه فى باب قبل هذا عنوانه : (باب مايعمل عمل الفعل ولم يجر مجرى الفعل ولم يتمكن تمكنه ، ولكن لم يتبعه جملة (رحمه الله)[1] .

والمعروف أن سيبويه رحمه الله توفى قبل أن يقرأ الكتاب على أحد ، أو يقرأه عليه أحد ، وإنما قرأه الناس من بعده على أبى الحسن الأخفش[2] ، فقد ورث رحمه الله علم سيبويه ، وكان طريق الناس إليه ، كما ورث سيبويه علم الخليل وكان طريق الناس إليه ، وإن كانت الطريقان لتختلفان غير قليل : لقد كان سيبويه الطريق الواضح القاصد ، أما الأخفش فلم يكن كذلك فيما يقولون .

قال فى نزهة الألبا : « ويقال إن أبا الحسن الأخفش لما رأى أن كتاب سيبويه لانظير له فى حسنه وصحته ، وأنه جامع لأصول النحو وفروعه — استحسنه كل الاستحسان ، فيقال: إن أبا عمر الجرمى وأبا عثمان المازنى — وكانا رفيقين — توهما أن أبا الحسن الأخفش قد هم أن يدعى الكتاب لنفسه ، فقال أحدهما للآخر : كيف السبيل إلى إظهار الكتاب ومنع الأخفش من ادعائه ؟ فقال له : أن نقرأه عليه ، فإذا قرأناه عليه أظهرناه وأشعنا أنه لسيبويه ، فلا يمكنه أن يدعيه .

---

(١) الكتاب : ١ : ٣٧

(٢) راجع أخبار النحويين البصريين : ٥٠



وكان أبو عمر الجرمى موسراً وأبو عثمان المازنى معسراً ، فأرغب أبو عمر الجرمى أبا الحسن الأخفش ، وبذل له شيئاً من المال، على أن يقرئه وأبا عثمان المازنى الكتاب، فأجاب إلى ذلك ، وشرعا فى القراءة عليه ، وأخذا الكتاب عنه ، وأظهرا أنه لسيبويه ، وأشاعا ذلك ، فلم يمكنا أبا الحسن أن يدعى الكتاب ، فكانا السبب فى إظهار أنه لسيبويه ، ولم يسند كتاب سيبويه إليه إلا بطريق الأخفش ، فإن كل الطرق مستند فيها إليه[1] » .

وكذلك قرأه الكسائى والسجستانى[2] على الأخفش ، وقرأه الرياشى[3] والدينورى[4] على المازنى ، وقرأه التوزى[5] على الجرمى ، وبدأه المبرد عليه وأتمه على المازنى . ومضى الناس على هذا النحو ، يأخذونه خلفاً عن سلف ، وينقله أهل قطر عن أهل قطر ، جيلا فى إثر جيل ، وعصراً بعد عصر ، حتى ملأ الدنيا وشغل الناس ، كما قال ابن رشيق عن المتنبي .

فروع شتى لا تكاد تحصى كثرة وتشعباً ، لكنها تتضام رويدا رويدا ويلتق بعضها ببعض كلما علوت بها صعدا ، حتى تنتهى كلها إلى الأخفش فسيبويه فالأخفش هو الطريق الوحيد إليه، والباب الذى لا باب له سواه ، وهذا مثلا ماجاء فى أول النسخة الخطية المحفوظة فى دار الكتب برقم ١٤٠ عن نسبتها إلى سيبويه :

---

(١) نزهة الألبا : ١٨٥ - ١٨٦ .

(٢) أخبار النحويين البصريين : ٥١ ، ونزهة الألبا : ٢٥١ ، والسجستانى: هو أبو حاتم سهل بن محمد ، كان عالماً ثقة . توفى سنة ٢٥٠ ، أو سنة ٢٥٥ .

(٣) نزهة الألبا : ٢٦٢ ، والرياشى : هو أبو الفضل عباس بن الفرج من كبار أهل اللغة المكثرين من رواية الشعر ، توفى سنة ٢٥٧ .

(٤) بغية الوعاة : ١٣٠ ، والدينورى : هو أبو على أحمد بن جعفر ، أحد النحاة المبرزين : توفى سنة ٢٨٩ .

(٥) المصدر السابق : ٢٩ ، والتوزى : هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن هارون من أكابر أئمة اللغة توفى سنة ٢٣٣ .



« قال أبو عبد الله محمد بن يحي : قرأت على ابن ولاد وهو ينظر فى كتاب أبيه ، وسمعته يقرأ على أبى جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن النحاس ، وأخذه أبو القاسم بن ولاد عن أبيه عن المبرد ، وأخذه أبو جعفر عن الزجاج عن المبرد ، ورواه المبرد عن المازنى عن الأخفش عن سيبويه » .

وقد عرفته المطبعة العربية فى مصر وغير مصر منذ أمد طويل ، فطبع فى باريس سنة ١٨٨١ — ١٨٨٩ ، ومن هذه الطبعة نسخة فى دار الكتب رقمها : ٤٠ ش وطبع فى المطبعة الكبرى الأميرية سنة ١٣١٧ — ١٣١٨ .

هل اعانه احد عليه ؟

كتاب سيبويه — فيما نعلم — أعظم كتب النحو قدرا وأشملها إحاطة، وقد صنفه صاحبه شاباً ، وفى صدر الحياة الفكرية فى الإسلام . فربما سأل سائل — وما أراه فى ذلك متجنياً ولا ملوماً — أترى سيبويه هو صاحب فكرة الكتاب والمتفرد بتصنيفه ، أم تراه هو صاحب فكرته ، ولكن أعانه على تصنيفه قوم آخرون .

ويظهر أن هذا السؤال كان يحوك فى صدر بعض القدماء أيضاً ، ومنهم ثعلب رحمه الله ، أو عسى ألا يكون منهم ، ولكنه قدر أن هذا السؤال سيحوك فى صدر غيره ويعنّيه ، فلم يفته أن يجيب عنه ويريح منه قال فى الفهرست : « قرأت بخط أبى العباس ثعلب : اجتمع على صنعة كتاب سيبويه اثنان وأربعون إنساناً منهم سيبويه ، والأصول والمسائل للخليل[1] » .

ونلاحظ أن صاحب هذا الخبر هو ثعلب ، يرده الرواة إليه ولا نعرفه لغيره[2]

---

(١) الفهرست : ٧٦ .

(٢) راجع المصدر السابق وإنباه الرواة : ٢ : ٣٤٧ ، وتاريخ ابن كثير : ١٠ : ٥٠٣ .



وهو من نحاة الكوفة . ونلاحظ كذلك أننا إذا أخرجنا سيبويه من عدة أعضاء هذه الشركة بقى منهم أحد وأربعون ، ورقم الأربعين من الأرقام التى تشيع قديماً وحديثاً فى الخرافات ذات الأعداد ثم من هم هؤلاء الأربعون أو الأحد والأربعون ؟ أما يعرفهم ثعلب أو يعرف بعضهم ؟ وماله لا يذكر أسماءهم أو أسماء من يعرف منهم ، فتتضح الحقيقة ، ويكون الناس على بينة من الأمر ؟

وماذا كانت علاقة هؤلاء السادة بسيبويه ؟ أكانوا شركاء من أنداده ؟ أم أعواناً من تلاميذه ؟ أم كانوا نساخاً يكتبون مايأمرون ؟ فإن كانوا من أنداده فكيف رضوا أن يستأثر سيبويه بالكتاب ، يدعيه خالصاً له ، ثم لا يذكرهم فيه بكلمة أو يعترف لهم فيه بعمل ؟ وكيف سكت معاصروه وخلفاؤه فى الكتاب عن هذا الغصب ، لا يبدئون ولا يعيدون ، حتى جاء ثعلب ، فعنى به وكشف عن وجه الحق فيه ؟

وإن كانوا من تلاميذه فالمعروف أن تلاميذه كانوا أربعة أو خمسة ، وقد سبق الحديث عنهم . وإن كانوا نساخا بين يديه فكيف يقال: إنهم اجتمعوا معه على تصنيف الكتاب ، وإنه مازاد على أن كان واحدا منهم ؛ وأحسب أن لو قيل مثل هذا عن تلاميذه — إذا صح أنهم أعانوه — لكان تزيدا فى الوصف وشططاً فى الحكم ، ولتوقع الناس منهم إذا علموا به أن ينكروه ويبرءوا إلى الله منه .

على أن ثعلباً — غفر الله له — لم يكتف بكل أولئك فى الحديث عن نصيب سيبويه من الكتاب ، فأضاف أن « الأصول والمسائل للخليل » . وإذا لقد كان سيبويه واحدا من اثنين وأربعين تشاركوا فى الكتاب ، فجمعوا أصوله ومسائله من أقوال الخليل ، ثم صنفوها أبواباً ، وسووا الأبواب كتاباً ولا مزيد . وقد سبق أن سيبويه روى للخليل ولغيره ، وأن نصيب الخليل من الرواية كان أكبر من كل نصيب لسواه . وسيأتى أن سيبويه لم يكن فيه زاوية جماعا لا غير . فمن الإسراف والتجنى إذا أن يقال : إن أصول الكتاب ومسائله للخليل ، ولا يقال :

إن لغيره كان مجالا فيه ، ثم يقال كذلك : إن عمل سيبويه فيه كان عمل المتأخر جزء من اثنين وأربعين جزءاً .

فأنت من حيث نظرت إلى هذه القصة لا ترى إلا شكا وغمطا . وما أراك ملوماً ولا متحيزا إذا عددتها مثلا من أمثلة المنافسة والعصبية فى الصناعة ، فليس لنحوى قديم ولا حديث كتاب يجارى كتاب سيبويه أو يدانيه . والبصريون والكوفيون فى هذا سواء ، شهد بذلك الأقدمون ، وأيدتها مزايا الكتاب ، ولا نجد نحن لردها أو تفنيدها سببا . ولئن يكن ثمة فرق بين البصريين والكوفيين فى هذا المقام — فللبصريين بالكتاب فخر واعتزاز ، أنه كتاب إمامهم سيبويه .

وقصة أخرى عن تصنيف الكتاب يرويها إنباه الرواة ، فيقول : « وقد قيل إنه أخذ كتاب عيسى بن عمر المسمى بالجامع ، وبسطه ، وحشّى عليه من كلام الخليل وغيره ، وإنه كان كتابه الذى اشتغل به ، فلما استكمل بالبحث والتحشية نسب إليه . ويستدل القائل بهذه المقالة بما نقل أن سيبويه لما فارق عيسى بن عمر ولازم الخليل — سأله الخليل عن مصنفات عيسى بن عمر ، فقال سيبويه : قد صنف نيفا وسبعين مصنفا فى النحو ، وأن بعض أهل اليسار جمعها وأتت عليها عنده آفة ، فذهبت ولم يبق منها فى الوجود سوى تصنيفين : أحدهما اسمه الكامل وهو بأرض فارس عند فلان ، والجامع ، وهو هذا الكتاب الذى أشتغل فيه عليك وأسألك عن غوامضه ، فأطرق الخليل ساعة ، ثم رفع رأسه وقال : رحم الله عيسى ، ثم أنشد ارتجالا :

ذهب النحو جميعاً كله	غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك إكمال وهذا جامع	فهما للناس شمس وقمر

فأشار إلى الإكمال بالإشارة إلى الغائب فى قوله ذاك ، وأشار إلى الجامع بالإشارة إلى الحاضر بقوله هذا »[1] .

---

(١) إنباه الرواة : ٢ : ٣٤٧ .



ويظهر أن صاحب هذه القصة لم يقرأ الكتاب ، أو أنه قرأه قراءة غير واعية ، فهو يذكر أن الكتاب فى جملته هو كتاب الجامع لعيسى بن عمر ، وليس لسيبويه فيه إلا بسطه وإضافة الحواشى إليه من كلام العلماء . ولو كان ذلك كذلك للزمه واحدة من اثنين : أن يغفل سيبويه ذكر عيسى جملة لا ينقل عنه كما ينقل عن الآخرين ، أو أن يذكره معهم فيذهب من دونهم بأوفر نصيب من النقل ، لكن الواقع فى الكتاب غير هذا وذاك .

ولا محل للقول بأن سيبويه يمكن أن يكون تعمد الانحراف عن كلا الاحتمالين بالتغيير والتبديل ، فهو قول لا حجة له ، ولا يتفق مع خطة سيبويه فى الكتاب ، كما سيأتى . ثم إن القصة تذكر أن سيبويه اعترف للخليل بأن الذى يدرسه عليه ويسأله عن غوامضه هو كتاب الجامع ، فما جدواه من طمس الحقيقة أو التغيير فيها والتبديل ؟

وتدل القصة بعد ذلك على أن الخليل لم يكن يعلم شيئا عن مصنفات عيسى ابن عمر ، ثم لم يمنعه ذلك أن يثنى على كتابيه : الإكمال والجامع ، وأن يصف فضلهما على الناس . ومعاذ الله أن يكون الخليل كما تخيل القصة سهواً أو غفلة — رجلا ثرثاراً يتكلم بغير حساب ، لا يمنعه مانع من وقار العلم أو حصافة الرأى أو تحرج النصفة — أن يقول للناس ما لا يعلم . على أن الخليل أخذ عن عيسى[1] كما أخذ عنه سيبويه ، فلماذا يعرف سيبويه كتب عيسى ولا يعرف الخليل عنها شيئا ألبتة .

والافتنان النحوى بعد هذا وذاك باد فى القصة ؛ لاحجاب دونه ولا مواربة فيه ، يعزو إلى الخليل مالم يرد ، ويحمل بيتيه مالا يحملان ، إذ يزعم أنه أشار إلى الإكمال بذاك لأنه كان غائبا فى فارس ، وأشار إلى الجامع بهذا لأنه كان حاضراً بين يديه ، وإذ يجعل من البيتين فهرسا وسجلا يعلم الناس منهما أين مكانه

---

(١) أخبار النحويين البصريين : ٣١ .



كل من الكتابين ، وأبهما أغار عليه سيبويه فاتخذه مادة لكتابه وأصلا .

أما بكرة الزمن فليس لها حد معلوم ، والرأى فيها غير متفق ، فما يراه هذا باكراً قد يراه آخر فى إبانه . ثم إن الزمن ليس هو العامل الفرد فى التطور والانتقال من حال إلى حال ، فهناك البيئة الخاصة والأسباب المهيئة والظروف الملابسة ، ولكل فى هذا الميدان عمل لا مراء فيه . فرب زمن قليل الأثر فى جانب ، لكنه كثير فى جانب آخر . ولقد كان النحو أسبق العلوم الإسلامية درسا ، وكان الحافز عليه دينيا وقوميا ، فمضى عليه منذ بدء القول فيه إلى حين وضع الكتاب أكثر من قرن . ، نعم ، فعندى[1] أن واضع النحو هو أبو الأسود الدؤلى ، والموجه إليه هو الإمام على رضى الله عنه . وليس المقام لتفصيل ذلك وبسط الاحتجاج له .

وحسبنا أن نقول هنا : إن الأكثرين على ذلك ، وأن يقول صاحب الفهرست : « رأيت فى إحدى الخزائن بمدينة الحديثة[2] ما يدل على أن النحو عن أبى الأسود ما هذه حكايته ، وهى أربع أوراق أحسبها من ورق الصين ، ترجمتها : هذه فيها كلام فى الفاعل والمفعول من أبى الأسود رحمة الله عليه بخط يحى بن يعمر ، وتحت هذا الخط بخط عتيق : هذا خط علان النحوى ، وتحته : هذا خط النضر بن شميل[3] » .

فهذه شهادة عيان من رجل نثق به ، ونعتمد عليه فى معرفة الكثير عن تراثنا

---

(١) يرى الأستاذ إبراهيم مصطفى أن واضع النحو هو عبد الله بن أبى إسحاق ، ويؤيد رأيه ذلك ببعض الملاحظات والاستنباطات . وقد نشره فى مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد : الجزء الثانى من المجلد العاشر ، ورد عليه الأستاذ عبد الوهاب حمودة بمقال نشره فى هذه المجلة : الجزء الأول من المجلد الثالث عشر ، وختم رده بمقارنة طريفة ، نقل فيها فقرات من ضحى الإسلام ، وأخرى من بحث الأستاذ إبراهيم مصطفى ، وخلص منها بأن الأستاذ إبراهيم وهو يعالج بحثه كان ينظر فى ضحى الإسلام دون أن يذكر ذلك أو يشير إليه . والمؤلف فى هذه العجلة العارضة يؤكد رد الأستاذ حمودة بما يضيف إليه ويشترك معه فيه من حجج وبينات .

(٢) اسم لعدة مواضع : حديثة الموصل ، وحديثة الفرات ، وغوطة دمشق .

(٣) الفهرست : ٦١



الفكرى فى القرون الأولى ، وتظاهرها مع ذلك الأنباء المستفيضة والروايات المتعددة المصادر والطرق. وليس باليسير ولا الهين أن نردها ونعرض عن الأخذ بها لمجرد التظنن والتشكيك ، هياما بالمخالفة واستطراف الآراء .

وما كان النحو — فيما أعتقد — ليبلغ مبلغه من النمو والاستواء لعهد سيبويه وشيوخه لو أن مرجعه كان إلى غير أبى الأسود . ولا أدرى كيف يصح ذلك أن يكون مع أن النحو كان شيئا يدرس ويتذاكره الناس فى حياة أبى الأسود ، أو فى زمن منها قريب .

فهذا سعد بن شداد المعروف بسعد الرابية ، لقد كان يعلم النحو ، أخذه عن أبى الأسود ، وكان مقربا عند زياد وابنه عبيد الله ، وله معهما طرائف ومفاكهات قالوا : وإنما سمى سعدا الرابية بالموضع الذى كان يعلم فيه النحو[1] . وهذا عامر الشعبى[2] ، لقد مر بقوم من الموالى يتذاكرون النحو ، فقال لهم لئن أصلحتموه لأنتم أول من أفسده[3] . وهذا عيسى بن عمر ، لقد أخذ النحو عن عبد الله ابن أبى إسحاق ، وله فيه الإكمال والجامع وغيرهما . واسم الإكمال كما لا يخفى — يوحى بتدارك فائت وإتمام ناقص ، واسم الجامع يوحى بضم أشتات واستيعاب شوارد .

فإذا كان عبد الله هو واضع النحو فكيف استقام لعيسى وهو تلميذه — أن يبلغ فى النحو أو يبلغ به هذا المبلغ الذى يدل عليه اسما كتابيه فيه ؟ وأى القولين أشبه بمقتضيات التطور وأدنى إلى طبيعة الأشياء : القول بأن النحو بدىء بأبى الأسود ، أم القول بأنه بدىء بابن أبى إسحاق ؟ .

ثم ماذا عسى أن يكون نحو أبى الأسود الذى يستكثره المستكثرون وينكره

---

(١) بغية الوعاة : ٢٥٣

(٢) نسبة إلى شعب بالفتح : بطن من همدان كان من كبار الحفاظ . ولد سنة ١٩ ، وتوفى سنة ١٠٣

(٣) العقد الفريد : ٢ : ٤٧٨



المنكرون ؟ إنه فيما أرى وفيما يبدو أنه المعقول — مجرد نظرات فى اللغة قريبة ، وملاحظات على الأساليب يسيرة ، يهدى إليها الطبع ، ويقضى فيها الذوق ، أو هو بعبارة أخرى تعبير ساذج مقتضب عن ومسائل غضة من قانون الحس اللغوى الذى تخضع له العرب إذا تكلمت ، وتفهم به المراد إذا سمعت ، وليس يتعاظم الكثير منها ترجمته إذا توجهوا إليه ، وتعلقت إرادتهم به ، كما يعبرون عن التجارب المستنبطة والخواطر الحائمة .

وما أرى أن أبا الأسود فيما فعل للنحو قد أتى بما لا يستطيع أنداده أن يأتوا به ، لو أنهم قصدوا إليه وتجردوا له مثله . ولهذا رأينا النحو ينمو فى غير توقف، ويمضى فى غير وناء ، حتى ليبدو فى أطواره الأولى أسبق من عصره وفى سن أكبر من سنه .

وقد تكون هذه المساجلة اليسيرة بين أبى الأسود وبنى قشير مثلا من نحو أبى الأسود ، وآية على المشاركة فيه والقدرة عليه عند الحاجة : لقد كان بنو قشير أخوال أبى الأسود وأصهاره ، وكان ينزل فيهم بالبصرة ، لكنه كان على خلاف معهم فى بعض الرأى ، فكانوا هم عثمانيـــة وكان هو متشيعا ، فكانوا لذلك ينكرون عليه ، وكان يرد عليهم فيقول :

يقول الأرذلون بنو قشير	طوال الدهر لا تنسى عليا
فقلت لهم : وكيف يكون تركى	من الأعمال ما يجدى عليّا ؟
أحب محمـــداً حبا شديداً	وعباسا وحمـــزة والوصيا
وجعفر إن جعفر خير سبط	شهيداً فى الجنان مهاجريا
بنـــو عم النبى وأقربوه	أحب النـــاس كلهم إليا
فإن يك حبهم رشداً أصبه	ولست بمخطىء إن كان غيا

فقالت له بنو قشير : شككت يا أبا الأسود فى قولك . فإن يك حبهم . فقال



أما سمعتم قول الله تعالى : وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين[١] ؟ فانظر إليهم كيف لحظوا معنى الشك فى البيت الأخير ، وانظر إليه كيف رد عليهم بالآية ، يريد أنه إن كان شك فى كلامه فهل فى الآية معنى الشك أيضاً ، وبين الأسلوبين من المشابهه ما بينهما ؟

ومهما يكن الواقع فإن عمل أبى الأسود فى النحو لم يبلغ ألبتة مبلغ الرأى المتميز أو الضابط المستوعب، لذلك لم يرو له سيبويه ، وهو حقيق ألا يفعل ، فلم يكن نحو أبى الأسود بسبيل منه ، ولم يكن بسيبويه حاجة إليه ، شب عنه الكتاب . وغنى عنه بنحو الآخرين ممن ليسوا منه ببعيد .

فكيف يقال إذا : إن النحو من وضع ابن أبى إسحاق ، لأنه أقدم من روى له سيبويه ، وليس من وضع أبى الأسود لأنه لم يرو له ؟ أم كيف يصح أن يقال ذلك ولا يقال : إن النحو من وضع أبى الأسود لا من وضع ابن أبى إسحاق، لأن بين سيبويه وأبى الأسود أكثر من ستين عاماً ، وبينه وبين ابن أبى إسحاق نحو عشرين عاماً[٢] لا غير ، وهو فى سنة التطور أمد قصير ، هيهات للنحو أن يثب فيه وثبته التى نراها فى الكتاب ، أو هو على الأقل لا يتيح للنحو أن يثب هذه الوثبة فى هينة ورفق . على مثال ما يتيح له أمد ما بين أبى الأسود وسيبويه ؟

وإذا كان سيبويه لم يرو لأبى الأسود ، فهل نستطيع القطع بأن أحداً آخر لم يرو له كذلك ؟ إذا فكيف يكون عدم رواية سيبويه خاصة لأبى الأسود دليلا على أن أبا الأسود ليس هو واضع النحو ؟

وما كان جهل الحقيقة لينفى وجودها ، ولا سيما حين تتصل بأمر تتظاهر له الأنباء وتتعدد عنه الروايات .

وما أحسب ابن جنى إذ يقول عن النحو : « هو انتحاء سمت كلام العرب

---

(١) راجع إنباه الرواة : ١ : ١٧ .

(٢) توفى أبو الأسود سنة ٦٩ ، وابن أبى اسحق سنة ١١٧ .



في تصرفه من إعراب وغيره » — يريد أن يعرف النحو ، وإنما يريد أن يبين اشتقاق لفظه وسبب التسمية به ؛ فإنه ليعلم أن التعريف يحد المعرف بما يكشف عن حقيقته ، ويضم آحاده إليه ، وينفي غيرها عنه . وكيف يصح أن يعتبر تفسيره النحو بأنه انتحاء كلام العرب — تعريفاً للنحو ، وانتحاء كلام العرب إنما يعني القصد إليه ومحاولة القدرة عليه وكسب الملكة فيه .

وليس النحو هو وحده السبيل إلى ذلك ، فهناك مثلا ضبط الكلام بالشكل، ومشافهة العرب الفصحاء ، وملازمة الآثار الأدبية البليغة وطول التمرس بها ، والأخذ على سننها . ثم إن بقية كلام ابن جني عن النحو شاهدة لما أقول . وهذه هي فانظر معي فيها . قال : « وهو في الأصل مصدر شائع ، أي نحوت نحواً ، كقولك قصدت قصداً ، ثم خص به انتحاء هذا القبيل من العلم ، كما أن الفقه في الأصل مصدر فقهت الشيء ، أي عرفته ، ثم خص به علم الشريعة من التحليل والتحريم[1] » .

فهذا كما ترى كلام لا يقوله من يريد تعريف النحو وتبيين حقيقته ، ولكنه كلام من يدرس الكلمة ويؤرخ تطورها . وإلا فما باله يقرنها إلى كلمة الفقه ، ويشبهها بها في الاشتقاق والتسمية ؟ وما للتعاريف وأمثال هذا التحليل والبحث؟ ولا أدري كيف يصح بعد ذلك أن يكون في كلام ابن جني سند أو بينه على أن النحو كان يعني عند الأولين هذا النقط الذي ضبط به أبو الأسود كلام الله تعالى؟ إن في ذلك لصرفا للكلام إلى وجه لا يقتضيه ضربة لازب ، وتكليفا له أن يقول مالا يملك أن يقول .

وما يمنع أن يكون علي رضي الله عنه هو صاحب فكرة وضع النحو وموجه أبي الأسود إليه ؟ أليس كثير من أعلام هذه الأمة وأولي الأمر فيها أصحاب أوليات في الثقافة والحضارة؟ أليس عمر رضي الله عنه هو صاحب فكرة جمع القرآن،

---

(١) الخصائص : ١ : ٣٢ .



وحذيفة بن اليمان هو صاحب فكرة جمع الناس على مصحف واحد ، وزياد هو صاحب فكرة الشكل ، والحجاج هو صاحب فكرة الإعجام ، وعمر بن عبدالعزيز هو صاحب فكرة جمع الحديث وتدوينه ؟

ولاعجب فى ذلك ولا غرابة ، فاحتمال التبعات ، والإحساس بأثقالها ، والرغبة فى إحسان النهوض بها مما يفتح العيون ، ويعمل العقول ، فيبرح الخفاء ، ويتبدد الظلام عن كثير من وجوه الخير والإصلاح .

وأخشى ما أخشاه فى هذا المقام أن يستدرجنا الاستكثار من اتهام التشيع فى بحوثنا ودراساتنا إلى الطرف الآخر ، فتصبح كالناصية(١) من حيث لانشعر ولا نريد .

وإذا نستطيع أن نقول بعد هذا التطواف البعيد : إن الكتاب لسيبويه ، وإنه صنفه وحده ، ولم يُغِر فيه على كتاب لأحد ، ولم يشاركه فيه أحد على الصورة التى يصورها ثعلب فيما يروى الرواة عنه .

مادته :

وضع الكتاب وقد طال خلاط العرب للأعاجم ، وتعددت روابطها بهم ، وأخذت هذه الروابط المتعددة وذلك الخلاط الطويل يعقبان العربية فيما يعقبانها لحناً وانحرافا ، على أنها ظلت فى البادية كما كانت من قبل، نقية أصيلة فى الأسلوب والمفردات ، فكان الناس ينفرون فى طلبها إلى البادية ، أو يقصدون للوافدين منها على الحاضرة ، للرواية والمشافهة ، أو المراجعه والمساءلة ، أو المرافعة والتحكيم .

والكتاب يشترع للعربية فى طورها الجديد ، ويقيم المعالم التى تهدى إلى حقيقتها وتعين على حمايتها ونفى الزيف عنها ، حتى لايطغى عليهـــا ويغير من خصائصها فى الحاضر أو فى المستقبل القريب أو البعيد ؛ لذلك فهو دراسة واسعة فى النحو والصرف ، أي فى أساليب العربية وبنية مفرداتها ، ويعتمد فى مادته على :

---

(١) هم المتدينون ببغضة على ، ويسمون النواصب أيضا . قال المتنبى :
إذا علوى لم يكن مثل طاهر * فما هو إلا حجة للنواصب .



(أ) عبارات مروية ، وأخرى غير مروية .

(ب) ومفردات عربية وأخرى أعجمية ، خالصة أو معربة .

(حـ) ومسائل مفترضة قيست على نظائر لها فى اللغة .

(د) وشواهد من القرآن وأخرى من الشعر والرجز .

(أ)

فمن العبارات المـــروية : عسى الغُوير أبؤسا[١] ، وأمر مبكيا تلك لا أمر مضحكاتك[٢] ، وإلا حظية فلا أليّـة[٣] . ومن غير المروية : كان عبد الله أبوه منطلق ، ومررت برجل معه جبة لابس غيرها ، وإنك وزيداً منطلقان[٤] وهو يزجى النوعين للدرس والتحليل وبيان وجه الرأى حسنا أو قبحا أو فساداً .

---

(١) الغوير : تصغير غار . الأبؤس : جمع بؤس ، وهو الشدة ، وهذا مثل قالته الزباء لقومها فيما يقال حين رجع قصير من العراق ومعه الرجال ، فبات بالغوير على طريقه . معناه : لعل الشر آتيكم من الغوير . ويضرب للرجل يجىء من قبله الشر . وأبؤسا منصوب إما على تقدير : أن يكون ، وإما على أن عسى بمنزلة كان (مجمع الأمثال : ١ : ٤٢٤) .

(٢) مثل قاله رجل من العرب لابنته ؛ وكانت لها خالات وعمات ، فكانت إذا زارت خالاتها ألهينها وأضحكنها ، وإذا زارت عماتها أدبنها وأخذن عليها ، فقالت لأبيها ، وكان قد علم القصة ، فقال لها المثل . ويروى أمر بالرفع والنصب (المصدر السابق : ٢٧) .

(٣) الألية : فعيلة من الألو ، وهو التقصير . ويقول سيبويه فى تفسيره : « إلا تكن له فى الناس حظية فإنى غير ألية كأنها قالت فى المعنى : إن كنت ممن لا يحظى عنده فإنى غير ألية » . ويقول السيرافى : « أصل هذا أن رجلا تزوج امرأة فلم تحظ عنده ، ولم تكن بالمقصرة فى الأشياء التى تحظى النساء بها عند أزواجهن فقالت : إلا حظية الخ ، أى إن لم تكن حظية للنساء لأن طبعك لا يلائم طباعهن فإنى غير مقصرة فيما يلزمنى » . (الكتاب : ١ : ٢٤ ، ١٢٩ ، ١٣١ على الترتيب ومجمع الأمثال : ١ : ١٨) .

(٤) الكتاب : ١ : ٧٤ ، ٢٤٠ ، ٣٨٩

ويتخلل ذلك حينا بعد حين نقل أقوال الأئمة، وذكر لغات القبائل رواية أو سماعا، كقوله فى (باب مايضمر فيه الفعل المستعمل إظهاره بعد حرف) :

« ومن ذلك أيضا قولك : مررت برجل صالح ، وإلا صالحاً فطالحٌ ، ومن العرب من يقول : إلا صالحا فطالحا ، كأنه يقول : إلا يكن صالحا فقد مررت به أو لقيته طالحا . وزعم يونس أن من العرب من يقول : إلا صالحٍ فطالحٍ ، على إلا أكن مررت بصالح فطالح ، وهذا قبيح ضعيف [1] » .

ومن الأبواب التى تكثر فيها العبارات المروية : (باب مايضمر فيه الفعل المستعمل إظهاره بعد حرف [2]) و (باب يحذف منه الفعل لكثرته فى كلامهم حتى صار بمنزلة [3] المثل) ، و (باب ماينصب من المصادر على إضمار الفعل غير المستعمل إظهاره [4]) .

وتشتمل بعض هذه العبارات على استعمالات نادرة لم أرها فى غير الكتاب، منها قوله : « سألت الخليل عن قول العرب : انتظرنى كما آتيك . وارقبنى كما ألحقك ، فزعم أن ما والكاف جعلتا بمنزلة حرف واحد ، وصيرت للفعل كما صيرت للفعل ربما . والمعنى لعلى آتيك [5] » . وقوله : « وسألته عن قوله : كما أنه لايعلم ذلك فتجاوز الله عنه ؛ وهذا حق كما أنك هاهنا ، فزعم أن العامل فى أن الكاف ، وما لغو ، إلا أن مالا تحذف منها ، كراهية أن يجىء لفظها مثل لفظ كأن ، كما ألزموا النون لأفعلن ، واللامَ قولهَم : إن كان ليفعل ؛ كراهية أن يلتبس اللفظان . ويدلك على أن الكاف هى العاملة قولهم : هذا حق مثل ما أنك ها هنا [6] » .

وقوله : « وتقول : إنى مما أن أفعل ذاك ، كأنه قال : إنى من الأمر أو من الشأن أن أفعل ذاك ، فوقعت ماهذا الموقع كما تقول العرب بئسما له ... وإن شئت قلت : إنى مما أفعل ، فتكون ما مع مِن بمنزلة كلمة واحدة ، نحو ربما . قال الشاعر (أبو حية النميرى) :

---

(١) الكتاب : ١ : ١٣٢ — (٢) المصدر السابق : ١٣٠
(٣) المصدر السابق : ١٤١ — (٤) المصدر السابق : ١٥٦
(٥) المصدر السابق : ٤٢٩ — (٦) المصدر السابق : ٤٨٠



وإنا لما نضرب الكبش ضربة   على رأسه تلقى اللسان من الفم[1]

(ب)

وأكثر ما ترى المفردات فى أبواب الصرف، ومنها فى (باب ما لحقته الزوائد من بنات الثلاثة من غير الفعل) ويكون على إفعيل فى الاسم والصفة: فالأسماء نحو إخريط[2] وإسليح[3] وإكليل. والصفة نحو إصليت[4] وإجفيل[5] وإخليج[6]. » وفى (باب الأسماء الأعجمية) « وأما إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وهرمز وفيروز وقارون وفرعون وأشباه هذه الأسماء فإنها لم تقع فى كلامهم إلا معرفة على حد ما كانت فى كلام العجم، ولم تمكن فى كلامهم كما تمكن الأول[7]. » وفى (باب إطراد الإبدال فى الفارسية): « ومثل ذلك تغييرهم الحركة التى فى زَوْر وآشوب، فيقولون: زُور وأشوب وهو التخليط لأن هذا ليس من كلامهم[8]. »

(ح)

وترد المسائل الفرضية فى أبواب شتى من الكتاب، منها فى (باب تغيير الأسماء المبهمة إذا صارت علامات خاصة): « وسألته عن رجل سمى بأُولى من قوله: نحن أولو قوة وأولو بأس شديد، أو بذوى، فقال: أقول: هذا ذوون، وهذا أولون؛ لأنى لم أضف، وإنما ذهبت النون فى الإضافة[9]. » وفى (باب الإضافة إلى ما فيه الزوائد من بنات الحرفين): « وأما الإضافة إلى رجل اسمه ذو مال فإنك تقول: ذَوَوى، كأنك أضفت إلى ذوا، وكذلك فعل به حين أفرد وجعل اسما رد إلى أصله؛ لأن أصله فَعَل، يدلك على ذلك قولهم: ذوا تا[10]

---

(١) الكتاب: ١: ٤٧٦ — ٤٧٧ (٢) نبات من الحمض.
(٣) نبت تغزر عليه الألبان. (٤) من معانيه: السيف الصقيل الماضى.
(٥) من معانيه الجبان.
(٦) الجواد السريع. وراجع الكتاب: ٢: ٣١٦
(٧) المصدر السابق: ١٩ (٨) المصدر السابق: ٣٠٣.
(٩) المصدر السابق: ٤٢ (١٠) المصدر السابق: ٨٣

وما أرى أن القدماء إذ يخوضون فى أمثال هذه المسائل ويشترعون لها — كانوا يتكلفون من الأمر مالا جدوى منه ولا حاجة إليه ، بل أراهم على عكس ذلك ملهمين موفقين ، أدركوا بظهر الغيب أنهم يومئذ بمكان التوجيه والإرشاد، وأن اللغة صائرة مع الزمن إلى التطور ، فما يكون اليوم قليلا قد يكون غدا كثيرا ، والفضول فى عصر قد يكون ضرورة فى عصر آخر . فلا محيص لهم من تقليب المسائل على وجوهها ، وإجالة الرأى فى شتى احتمالاتها ، والتمشى معها إلى المستقبل المرتقب بالافتراض والخيال لوضع أصول التصرف فى المفردات، وطرائق استعمالها على ما تقتضيه طبيعة العربية ويهدى إليه القياس .

ولست أنسى كيف كان بعض العيابين من المتحذلقين وأدعياء الطرافة والذوق يسخرون من النحويين ، وينكرون على المدرسين أن يدرسوا لتلاميذهم مثل المركب الإسنادى وطريقة إعرابه ، بدعوى أنه شىء قديم نادر ، لا يرى إلا فى بضعة أسماء من القديم والحديث ، وها قد دار الزمن وأصبحنا الآن نستكثر فى تسمياتنا من هذا النوع ، سواء فيها العامة والخاصة .

فنسمع من العامة أمثال : ما شاء الله ، والصلاة على النبى ، ونحمده أعلام أشخاص ، ونقرأ للخاصة أمثال : هتلر فى الميزان ، ويسألونك ، وفى اللهجات العربية ، وحاضر يافندم أسماء كتب. ولا أدرى ماذا كان يقول هؤلاء المتحذلقون العيابون لو فشت فينا هذه الأسماء ، ثم لم يجدوا لها ذكرا فى كتب النحو؟ المرجح أنهم كانوا يمضون على سننهم من الحذلقة والانتقاص .

(د)

وأما شواهد الكتاب فقدر ضخم من آيات القرآن الكريم وأشعار العرب وأرجازها ، يروى المؤلف بعضها أو ينسب الوجه فيها إلى أشياخه ، ويزجى بعضها الآخر من حفظه ، فيقول مثلا فى (باب ما يختار فيه إعمال الفعل مما يكون فى المبتدأ مبنياً عليه الفعل) : « وذلك قولك : رأيت زيدا وعمرا كلمته .. ومثل ذلك قوله عز وجل : يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليما

وقوله عز وجل : وعادا وثمود وأصحاب الرَّسِّ وقرونا بعد ذلك كثيرا ثم وكلا ضربنا له الأمثال ، ومثله : فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة[١] ... » .

ويقول فى (باب من اسم الفاعل الذى جرى مجرى الفعل المضارع ...) : وذلك قولك : هذا ضارب زيدا غدا ، فمعناه وعمله : هذا يضرب زيدا غدا ... ومما جاء فى الشعر منونا من هذا الباب قوله[٢] :

إنى بحبلك واصــل حبلى ... وبريش نبلك رائش نبــلى

وقال عمر بن أبى ربيعة :

ومن مالىء عينيه من شىء غيره ... إذا راح نحو الجمرة البيض كالدمى

وقال زهير :

بدالى أنى لست مدرك ما مضى ... ولا ســابقاً شيئاً إذا كان جائيا

وقال الأحوص الرياحى :

مشائيم ليسوا مصلحين عشيرة ... ولا ناعباً إلا ببين غرابهــا

ومما جاء فى الشعر غير منون قول الفرزدق :

أتانى عــلى القعساء عادل وطبه ... برجلىْ لئيم واست عبد تعادله[٣]

يريد عادلا وطبه ، وقال الزبرقان بن بدر :

مستحقبي حلق المــاذى يحفزه ... المشرفى وغاب فوقة حصِد[٤]

---

(١) الكتاب : ١ : ٤٦ .

(٢) هو امرؤ القيس ، ويروى للنمر بن تولب (تحصيل عين الذهب : حاشية الكتاب : ١ : ٨٣) .

(٣) القعساء : الراحلة المحدودبة من الهزال . يهجوه فيجعله راعياً جاءه على راحلة مهزولة وقد جعل رجليه واسته عدلا لزق اللبن .

(٤) الماذى : الدروع الصافية الحديد اللينة اللمس . الغاب : الغياض ، ويريد بها ، الرماح . الحصد : الملتف يصف جيشاً بأن فرسانه جعلوا الدروع فى مآخير الرحال ، ويذكر أنه يمد هذه الدروع بالسيوف و يشرف عليها غاب ملتف من الرماح .

وقال سليك بن السلكة :

تراها من يبيس الماء شهبا مخالطَ درة منها غرار[1]

يريد عرق الخيل . ومما يزيد هذا الباب إيضاحا أنه على معنى المنوّن قول النابغة :

احكم كحكم فتاة الحى إذ نظرت إلى حمام شراع وارد الثمد[2]

فوصف بالنكرة . وقال المرار الأسدي :

سل الهموم بكل معطى رأسه ناج مخالط صهبة متعيسِ[3]

. . . وزعم عيسى أن بعض العرب ينشد هذا البيت لأبي الأسود الدؤلي :

فألفيته غير مستعتب ولا ذاكرِ اللهَ إلا قليلا[4]

وهذا التوفق العجيب في الاستشهاد وضرب الأمثال يدل على الغزارة والتمكن وشدة الاستحضار .

ويذكرون أن سيبويه لم ينسب من شواهد الكتاب إلا ما رواه عن شيوخه، مخافة أن يخطىء فينسب شاهداً إلى غير قائله ، فرب شاهد يروى لشاعرين ، ورب شاهد منحول ولا سبيل إلى معرفة قائله لبعد العهد به . أما ما نسب غير ذلك فقد نسبه أبو عمر الجرمى . قال : « نظرت فى كتاب سيبويه ، فإذا فيه ألف وخمسون بيتا ، فأما ألف فعرفت أسماء قائليها ، وأما خمسون فلم أعرف أسماء قائليها[5] » .

ونحن إذ نرجع إلى الكتاب نرى أن نسبة بعض الشواهد غير المروية يقترن حينا بما يشعر أنها مضافة إليه ، غير أصيلة فيه ، ونرى أن نسبة البعض الآخر لا تقترن بما يدل على ذلك من قريب أو بعيد . ومما نسبه رواية عن شيوخه

---

(١) يصف خيلا بأن عرقها متقطع وهو إذ يجف عليها يبيض فإذا هو شهب .

(٢) فتاة الحى : زرقاء اليمامة . شراع : واردة . الثمد : الماء القليل .

(٣) معطى رأسه : منقاد . متعيس : أبيض .

(٤) الكتاب : ١ : ٨٢ - ٨٥ . (٥) راجع خزانة الأدب : ١ : ١٧٨ .

قوله : «وزعم يونس أن العرب تنشد هذا البيت لهدبة بن خشرم :

فإن تك فى أموالنا لا نضق بها ذراعا وإن صبر فنصبر للصبر[١]

ومما تقترن نسبته بما يدل على إضافتها إلى نص الكتاب قوله : «فإذا بينت الياء فى النداء ، كما بينتها في غير النداء جاز فيها ما جاز إذا كانت غير نداء ، قال الشاعر (هو ابن قيس الرقيات) :

تبكيهم دهماء معولة وتقول سلمى وارزيتيه[٢]

ومما خلت نسبته من الدلالة على إضافتها قوله : « ... سمعناه ممن يرويه من العرب ينشده هكذا ، ومنه أيضا قول ذى الرمة :

سرت تخبط الظلماء من جانبى قسا وحب بها من خابط الليل زائر[٣]

وإذا تكون الشواهد التى نسبها سيبويه رواية عن شيوخه داخلة فى الألف التى يذكر الجرمى أنه عرف نسبتها ، ولكن يبقى بعد ذلك أن نسأل عن الأبيات التى أثبت الجرمى نسبتها : أكان يثبتها مرة على نحو يشعر أنها مضافة إلى الكتاب ومرة على نحو يشعر أنها منه وأصيلة فيه ؟ الحق أن الأمر يعوزه الكثير من الإيضاح والتحديد .

والعلماء على كل حال يحسنون الظن بسيبويه ، ويثقون بشواهده ما عرفت نسبتها وما لم تعرف . فهم يروون هذه وتلك ، ويحتجون بهما جميعا . قال فى خزانة الأدب : «أبيات سيبويه أصح الشواهد ، اعتمد عليها خلف بعد سلف ، مع أن فيها أبياتا عديدة جهل قائلوها ، وما عيب بها ناقلوها . وقد خرج كتابه إلى الناس والعلماء كثير والعناية بالعلم وتهذيبه وكيدة ، ونظر فيه وفتش فما طعن أحد من المتقدمين عليه ، ولا ادعى أنه أتى بشعر منكر ...[٤] » .

---

(١) الكتاب ١ : ١٣١ .

(٢) الكتاب : ١ : ٣٢١ ، ورواية الديوان : تبكيهم أسماء .

(٣) قسا : قار لتميم . (٤) الخزانة : ١ : ٨ .



وما أرى أن العلماء فى ذلك قد جاملوا سيبويه ، أو غلوا فى الثقة به فإنه إذا كانت الشواهد ألفا وخمسين ، وكان المجهول النسبة منها خمسين لاغير ، فعدل أن تقبل المجهولة حملا على المعلومة ، وأن تنزل منزلتها فى الاستشهاد ؛ لأنها بالإضافة إليها جد قليل . وليس يغض منها أو يدعو إلى الاسترابة فيها أنها مجهولة النسب ، لايعرف أصحابها سابق ولا لاحق ؛ فقد تكون من أبيات مفردة قيلت عرضا فى مناسبات عابرة ، أو من مقطعات وقصائد لم يقدر لها ذيوع الرواية ولا طول الحياة ، وقد يكون أصحابها من المغمورين أو المقلين الذين لايعلمهم الناس ، ولا يروى لهم إلا قليل .

ومن يدرى لعلنا أن نوفق على الأيام إلى معرفة أنسابها أو أنساب بعضها ، ولا سيما بعد ماانتبه الناس للآثار القديمة ، وأخذوا يقدرونها قدرها ، وأصبح تقصيها والتعرف إليها ممكنا . وها قد نقل العلامة أحمد تيمور باشا عن شيخه الجليل الشيخ محمد الشنقيطى أنه ذكر فى كتابه الحماسة السنية أن واحدا منها عرف اسم قائله ، وهو : أفبعد كندة تمدحن قبيلا ؟

قال : وصدره : قالت فطيمة حلِّ شعرك مدحه . وهو لامرىء القيس ، من قصيدة عدتها ثمانية عشر بيتا نادرة الوجود ، أوردها كلها فى الحماسة المذكورة[1].

ثم إن خطة الرجل فى الكتاب تحمل على الثقة به والاطمئنان إليه ، فإنه ليتحرى الدقة فى العرض ، ويعنى بتمييز الصريح من المشوب والتنبيه على مايصادف من المنحول .

استمع إليه يروى عن يونس ، وينقد ماروى عنه « وزعم يونس أن قوما من العرب يقولون : أما العبيد فذو عبيد ... يجرونه مجرى المصدر سواء . وهو

---

(١) راجع الخزانة : ١ : ٢٩ ، الصلب والحاشية (طبعة السلفية) .



قليل خبيث ، وذلك أنهم شبهوه بالمصدر ، كما شبهوا الجماء الغفير بالمصدر ، وكأن هؤلاء أجازوا هو الرجل العبيد والدراهم ، أى للعبيد وللدراهم فهذا لا يتكلم به[١] . . »

واستمع إليه مرة أخرى يروى الشواهد للاحتجاج ودعم الرأى : « وقال رجل من بنى مازن :

علىّ دماء البدن إن لم تفارقى   أبا حردب ليلا وأصحاب حردب[٢]

وقال وهو مصنوع على طرفة ، وهو لبعض العباديين :

أسعد بن مال ألم تعلموا   وذو الرأى مهما يقل يصدق[٣]

على أن سيبويه مع ذلك لم يسلم فى شواهده من الظنة ، فقد ذكر أبو يحيى[٤] اللاحقى أن سيبويه سأله : هل تعدى العرب فعِلا ؟ قال : فوضعت له :

حذر أمورا لا تضير وآمن   ماليس منجيه من الأقدار[٥]

وإذا صحت هذه القصة فعجيب ، لأنه ليس مما يجارى الفهم ويقارب الصدق أن يتهم شاعر نفسه بالوضع والافتعال ، لا فى الشعر وحده ولكن فى العلم أيضاً ، ولرجل وثق به والتمس المعرفة عنده . وما هى على كل حال بضائرة سيبويه ولا بمفسدة من الأمر شيئاً . ويبدو أنها قصة موضوعة ، أراد بها صاحبها الفخر والاستعلاء ، أن كان ممن يسألهم سيبويه ويروى عنهم . وكلام سيبويه عن إعمال فعِل يمهد لذلك ويوحى به . وهذا هو : « وقد جاء على فعل ، وليس ككثرة ذلك . قال الشاعر :

---

(١) الكتاب : ١ : ١٩٤ .

(٢) أصله أبو حردبة ، فرخم فى غير النداء . وهو لص قاطع كان الشاعر من أصحابه ثم تاب ، والخطاب للناقة .   (٣) الكتاب : ١ : ٣٣٦ — ٣٣٧ .

(٤) هو أبان بن عبد الحميد ، شاعر مطبوع ، نظم للبرامكة كليلة ودمنة ليسهل عليهم حفظه . وكان مطعونا فى دينه (الأغانى : ٢٠ : ٧٣ — ٧٥ ، خزانة الأدب : ٣ : ٤٥٨) .

(٥) حاشية الكتاب : ١ : ٥٨ ، فرائد القلائد فى مختصر الشواهد : ٢٥٧ .

أو مِسحل شنِج عِضادة سمحج ... بسراتها ندَبٌ له وكلوم (١)

وهو كلام من يعرف موضوعه حق معرفته ؛ لأنه يعرف مبلغ فصل من الإعمال ، ويعرف مكانه من أخواته ، ثم يستشهد له ببيت مروى منسوب ، فما حاجته إلى التماس المزيد عليه ؟ وقد عززه الشنتمرى بشاهد آخر لزيد الخيل ، إذ يقول :

أتاني أنهم مزقون عرضي ... جحاش الكِرمِلَين لها فديد (٢)

وإذا كان حقا أن سيبويه سأل اللاحقى وتقول عليه فما باله لم يذكر ذلك تصريحا أو تلميحا كدأبه في المواطن الأخرى ؟ وأيا ما يكن الواقع فقد نالت قضية فعِل حقها من الدرس والاستشهاد ، فإذا تطوع بعد ذلك متطوع يشهد لها ويشد أزر صاحبها فيما بما لم يعلم فإثمها عليه ، وليس على القضية ولا على صاحبها من ذلك بأس . وإذا لم يكن بد من أخذ سيبويه بما صنع على فرض أن القصة صحيحة فأحق ما يؤخذ به أنه وثق برجل لم يكن من الخير له أن يثق به ويرجع إليه .

وقول آخر يتقول على سيبويه في شواهده : أنه استشهد بشعر بشار ، لا لأنه كان يرى الاستشهاد به ، ولكن لأنه كان يخافه ويتقى معرة لسانه ، فقد أنكر بشار ألا يستشهد به ، وتوعده بالهجاء إن هو لم يفعل ، ويذكرون أن سيبويه اضطر لذلك أن يستشهد في باب الإدغام بقوله :

---

(١) نسبه في تحصيل عين الذهب لابن الأحمر ، وفي اللسان للبيد ، ولم أجده في ديوانه . شنج : أراد به ملازم من شنج الجلد إذا تقبض . عضادة : أراد به الجانب . السمحج : الأتان الطويلة الظهر . السراة : أعلى الظهر . الندب : آثار الجراح . جمع ندبة بالتحريك . شبه ناقته بحمار الوحش ، يرهق أتانه ، وله بظهرها جراح ملتئمة وغير ملتئمة . ورواية اللسان سنق بدل شنج والمراد مخصب ورواية الشنتمرى : بسراته ندب لها .

(٢) الكرملين : ماء بجبلي طيء . ثناه في هذا البيت وأفرده في تاليه :

فسيرى ياعدى ولا تراعى ... لحلى بين كرمل فالوحيد



* وما كل ذى لب بمؤتيك نصحه وما كل مؤت نصحه بلبيب[1] *

ونحن إذ نرجع إلى باب الإدغام (٣ : ٤٠٩) نجد فيه هذا الشطر ، ولكن غير منسوب ، فهل تظن أن بشاراً كان يمكن أن يرضى بذلك ويجد فيه مقنعاً . فتهدأ ثورته ويرجع عن هجاء صاحبه ؟ هيهات ؛ لأن معنى بشار من هذه الأمنية فيما نفهم أن يرفعه سيبويه إلى مرتبة من كان يحتج بهم من الشعراء ، ولا يتحقق ذلك على وجهه إلا إذا استشهد به وذكر اسمه فى الاستشهاد .

وليس لسيبويه ما يعتذر به من إغفال اسمه ، فإنه ليعلم أن الشعر شعره غير منازع فيه ، ثم ما جدواه من إغفال اسمه إذا هو قبل الاحتجاج به ، فالخطب بعد ذلك يسير . وسيعلم الناس الحقيقة حتماً . ولقد كان الهجاء هيناً على بشار ، بل لقد كان به مولعاً وفيه جريئاً ، حتى ما يكاد يرقب فيه ذماماً أو يهاب أحداً . فلعل سيبويه إذا صحت القصة إنما استشهد به للاستئناس وحين المذاكرة والدرس .

على أن البيت ليس خالصاً لبشار ، ينسبه إليه ناس ، وينسبه إلى أبى الأسود ناس آخرون[1] وقد رجعت إلى بائياته فى الجزء الأول من ديوانه فلم أعثر على البيت فيه .

هذه هى مادة الكتاب وعناصر تكوينه التى صنع منها سيبويه النحو والصرف وصنع منها مباحث أخرى رآها من النحو ورآها الناس بعده من غيره فأدخلوا بعضها فى البلاغة وبعضها فى فقه اللغة وبعضها فى التجويد ، وأقاموا من بعضها الآخر مباحث مستقلة ، وإن كانت لتمت للنحو برحم ماسة

ففى (باب الاستقامة من الكلام والإحالة فيه) يقسم الكلام إلى « مستقيم حسن ، ومحال ، ومستقيم كذب ، ومستقيم قبيح ، وما هو محال كذب » ويرجع الأمر فى ذلك كله إلى تأليف العبارة وصدق المعنى . فعلى قدر استقامة العبارة فى تأليفها والمعنى فى صدقه يكون رجحان الكلام فى ميزان النقد وتفاضله فى مراتب

---

(١) راجع خزانة الأدب : ١ : ٤ ، رسالة الغفران : ٢ : ٣٦ . الاقتراح : ٢٧ .



البلاغة . وكل اختلاف يصيب العبارة فى تأليفها أو المعنى فى إخباره عن الواقع تخف بمقداره موازين الكلام وتنقص قيمته فى معارض البيان[١] .

وفى (باب استعمال الفعل فى اللفظ لا فى المعنى) يطوف بالإيجاز ، ويلم بالمجاز المرسل والمجاز بالحذف[٢] وفى (باب اللفظ للمعانى) يشير إلى الترادف ، ويتحدث عن صلة الألفاظ بمعانيها اتفاقاً واختلافاً[٣] .

وفى (باب الإدغام) يتحدث حديثا بارعا عن حروف الهجاء وعدتها أصولا وفروعا ، ويبين من الفروع ماتحسن به قراءة القرآن والشعر وما لا تحسن ، ثم يتحدث عن مخارجها وأنواعها من مجهورو مهموس وشديد ورخو وغيرها[٤] . وفى (باب ما يحتمل الشعر) يعرض أنواعا من ضرورات الشعر ، ويسوق لها الشواهد تباعا[٥] .

ولم يقتصر سيبويه على التشريع للفظ باعتباره أداة خطاب وتعبير ، بل شرع له كذلك باعتباره وحدة غناء وترنيم ، فتحدث فى (باب وجوه القوافى والإنشاد) عن أحوال القافية وما يضاف إليها أو يقتطع منها عند أهل الحجاز وبنى تميم حين يريدون أن يترنموا وحين لا يريدون ، وإنما عقد الكلام هنا على الشعر خاصة وعلى القافية منه دون غيرها ؛ لأن التغنى كان يكون بالشعر ، والقافية فيه مقطع الصوت ، فهى منه بمنزلة الحرف الأخير من الكلمة[٦] .

نصه :

كان للقدماء عناية ملحوظة بضبط النصوص والمحافظة على صحتها : كانوا يروون أخبارها بالسند حتى يرفعوها إلى أصحابها على نحو ما كانوا يصنعون

---

(١) الكتاب : ١ : ٨ (٢) المصدر السابق : ١٠٨

(٣) المصدر السابق : ٧ (٤) الكتاب : ٢ : ٤٠٤

(٥) الكتاب : ١ : ٨ وقد ألف السيد محمود شكرى الآلوسى فيها كتاب الضرائر وما يسوغ للشاعر دون الناثر ؛ وممن تكلم عنها فى النحو صاحب همع الهوامع : ٢ : ١٥٥ — ١٥٨

(٦) الكتاب : ٢ : ٢٩٨



بأحاديث الرسول عليه السلام ، وكانوا ينسبون نسخ الكتب التى يكتبونها فرعاً إلى أصل حتى يبلغوا بها أوائلها التى تحدرت منها ، وكانوا يقرءونها معارضة على الأصول التى ينقلون عنها . وقد رأينا مثالا لذلك آنفاً فى نسخة الكتاب الخطية المحفوظة فى دار الكتب برقم ١٤٠

على أن الكتب طبعا ليست فى ذلك سواء ، بل إن نسخ الكتاب الواحد ليست فى ذلك سواء أيضا ، فلكل كتاب ، ولكل نسخة من كتاب ظروف خاصة ، يسلم معها النص أولا يسلم من الزيادة والنقص والتحريف . فالكتب التى تكثر نسخها ، وتتعدد جهات روايتها تتعرض عادة لما لا تتعرض له الأخرى من أسباب التغيير والتبديل ؛ لتفاوت القائمين عليها فى كل ما يتعلق بها . وكتاب الأغانى من أقرب الأمثلة وأصدق الشواهد على ما تقول .

وأعتقد على كل حال أن ما نراه فى نصوص الكتب من تخالف يسير أو غير يسير لا يرجع إلى التعمد والإهمال ولكن إلى القصور والاشتباه . فقد تعدو الأيام على بعض الأصول وتعمل فيها البلى عيثا وفساداً ، فإذا هى فِصل مفرقة أو أوراق مبعثرة ، لا يؤمن أن يلصق بعضها بغير أصله أو يستقر فى غير مكانه من أصله ، فإذا الكتاب زائد أو ناقص أو مختلف الترتيب .

وقد يعلق معلق على حواشى نسخته بما يوضح غموضا أو يتدارك فوتا أو يسد نقصا ، فيختلط التعليق بالنص ويسايره حتى يمتزج به ويعز فصله منه . وربما لا يستبين الناسخ مع ذلك أليق مواطن النص بالإضافة التى بدا له أنها منه ، فإذا العبارة غير مستوية ولا متلائمة عند مقطع الكلام الذى أقحمت الزيادة منه . وبعض الكلمات يتشابه هيئة ورسما ، ويتفاوت ظهوراً وطموسا ، فإذا هى بين مقروء مفهوم لا يكاد يختلف اثنان فى قراءته وفهمه ، ومشكل مستبهم يشتبه على الناس لفظه ومعناه ، بل ربما اشتبه على صاحبه وناسخه أيضا ؛ أوحت به فكرة خاصة فى جو خاص فبدا جليا مستقيما حين ذاك ، فلما غابت فكرته وتغير



جوه لقد السمات التى كانت تميزه وتدل على معناه .

وقد يكتب الإنسان كلاما محرفاً وهو يظنه غير محرف ، ثم إذا عاد إليه يراجعه لم يقرأ بعينه ولكن بحافظته وكما يقتضيه سياق التعبير ، فيصح النطق ، ويبقى الرسم على ما كان من تحريف .

ولقد تعرض الكتاب لبعض ما تعرضت الكتب القديمة له من تغيير فى نصوصها وتحريف . وأول ما أصابه من ذلك زيادات أضيفت إليه من تعليقات الأخفش على حواشيه . ويظهر أن أمر هذه الزيادات كان معروفا ومسلما ، لا يكاد يجهله أحد أو يمارى فيه أحد . قال السيوطى :

« على أننى متردد فى ثبوت هذه المقالة[١] عند ابن برهان ، فإننى رأيتها فى نسخة معتمدة مقروءة على أبى محمد بن الخشاب[٢] . وأولها ما صدر به حاشيته ثم ذكر ذلك إلى آخره . فالظاهر أنه مما ألحق، كما ألحقت حواش من كلام الأخفش وغيره فى متن كتاب سيبويه » .

وهذا كلام يدل على أن الكتاب قد دخلته زيادات من كلام الأخفش وغيره، وأن هذه الزيادات كانت من إقرار الناس بها ومعرفتهم لها بحيث يصح التشبيه بها والقياس عليها .

وعثرت فى الكتاب على كلام لأبى عمر ، وهو فيما أعتقد أبو عمر الجرمى ، يعقب به على رأى للخليل ويخالفه فيه . وهذا نصهما كما جاء فى الكتاب : « وزعم الخليل أن قولهم ظريف وظروف لم يكسر على ظريف ، كما أن المذاكير

---

(١) الإشارة إلى ما نقله عن ابن برهان هنا فى إعراب (هنا لك الولاية لله الحق) . إذ جعل هنا لك حالا عملت فيها لام الجر مع تقدمها على اللام (راجع الأشباه والنظائر : ٤ : ٢٥ - ٢٦) . وابن برهان : هو أبو القاسم عبد الواحد بن على . النحوى، صاحب اللغة والتواريخ وأيام العرب. توفى سنة ٤٥٦ (بغية الوعاة: ٣١٧).

(٢) هو عبد الله بن أحمد، أعلم أهل زمانه بالنحو ؛ وكانت له معرفة بالحديث والتفسير واللغة والمنطق والفلسفة والحساب والهندسة . توفى سنة ٥٦٧ .



لم تكسر على ذكر . وقال أبو عمر : أقول فى ظروف هو جمع ظريف ، كسر على غير بنائه ، وليس مثل مذاكير . والدليل على ذلك أنك إذا صغرت قلت ظريفون ولا تقول ذلك فى مذاكير » .

ولا يفوتنك النظر إلى كلمة (والدليل على ذلك)، يصدر بها الجرمى الاحتجاج لرأيه ، فإنه أشبه به وأولى أن تكون منه على أن السيرافى فوق ذلك يروى رأى الجرمى فى المسألة ، ويعزوه إليه بكنيته ولقبه فيقول : « وقال أبو عمر الجرمى: ظروف جمع لظريف، وإن كان الباب فى ظريف ألا يجمع على ظروف ، كما أن كثيراً من الجموع قد خرجت من بابها حملا على غيرها(١) » .

وسبق أن ذكرنا أن نسبة الكثير من شواهد الكتاب ليست من عمل سيبويه ، ولكن من عمل الجرمى . وأن العبارات التى تنسب بها هذه الشواهد تحمل فى كثير من المواطن دلائل إضافتها إلى الكتاب . وقد سقنا لذلك بعض الأمثلة هناك .

وكثيراً ما استوقف نظرى وأنا أدرس الكتاب مسائل مشتبهة ، تثير الاسترابة والتأمل ، وتدعو إلى التساؤل والتماس التأويل . وربما لا يبدو لها وجه من الرأى يطيب الأخذ به ، ويصح الاطمئنان إليه إلا فى اعتبارها من الإضافات التى زيدت على الكتاب .

ففى (باب مجرى نعت المعرفة عليها) يقول : « واعلم أن المعرفة لا توصف إلا بمعرفة ، كما أن النكرة لا توصف إلا بنكرة . واعلم أن الخاص من الأسماء يوصف بثلاثة أشياء : بالمضاف إلى مثله ، وبالألف واللام ، وبالأسماء المبهمة . فأما المضاف فنحو مررت بأخيك(٢) » .

وقد ذكر هناك قاعدة جامعة تستوعب كل ما توصف به المعرفة لا يتخلف

---

(١) الكتاب : ٢ : ٢٠٨ الصلب والحاشية .

(٢) الكتاب : ١ : ٢٢٠ .



منه شيء ، ثم حصر الأنواع التى يوصف العلم بها مجملة أولا ومفصلة آخراً ، ثم عاد إلى الأنواع واحداً واحداً يختص كلا منها بحديث على الترتيب . وهذا النمط فى الكتاب قليـــل ، ولا يبلغ مبلغ السمة التى تميزه على كل حال . وهو أو بعضه أحق أن يكون من تصنيع المنطق وتوجيه الفلسفة، لا من إلهام الفطرة وصحة الطبع .

وفى (باب ما يكون فيه هو وأنت ونحن وأخواتها فصلا) « وأما قولهم : كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه وينصرانه ـ ففيه ثلاثة أوجه : فالرفع من وجهين ، والنصب من وجه واحد . فأحد وجهى الرفع أن يكون المولود مضمراً فى يكون،والوالدان مبتدآن ، وما بعدهما مبنى عليهما، كأنه قال : حتى يكون المولود أبواه اللذان يهودانه وينصرانه ... والوجه الآخر أن تعمل يكون فى الأبوين ، ويكون هما مبتدأ ، وما بعده خبراً له . والنصب على أن تجعل هما فصلا[1] » .

وهذا النص يشبه الذى قبله فى الإجمال الجامع والتفريع المفصل ، وفى التتبع والاستقصاء إلى الغاية . ويريد أنه إذا قرن بعنوان الباب ونظر إلى النص فى فلسفته وإلى العنوان فى سذاجته بدا أن فرق ما بينهما هو فرق ما بين الاكتمال والنشأة، أو الإدراك والمحاولة .

عبارته :

لكل إنسان فى العبارة عن معانيه نمط مفضل ، يعتمده ويود لو استقام له أبدا على ما يريد ، فهذا واضح لا حجاب دونه ، وذاك غامض أسدلت دونه الأستار ، والحجب ، والثالث مقل يكتفى بالإيجاز ، والرابع مكثر يؤثر الإطناب والتفصيل ، والخامس ذوّاق أنيق يستطيب الزخرف والتصنيع ، والسادس فطرى

---

(١) الكتاب : ١ : ٣٩٦ .



ساذج يؤلف العبارة على ما خيلت ، وكما وقعت له . وهلم جرا .

وقد تجتمع خصائص الإنسان فى عبارته أشد ما تكون استقامة ووضوحا ، حتى يتمثل بها ويتراءى فيها ، وقد تتخلى عنه وتتمرد عليه حتى ما تكاد تشير إليه إلا عرضا ، وفى الحين بعد الحين ، إما لحاله فى الكتابة من التفتح والاستغلاق والإيمان والتردد ، وإما لطبيعة الموضوع وصلة الكاتب به يسرا وعسرا وغرابة وإلفا وطرافة وقدما وهكذا .

وسيبويه فى عبارة الكتاب يؤثر الانصباب والاسترسال ، كلماتها متلاحمة مستوية لا قلق فيها ولا نتوء ، وفقراتها متواصلة يجذب بعضها بعضا وتأخذ فيها الهوادى بالتوالى ، فإذا هى تمر بين يديك فى أكثر الأمر تباعاً متداركة ، لا تكاد تنقطع أو تنقسم حتى تتم مسائل الباب كله أو مرحلة من مراحله . وإنه فى سبيل الحفاظ على هذه الخصيصة ايصل الموضوع بالحديث عنه فى كثير من الأحوال ، فما تجد بينهما انفصالا ، وما تكاد تقرأ العنوان حتى يسلمك من حيث لا تشعر إلى الباب ، فتنطلق فيه ماضيا مسترسلا ، لا تجد موضعاً لوقف أو راحة حتى تبلغ آخر الباب أو آخر مرحلة فيه ؛ فتسمعه غالبا يقول لك حينئذ : واعلم أن الأمر كذا وكذا ، يؤذنك أنه آخذ بك إلى مرحلة أخرى من مراحل الحديث ، فإذا أنت انقدت له ومضيت فيها معه فهيهات أن تدعه أو تمتنع عن متابعته دون الغاية ، إلا أن ترد نفسك ردا ، وتأخذها منه انتزاعا .

استمع إليه فى قوله : (هذا باب ما ينتصب فيه الصفة لأنه حال وقع فيه الألف واللام ؛ شبهوه بما يشبه من الأسماء بالمصادر نحو قولك : فاه إلى فى ، وليس بالفاعل ولا المفعول ، فكما شبهوا هذا بقولك : عوده على بدئه وليس بمصدر — كذلك شبهوا الصفة بالمصدر ، فشذ هذا كما شذت المصادر فى بابها حيث كانت ...[1]) .

---

(١) الكتاب : ١ : ١٩٨ .



وهو إذ يفصل العنوان من الموضوع يفصله بكلمة وذلك فى أكثر الأحيان كقوله : (هذا باب ما لا يجوز فيه الإضمار من حروف الجر) ، وذلك الكاف فى أنت كزيد وحتى ومذ[1] ...

وتتفاوت عبارة الكتاب وضوحاً وغموضاً ، فربما وضحت حتى تصير كفلق الصبح سفوراً وإشراقاً ، تستبق إلى الفهم ألفاظه ومعانيه . وربما غمضت واستغلقت حتى تكون كالأحاجى والطلسمات ، يحار فيها الفهم ويرتد عنها القارىء عجزاً وكلالا ، وبين هذين الحدين مراتب من الوضوح والغموض لا تكاد تحصى كثرة .

فمن النوع الأول قوله : (هذا باب ذكر معنى لبيك وسعديك وما اشتق منه) ... « حدثنا أبو الخطاب أنه يقال للرجل المداوم على الشىء لا يفارقه ولا يقلع عنه : قد ألب فلان على كذا وكذا ، ويقال : قد أسعد فلان فلاناً على أمره وساعده . والإلباب والمساعدة دنو ومتابعة : إذ ألب على الشىء فهو لا يفارقه ، وإذا أسعده فقد تابعه ، فكأنه إذا قال الرجل للرجل ، يا فلان ، فقال : لبيك وسعديك فقد قال : قرباً منك ومتابعة لك ، فهذا تمثيل وإن كان لا يستعمل فى الكلام ، كما كان براءة الله تمثيلا لسبحان الله ولم يستعمل . وكذلك إذا قال: لبيك وسعديك يعنى بذلك الله عز وجل ، كأنه يقول : أى رب لا أنأى عنك فى شىء تأمرنى به ، فإذا فعل ذلك فقد تقرب إلى الله بهواه[2] » .

ولا يعدمك فى أثناء الكتاب أن تقع على عبارات طريقة عذبة كقوله : « واعلم أنهم مما يحذفون الكلم وإن كان أصله فى الكلام غير ذلك[3] » . وقوله فى أول الكتاب : « هذا باب علم ما الكلم من العربية » .

---

(١) الكتاب : ١ ، ٣٩٢

(٢) المصدر السابق : ١٧٦ — ١٧٧

(٣) المصدر السابق : ٨ : وشرح السيرافى العبارة فى حاشية هذه الصفحة فقال: أراد ربما يحذفون . وهو يستعمل هذه الكلمة كثيراً فى كتابه : والعرب تقول أنت مما تفعل كذا أى ربما تفعل .



ومن الغامض قوله : « وأما قول عدى بن زيد :

أرواح مودع أم بكور   أنت فانظر لأى ذاك تصير

فإنه على أن يكون فى الذى يرفع على حال المنصوب فى الذى ينصب على أنه على شىء هذا تفسيره[1] » .

وكان القدماء يستهولون دراسته ، ويستصعبون عبارته ، فكان المبرد يقول لمن أراد أن يقرأه عليه : « هل ركبت البحر ؟ » تعظيما واستصعابا لما فيه[2] . وكان ابن كيسان[3] يقول : « نظرنا فى كتاب سيبويه ، فوجدناه فى الموضع الذى يستحقه ، ووجدنا ألفاظه تحتاج إلى عبارة وإيضاح ؛ لأنه كتاب ألف فى زمان كان أهله يألفون مثل هذه الألفاظ ؛ فاختصر على مذاهبهم[4] » .

والواقع أن مفردات الكتاب لاغموض فيها ولاغرابة ، وإنما الغموض فى تأليفها وصياغة العبارة منها ، وفى الإشارة العابرة يشيرها إلى مسائل كانت لعهده متعالمة مشهورة ، ولم يكن بالناس يومئذ حاجة إلى تجليتها وتفصيل القول فيها ، فوكلهم إلى علمهم بها ، وغنى عن ذكرها بالإشارة إليها . مثال ذلك قوله فى (باب لاتكون هو وأخواتها فيه فصلا) .

« وأما أهل المدينة فينزلون (هو) هاهنا بمنزلته بين المعرفتين، ويجعلونها فصلا فى هذا الموضع . وزعم يونس أن أبا عمرو رآه لحناً ، وقال : احتبى ابن مروان فى هذه فى اللحن » . فهو هنا يشير إلى آية (قال ياقوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم) وقراءة ابن مروان أطهر بالنصب . وهى كما ترى إشارة مبهمة . لاتكفى فى بيان

---

(١) الكتاب : ١ : ٧٠ — ٧١ ؛ ومعنى هذه العبارة : أن أنت فى البيت يصح أن يكون مرفوعا على الفاعلية . بفعل يفسره مابعده . فيكون رفعه على حد نصب الاسم فى مثل زيداً فاضربه إذا نصبته . وقد تحدث سيبويه عن هذا الأسلوب فى الصفحة : ٧٠ من هذا الجزء .

(٢) بغية الوعاة : ٣٦٦

(٣) هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن كيسان النحوى المشهور ، أخذ عن المبرد وثعلب . وتوفى سنة ٢٩٩ (راجع نزهة الألبا : ٣٠١) .

(٤) خزانة الأدب : ١ : ١٧٩



المراد وإفهام معنى الكلام إلا لعارف بهذه القراءة وصاحبها من القراء [١] .

ويلتمس بعض العلماء للمسألة وجها آخر من الرأى . فيقول على بن سليمان الأخفش [٢] : «وحمل سيبويه كتابه على لغة العرب وخطبها وبلاغتها ، فجعل فيه بيناً مشروحاً ، وجعل فيه مشتبهاً ، ليكون لمن استنبط ونظر فضل . وعلى هذا خاطبهم الله عز وجل بالقرآن» . ويعلق على هذا أبو جعفر بن النحاس [٣] فيقول: «وهذا الذى قاله على بن سليمان حسن ؛ لأن بهذا يشرف قدر العلم وتفضل منزلته، إذ كان ينال العلم بالفكرة واستنباط المعرفة ، ولو كان بيناً لاستوى فى علمه جميع من سمعه ، فيبطل التفاضل [٤] » . ولاريب أن فى كلام العرب حذفا وذكرا، وتلميحا وتصريحا ، وإيجازا وإطنابا ، وفيه غير ذلك وأشباهه ، ولكن العرب لم تكن تنوع الأسلوب وتأخذ بهذا هنا وبغيره هناك، لتيسر على الفهم مرة وتشق عليه مرة أخرى ، ولتكشف له عن المراد حينا وتلبسه عليه حينا آخر كلا ، كان همها الإبانة والإفهام أبدا ؛ ولكنها كانت مع ذلك تستجيب لداعية المقام ومقتضى الحال : لم تشأ أن تسوى بين الناس فى أساليب الخطاب ، وقد فرق الله بينهم فى المنازل والعقول ، ولم تشأ أن تلتزم فى المقامات المختلفة والموضوعات المتباعدة طريقة واحدة لاتحيد عنها ولاتحور فيها . فلكلٍّ طريقة تجانسه وتليق به مالاتليق بسواه ، ولكلٍّ ألفاظ هو بها أولى وهى أحق أن تكون له .

وما يكون فى فهم الخاصة وأصحاب الموهبة قريبا سهلا - يكون كله أو كثير منه فى فهم العامة ومن لاموهبة عنده بعيدا صعبا . وقد جاء القرآن بلغة العرب،

---

(١) الكتاب : ١ : ٣٩٧ : الصلب والحاشية .

(٢) أحد الأخافش الثلاثة المشهورين ؛ ويعرف بالأخفش الأصغر ، قرأ على ثعلب والمبرد وغيرهما . ومات سنة ٣١٥ أو سنة ٣١٦ (راجع بغية الوعاة : ٣٣٨) .

(٣) هو محمد بن إسماعيل النحوى المصرى ، أخذ عن الأخفش الأصغر والمبرد وغيرهما . مات غرقا فى النيل سنة ٣٣٨ (المصدر السابق : ١٥٧) .

(٤) خزانة الأدب : ١ : ١٧٩ — ١٨٠



وجرى على مناهجها فى التعبير ، وقال الله عنه : « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكونَ من المنذِرين بلسان عربى مبين » . فمن هنا كان اختلاف أساليب العربية فى منازل البيان ، لا من حيث رآه العالمان الجليلان : على الأخفش، وأبو جعفر ابن النحاس .

وصحيح أن بعض العلماء كان يتعمد فى مؤلفاته التعمية والإبهام، لمثل ماذكر الأخفش وصاحبه من أسباب ، وقد سبق أن نقلنا مقالة الأخفش فى ذلك[1] . ولكن إذا كانت البينة فى كتب القراء هى مقالته تلك فماذا عسى أن تكون البينة فى كتاب سيبويه ؟ هى الظن إذن لاقرينة له نعرفها ولاسند، ولاينبغى أن يكون للقياس هنا محل أو اعتبار ، فالأصل الإبانة والإفهام ولاسيما فى لغة التأليف ؛ لأنه ضرب من التعليم ، وهيهات التعليم مع التعمية والإبهام .

نهجه :

ينهج سيبويه فى دراسة النحو منهج الفطرة والطبع ، يدرس أساليب الكلام فى الأمثلة والنصوص، ليكشف عن الرأى فيها صحة وخطأ ، أو حسنا وقبحا ، أو كثرة وقلة ، لايكاد يعرِّف معرفا ، أو يلتزم مصطلحا ، أو يفرع فروعا أو يشترط شروطا على نحو مانرى فى الكتب التى صنفت لعهد ازدهار الفلسفة واستبحار العلوم .

فهو فى جملة الأمر يقدم مادة النحو الأولى ، موفورة العناصر ، كاملة المشخصات ، لايكاد يعوزها إلا استخلاص الضوابط وتصنيع الأصول ، على ماتقتضى الفلسفة المدروسة والمنطق الموضوع ، وفرق مابينه وبين الكتب التى جاءت بعد عصره كفرق مابين كتاب فى الفتوى وكتاب فى القانون . ذاك يجمع

---

(١) راجع الصفحة : ٣٤ من هذا الكتاب .



جزئيات يدرسها ويصنفها ويصدر أحكاماً فيها ، والآخر يجمع كليات يصنفها ويثقفها لنطبق على الجزئيات .

ومعلوم أن لكل باب فى كتاب ، بل لكل مسألة فى باب مقتضيات خاصة وطبيعة متميزة قليلا أو كثيراً ، وإذن لاينتظر أن يعالج سيبويه أبواب الكتاب ولامسائل الأبواب علاجاً واحداً مطرداً . ومع ذلك يمكن أن يقال على وجه الإجمال : إنه فى تصنيف الكتاب كان يتجه إلى فكر الباب كما تتمثل له ، فيستحضرها ، ويضع المعالم لها ، ويتعرف حاجتها من الأمثلة والنصوص ، فيجمعها ، ويصنفها . ثم يعرضها جملة أو آحاداً ، وينظر فيها تصعيداً وتصويباً ، يحلل التراكيب ، ويؤول الألفاظ ، ويقدر المحذوف ، ويستخلص المعنى المراد.

وفى خلال ذلك يوازن ويقيس، ويذكر ويعد ، ويستفتى الذوق، ويستشهد الشواهد ، ويلتمس العلل ، ويروى القراءات وأقوال العلماء ، إما لمجرد التقصى والاستيعاب ، وإما للمناقشة وإعلان الرأى ، وربما طاب له الحديث وأغراه البحث ، فمضى ممعناً متدفقا ، يستكثر من الأمثلة والنصوص حتى تنقطع أو يدركه البهر . واللغة عنده دائما وحدة متماسكة ، يفسر بعضها بعضا ، ويقاس بعضها على بعض .

استمع إليه يتحدث فى باب من أبواب أنّ : « تقول : جئتك أنك تريد المعروف ، إنما تريد لأنك تريد المعروف ، ولكنك حذفت اللام هاهنا كما تحذفها من المصدر ، إذا قلت :

وأغفر عوراء الكريم ادخاره وأعرض عن ذنب اللئيم تكرما(١)

أى لادخاره . وسألت الخليل عن قوله جل ذكره : « وأن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاتقون» . فقال : إنما هو على حذف اللام ، كأنه قال : ولأن

---

(١) البيت لحاتم الطائى .



هذه .. وقال: نظيرها «لإيلاف قريش» ؛ لأنه إنما هو لذلك فليعبدوا، فإن حذفت اللام من أن فهو نصب ، كما أنك لو حذفت اللام من لإيلاف كان نصبا ،

هذا قول الخليل، ولو قرءوها : «وإن هذه أمتكم أمة واحدة» كان جيداً ، وقد قرىء . ولو قلت : جئتك إنك تحب المعروف مبتدئا كان جيداً ، وقال سبحانه وتعالى «فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر» ،وقال : «ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه أنى لكم نذير مبين» ، إنما أراد بأنى مغلوب[١] ... » .

على أن سيبويه لم يكن يمضي قصدا إلى هدفه فى كل باب ، فربما استطرد وأوغل فى الاستطراد ، حتى ليخيل إليك أنه عدل عن موضوعه وأخذ فى غيره ، كأنه النهر الزاخر الفياض ، لا يلتزم مجراه فى كل حين ، بل ربما طغى عليه ، واتخذ من أحد جانبيه مجرى إلى وجه آخر فى المرحلة بعد المرحلة .

ومن ذلك قوله فى الكلام عن كان وأخواتها : « ومثل قولهم ماجاءت حاجتك[٢] إذ صارت تقع على مؤنث: قراءة بعض القراء : «ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا» ، و«تلتقطه بعض السيارة» . وربما قالوا فى بعض الكلام : ذهبت بعض أصابعه ، وإنما أنث البعض لأنه أضافه إلى مؤنث هو منه ، ولو لم يكن منه لم يؤنثه ، لأنه لو قال : ذهبت عبد أمك لم يحسن . ومما جاء مثله فى الشعر قول الأعشى :

وتشرق بالقول الذى قد أذعته ... كما شرقت صدر القناة من الدم[٣]

لأن صدر القناة من مؤنث ، ومثله قول جرير[٤] ...

---

(١) الكتاب : ١ : ٤٦٤ — ٤٦٥

(٢) هو فى معنى أى حاجة صارت حاجتك ؟ وحاجتك بالنصب خبر جاء . واسمها يعود على ما . وأنث لأن ما واقعة على الحاجة، ويجوز الرفع على أن حاجة اسم جاء . وما الخبر ؛ (راجع شرح الأشمونى على الألفية : ١ : ١٨٨) .

(٣) يخاطب يزيد بن مسهر الشيبانى . وكانت بينهما مهاجاة .

(٤) الكتاب : ١ : ٢٥

فقد صار من الكلام عن قول العرب : ما جاءت حاجتك ـ إلى الكلام عن المضاف حين يكتسب التأنيث من المضاف إليه، لهذه المناسبة اليسيرة، ومضى يتابع الكلام ويتوسع فى الاستشهاد ما شاء . ولولا خوف الإطالة لجئنا بكل ما قال فى هذا المقام ، ولعل فيما نقلنا دلالة عليه وغناء منه .

ولم يسلم سيبويه من المآخذ . فى بعض ما درس وبعض ما نقل ، وهيهات أن يسلم منها سالم . ولا سيما فى عمل ضخم كهذا ، كثير الشعب ، متعدد الأعمال والأسباب ، فالعصمة لله وحده ، ومن يأمن الخطأ والجهل ، فربما لا يأمن الغفلة أو النسيان .

فمن ذلك قوله : « ومن قال : هذا الضارب الرجلِ قال : هذا الضارب الرجل وعبدِ الله . ومن ذلك إنشاد بعض العرب قول الأعشى :

الواهب المائةِ الهجان وعبدِها عوذا تزجى بينها أطفالها(١)

وفرق بين المثال والبيت ، فعبد الله فى المثال لم يضف إلى ضمير ما فيه الألف واللام حتى يكون معطوفا على الضارب ، ولا كذلك (عبدها) فى البيت ؛ لأنه مضاف إلى ضمير المائة ، وضميرها بمنزلتها ، فكأنه قال : الواهب المائة وعبد المائة . وهذا جائز لا كلام فيه ولا خلاف .

وقوله : « . . . ولكن تكون بمنزلة اسم مبتدأ ، وذلك قولك : ما أظن أحداً هو خير منك . . . فلم يجعلوه فصلا وقبله نكرة ، كما أنه لا يكون وصفاً ولا بدلا لنكرة . . . لأنها معرفة ، فلم تصر فصلا إلا لمعرفة . . . وأما أهل المدينة فينزلون: هو ها هنا بمنزلته من المعرفتين ، ويجعلونها فصلا فى هذا الموضع. وزعم يونس أن أبا عمرو رآه لحناً ، وقال : احتبى ابن مروان فى هذه فى اللحن .

---

(١) الهجان : البيض ، وهى أكرم الإبل. عوذ : حديثات النتاج ، جمع عائذ (الكتاب ١ : ٩٣ - ٩٤) .

ويعلق السيرافى على ذلك فيقول : « هذا الكلام إذا حمل على ظاهره غلط وسهو ، لأن أهل المدينة لم يحك عنهم إنزال هو فى النكرة منزلتها فى المعرفة والذى حكى عنهم : « هؤلاء بناتى هن أطهرَ لكم » . وهؤلاء بناتى جميعاً معرفتان، وأطهر لكم منزل منزلة المعرفة فى باب الفصل . والذى أنكر سيبويه أن يجعل ما أظن أحداً هو خيراً منك فصلا ، وليس هذا مما حكى عن أهل المدينة »[١].

فسيبويه يجعل مثاله كالآية فى قراءة أهل المدينة ، ويعزو إليهم أنهم إذن لا يفرقون فى الفصل بين النكرة والمعرفة ، والسيرافى ينكر عليه ، ويبين ما بين المثال والآية من فرق . وللزمخشرى فى المسألة رأى آخر ، إذ يجعل المأخذ فى قراءة أهل المدينة من قبل أنها تفصل بين الحال وصاحبه ، وإنما يكون الفصل بين جزأى الجملة خاصة . كأنه أراد بما يقول أن يفسر قول عيسى بن عمر ، ويحتج لرأيه فى القراءة .

على أنه عاد فأعرب الآية إعراباً آخر ، لا فصل معه ألبتة ، فجعل هؤلاء مبتدأ ، وبناتى هن جملة فى موضع الخبر ، كقولك : هذا أخى هو ، ويكون أطهر حالا[٢] ، فأيد بذلك السيرافى من وجه آخر .

وفى بغية الوعاة أن أبا حيان « كان يعظم ابن تيمية ، ثم وقع بينه وبينه مسألة نقل فيها أبو حيان شيئا عن سيبويه ، فقال ابن تيمية : وسيبويه كان نبى النحو ؟ لقد أخطأ سيبويه فى ثلاثين موضعا من كتابه ، فأعرض عنه ، ورماه فى تفسيره النهر بكل سوء »[٣] .

وتدل القصة بفحواها على أن أبا حيان قد نال من صاحبه فى المجادلة ، واستطاع أن يأخذ عليه السبل فيها ، فهو لهذا غاضب ، يريد أن يفثأ الغضب ، ومحرج يود لو يذهب عنه الحرج . وزاده إلى ما به أن رآه يستنصر سيبويه فينصره ، حتى

---

(١) الكتاب : ١ : ٣٩٧ بالحاشية (٢) راجع الكشاف : ١ : ٤٤٨ .

(٣) بغية الوعاة : ١٢١ .



كان ذلك منه بمثابة القطرة التي يفيض بها الكأس ، فما كاد يسمع اسم سيبويه والرأي الذي أعانه به حتى ترك صاحبه ، وهجم عليه يأخذه بما لا ذنب له فيه ولا نفع للقضية منه .

فما كان سيبويه يعلم بظهر الغيب أن سيكون بين هذين العالمين جدال ، فأشفق منه على أبي حيان ، واضطر أن ينحاز إليه ، وأن يصنع له مقالة يستعين بها على صاحبه، وما جدوى القضية التي يختلفان فيها من تخطئه سيبويه فى مسائل أخرى ليست منها فى شيء ، ما دامت مقالته فى القضية صائبة ، وما دام هو لا يجد فيها مأخذا ؟ وما معنى أن ينفى عن سيبويه النبوة فى النحو ؟ أسمع صاحبه يزعمه نبيا ، وينسب إليه المعجزات فيه ؟

وما بنا من حاجة إلى الاسترسال فى هذا وأشباهه ، فالرجل كما قلنا كان غاضبا محرجا ، وعسير على الإنسان عند الغضب وحين اللجاج فى المحاجة أن يكون فى قوله مقتصداً وفى حكمه منصفا ، وما أعتقد أن ابن تيمية بعد أن سكن غضبه وهدأت نفسه كان هانئا طيب النفس ، بما بدر منه لرجل لا ذنب له ولا تبعة عليه فيما أصابه من أبي حيان .

وكنا نود على كل حال لو عرفنا مواضع هذه الأخطاء من الكتاب ، فنرجع إليها ، ونعلم من أى أنواع الخطأ كانت ؟ أهى الخطأ الصراح لا مكان فيه لمراجعة ولا وجه له من صحة ، أم هى الخطأ فى الرأى الخاص ، يمكن أن تتخالف فيه الأنظار وتتجاول الآراء ؟

تعليلاته :

كان سيبويه يستمد تعليلاته للمسائل التى يعرضها ، والآراء التى يراها من كل ما يمكن أن تستمد منه التعليلات ، إلا حقائق الفلسفة وقضايا العلوم ، فهذه وتلك مما لم يكن بلغ أشده بعد ، فيكون له فى النحو أثر ، وفى تفكير

النحويين عمل على نحو ما كان له بعد ذلك فى شتى الأجيال والعصور .

كان يلتمس علله من حكم العدل ، ومراعاة الأصل ، ودفع اللبس ، ومراد المتكلم ، وحال المخاطب ، وطبيعة الشيء ، وغلبة الكثرة ، ومقتضى المشابهة والخلاف ، وهلم جرا . فتراه يقول لتعليل عدم دخول الجزم فى الأسماء : « وليس فى الأسماء جزم لتمكنها ، وللحاق التنوين ، فإذا ذهب التنوين لم يجمعوا على الاسم ذهابه وذهاب الحركة »[١] .

ويقول لتعليل اختصاص الاستفهام بالأفعال ، وقبح دخوله على الاسم حين يكون الفعل فى حيزه : « وحروف الاستفهام كذلك بنيت للفعل ، إلا أنهم قد توسعوا فيها فابتدءوا بعدها الأسماء ، والأصل غير ذلك . ألا ترى أنهم يقولون : هل زيد منطلق ؟ وهل زيد فى الدار ؟ وكيف زيد آخذ ؟ فإن قلت : كيف زيداً رأيت ؟ وهل زيد يذهب قبح ، ولم يجز إلا فى شعر ، لأنه لما اجتمع الفعل والإسم حملوه على الأصل »[٢] .

ويقول لتعليل امتناع حذف الفعل حين تأمر به غائبا أو تنهاه عنه : « وكذلك لا يجوز زيدا ، وأنت تريد أن أُبلغه أنا عنك أن يضرب زيدا ، لأنك إذا أضمرت فعل الغائب ظن السامع الشاهد إذا قلت : زيدا — أنك تأمره هو بزيد ، فكرهوا الإلتباس ها هنا ككراهيتهم فيما لم يؤخذ من الفعل نحو عليك — أن يقولوا : عليه زيدا[٣]... » .

ويقول لتعليل امتناع نصب الاسم مفعولا معه حين لا يتفق مع المراد ، « وأنت أعلم وربك وأشباه ذلك فكله رفع ، لا يجوز فيه النصب ؛ لأنك إنما تريد أن تخبر بالحال التى فيها المحدث عنه فى حال حديثك ، فقلت : أنت الآن

---

(١) الكتاب : ١ : ٣ .

(٢) المصدر السابق : ٥١ .

(٣) المصدر السابق : ١٢٩ .



كذلك ، ولم ترد أن تجعل ذلك فيما مضى ولا فيما يستقبل ؛ وليس موضعا يستعمل فيه الفعل[١] » .

ويقول لتعليل جعل (تقول) فى الاستفهام كتظن : « . . تقول فى الاستفهام شبهوها بتظن ، ولم يجعلوها كأظن ويظن فى الاستفهام ، لأنه لا يكاد يستفهم المخاطب عن ظن غيره ، ولا يستفهم هو إلا عن ظنه[٢] » .

ويقول لتعليل منع الأسد ونحوه أن يكون له علم شخص كالإنسان : « وإنما منع الأسد وما أشبهه أن يكون له اسم معناه معنى زيد — أن الأسد وما أشبهه ليست بأشياء ثابتة مقيمة مع الناس ، فيحتاجوا إلى أسماء يعرفون بها بعضها من بعض ، ولا تحفظ حلاها كحفظ ما يثبت مع الناس ويقتنونه ويتخذونه . ألا تراهم قد اختصوا الخيل والإبل والغنم والكلاب وما ثبت معهم واتخذوه — بأسماء كزيد وعمرو ؟[٣] » .

ويقول لتعليل حذف الفعل فى التحذير حين العطف : ومن ذلك قولهم : « ماز[٤] رأسك والسيف كما تقول : رأسك والحائط وهو يحذره ، كأنه قال : اتق رأسك والحائط . وإنما حذفوا الفعل فى هذه الأشيال حين ثنوا لكثرتها فى كلامهم واستغناء بما يرون من الحال وبما جرى من الذكر[٥] » .

ويقول لتعليل حذف رب : « ولا يجوز أن تضمر الجار ، ولكنهم لما ذكروه فى أول كلامهم شبهوه بغيره من الفعل ، وكان هذا عندهم أقوى إذا أضمرت رب ونحوها فى قولهم :

وبلدة ليس بها أنيس[٦]

نعم ، تراه يقول هذا وأشباهه لتعليل المسائل والآراء ، ولكنك لا تراه

---

(١) الكتاب : ١ : ١٥٤ (٢) المصدر السابق : ٦٢

(٣) المصدر السابق : ٢٦ (٤) أصل ذلك فيما يقول الأصمعى : أن رجلا يقال له مازن أسر رجلا : وكان رجل يطلب المأسور بذحل ، فقال مازن : ماز ، أى يا مازن رأسك والسيف ، فنحى رأسه فضرب الطالب عنق الأسد (مجمع الأمثال : ٢ : ٢٠٨) . (٥) الكتاب : ١ : ١٣٨

(٦) المصدر السابق : ١٣٣ ، وينسب البيت لجران العود .



يقول مثل ما قال النحويون من بعده لتعليل امتناع مثل قولك لمخاطبك : اضربتك ، أو قولك عن نفسك : ضربتُنى : « وذلك لأن المفعول الصحيح ما اخترعه فاعله وأخرجه من العدم إلى الوجود ، نحو خلق الله للأشياء ومايفعله الإنسان من القعود والقيام . ولا يجوز أن يكون الفاعل فى ذلك مفعولا ؛ لأنه لابد من أن يكون الفاعل موجودا قبل وجود المفعول(١) » .

ولا تراه كذلك يقول مثل قولهم لتعليل حذف الفاء بعد أما فى قوله تعالى : « فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم) : « الأصل فيقال لهم : أكفرتم ، فحذف القول استغناء عنه بالمقول ، فتبعته الفاء فى الحذف . ورب شىء يصح تبعاً ولا يصح استقلالا ، كالحاج عن غيره يصلى عنه ركعتى الطواف . ولو صلى أحد عن غيره ابتداء لم يصح على الصحيح(٢) » .

ولا مثل قولهم لتعليل أن العامل فى الحال عند تعدده هو مجموع العاملين أو العوامل : « ويظهر أن العامل فى الحال عند تعدد العامل مجموع العاملين أو العوامل ؛ لئلا يلزم اجتماع عاملين أو عوامل على معمول واحد(٣) » . أو مثل قولهم لتعليل إضافة أسماء الزمان خاصة إلى الأفعال : « واختص الزمان بذلك من بين سائر الأسماء لملابسة بين الفعل وبينه ؛ وذلك لأن الزمان حركة الفلك ، والفعل حركة الفاعل(٤) .. » .

نعم لا تراه يقول أمثال ذلك فى تعليلاته لأن أوانها لم يكن آن بعد .

مصطلحاته :

لم يكن للنحو كما يتمثل فى الكتاب ـ مصطلحات ثابتة مستقرة ، يلتزمها سيبويه هنا وهناك فى شتى المواطن والمناسبات ، وكل ما كان من ذلك على وجه

---

(١) الكتاب : ١ : حاشية الصفحة : ٣٨٥ (٢) المغنى : ١ : ٤٩ - ٥٠
(٣) حاشية الصبان على شرح الأشمونى للألفية : ٢ : ١٤٢
(٤) الأشباه والنظائر : ١ : ٩٢



الإجمال أسماء عابرة وتراكيب متغيرة ، لا تكاد تثبت على لفظ واحد أو صورة واحدة إلا قليلا، مثلها كمثل المفردات المترادفة والتراكيب المتنوعة، تتوارد على معنى واحد . والمفهوم أن سيبويه لم يكن وحده صاحب هذه المفردات والتراكيب جميعاً ، فليس هو واضع النحو الأول، وإن كان لبانيه ومعلى بنائه في العلوم . وهو حقيق أن يكون نصيبه منها على مقدار ما كان له في إقامة النحو من نصيب .

ويدل نظر سيبويه إليها وصنيعه بها على أنه لم يدر بخلده ، وربما لم يدر كذلك بخلد أحد من شيوخه حين قالوا هذه المصطلحات - أن يجعلوا استعمالها على صورة واحدة أمراً مقضياً . وإلا فما لسيبويه أولا لم يلتزمها ، ثم ما له آخرا خالف شيوخه ، ودعا بما عمل إلى خلاف ما دعوا إليه إذا كان هو الذى تمرد عليها، وجرى على غير سننهم فيها .

وعلى كل حال لقد قدر لبعض هذه المصطلحات كما نسميها — أن تبقى على الزمن ، وتتخطى العصور والأجيال حتى تصل إلينا كما قالها أصحابها الأولون . ومنها : الاسم ، والفعل ، والحرف ، والتنوين ، والحال ، والاستثناء ، والنداء ، والترخيم ، والندبة ، واسم الفاعل ، والصفة المشبهة به ، وغيرها . ومن التى لم يكتب لها البقاء كالتى سلفت : تسمية أنواع الإعراب والبناء بمجارى أواخر الكلم [١] ، وتسميه الصلة بالحشو [٢] ، وأسماء الأفعال بالحروف التى للأمر والنهى وليست بفعل [٣] ، وفك الادغام بالبيان [٤] .

ومن المصطلحات التى لم يقدر لها البقاء ما أخذ اسمه المستعمل الآن من كلام سيبويه عنه، وافتتانه فى تسميته ، وذلك كالصلة والتصغير ، فبعد ما سمى الصلة حشوا ، وأدار أكثر الكلام عليها بهذا الاسم — عاد فقال : « فكما أن الذى لا يكون إلا معرفة لا يكون ما ومن إذا كان الذى بعدهما حشوا ، وهو

---

(١) الكتاب ١ : ٢ (٢) المصدر السابق : ٢٦٩

(٣) الكتاب : ٢ : ١٥٨ (٤) المصدر السابق : ٤٠٨

الصلة إلا معرفة ، وتقول : هذا من أعرف منطلق فتجعل أعرف صفة ، وتقول هذا من أعرف منطلقا، تجعل أعرف صلة»[١] . وقد سمى التصغير تصغيراً وتحقيراً ، فعاش الاسم الأول ومات الآخر أو كاد .

ومن أمثلة تحرر سيبوية من التزام المصطلحات بلفظ واحد ـ أنه يسمى التنوين تنويناً فى قوله عن زيادتى المثنى « وتكون الزيادة الثانية نوناً كأنها عوض لما منع من الحركة والتنوين[٢] ... » ، ويسميه نونا فى قوله : « وتقول هذا ضارب عبد الله وزيدا يمر به ، إن حملته على المنصوب ، فإن حملته على المبتدأ وهو هذا رفعت ، فإن ألقيت النون وأنت تريد معناها فهو بتلك المنزلة[٣] ... » ويعود فى الباب نفسه فيسميه تنوينا إذ يقول : « وتقول : هذا ضارب القوم حتى زيداً يضربه إذا أردت معنى التنوين[٤] » .

ويسمى حروف القسم فى عنوانها حروف الإضافة إلى المحلوف به ، ولكنه فى أثناء الحديث عن حذفها يسميها حروف الجر والإضافة فيقول : « واعلم أنك إذا حذفت من المحلوف به حرف الجر نصبته ، كما تنصب حقا إذا قلت : إنك ذاهب حقا ، فالمحلوف به مؤكد به الحديث ، كما تؤكده بالحق ، ويجر بحروف الإضافة كما يجر حق إذا قلت : إنك ذاهب بحق[٥] » .

ويعتبر باب التصغير أوضح الأمثلة لتحرر سيبويه من قيد الاصطلاح ، فقد سماه فى العنوان العام بالتصغير ، فقال : (باب التصغير[٦]) ، والتزم هذه التسمية فى أربعة من عنوانات الفروع ، ولكنه جعل فى البقية يسميه التحقير كثيراً والتصغير قليلا ، وجمع بينهما مرة فى عنوان واحد ، فقال : (هذا باب ما يحذف فى التحقير من بنات الثلاثة من الزيادات لأنك لو كسرتها للجمع لحذفتها وكذلك

---

(١) الكتاب : ١ : ٢٧٠ (٢) المصدر السابق : ٤
(٣) المصدر السابق : ٤٨ (٤) المصدر السابق : ٥٠
(٥) الكتاب : ٢ : ١٤٣ — ١٤٤ (٦) المصدر السابق : ١٠٥

تحذف فى التصغير[١]) . وجعل فى أثناء الحديث عنه يذكره تارة باسم التصغير وأخرى باسم التحقير .

وإذا كان هذا النوع من الأسماء تبدو فيه محاولة الوضع والاصطلاح ، فإن ثمة أسماء أخر لا يبدو فيها أثر لشىء من ذلك ألبتة كقوله فى عنوان التنازع : « هذا باب الفاعلين والمفعولين اللذين كل واحد منهما يفعل بفاعله مثل الذى يفعل به وما كان نحو ذلك[٢] » ، وقوله يعبر عن المركب المزجى : « هذا باب تحقير كل اسم كان من شيئين ضم أحدهما إلى الآخر ، فجعلا بمنزلة اسم واحد[٣] » وعن اسم الجمع : « هذا باب تحقير ما لم يكسر عليه واحد للجمع ، ولكنه شىء واحد يقع على الجميع ، فتحقيره كتحقير الاسم الذى يقع على الواحد لأنه بمنزلته إلا أنه يعنى به الجمع »[٤] .

فهو هنا لا يتجه كما ترى إلى التسمية ووضع المصطلحات ، ولكنه يصف المسميات ويعبر عن الخصائص التى تدل عليها وتميزها من سواها . وقد وفق هنا فيما قصد إليه من ذلك ، ولكنه لم يوفق مثله فى وصف المفعول لأجله والتعبير عن خصائصه ، إذ يقول : « هذا باب ما ينتصب من المصادر لأنه عذر لوقوع الأمر ، فانتصب لأنه موقوع له ، ولأنه تفسير لما قبله لمَ كان ، وليس بصفة لما قبله ولا منه ، فانتصب كما انتصب الدرهم فى قولك عشرون درهما[٥] » .

فكلمة عذر فى هذا المقام ليست أمثل كلمة ولا أحقها بالاستعمال ، وبقية العنوان شاهدة على ذلك ، فإن قوله « لأنه موقوع له ، ولأنه تفسير لما قبله لم كان » يقتضى أن يستعمل كلمة سبب أو علة ، بدل كلمة عذر ، ولكن كلتيهما غابت عنه ، أو لم تعجل إليه فيما يظهر ، فكانت كلمة العذر بمكانهما ، تناولها غير ناظر إليها ولا طالب لها .

---

(١) الكتاب : ٢ : ١١٠ .

(٢) الكتاب : ١ : ٣٧ .

(٣) الكتاب : ٢ : ١٣٤ .

(٤) المصدر السابق : ١٤٢ .

(٥) الكتاب : ١ : ١٨٤ .



وكان من أثر ذلك أن طالت العنوانات ، وغمضت عبارة الكتاب ، وخفى المراد منها فى كثير من الأحيان ، ولا سيما على من لم يتمرس بها ويكثر من ترداد النظر فيها . وقد رأيت آنفاً أمثلة من هذه العنوانات . وهاك مثالا من العبارات قوله : « ومنه أيضاً مررت برجلين : مسلم وكافر ، جمعت الاسم وفرقت النعت [١] » .

فليس يريد بجمعت هنا الجمع الاصطلاحى، كما قد يسبق إلى الفهم بادئ الرأى ، ولكنه يريد أنك جئت بالاسم على صورة التثنية والاجتماع فى اللفظ ، ولم تجئ به على صورة الإفراد والتفريق بين شقيه.

ترتيبه :

جمع سيبويه النحو والصرف فى الكتاب ، ولكنه جعل لكل مكاناً منه لايشركه الآخر فيه أو يكاد ، وبدأ بالنحو وثنى بالصرف ، صنيع من يراهما علمين عددا وموضوعا ، وعلماً واحدا قصدا وغاية . وهو رأى لاجرم صحيح ، فالنحو علم يدرس أواخر الكلمات ، والصرف علم يدرس بنيتها . وكلاهما عون على فهم العربية ومحاكاة العرب فى التعبير . ويأخذ بهذا الرأى أكثر النحويين ، ويجرون فى تصنيف القواعد على مقتضاه .

وقد بدأ فى عرض أبواب النحو بأشتات من الموضوعات ، يمهد ببعضها للنحو ، ويقدم بعضها الآخر بين يديه ، وخص كلا بباب ، فتكلم عن أقسام الكلمة وعلامات الإعراب والبناء والمعرب والمبنى ، وعن المسند والمسند إليه ، وعن أحوال اللفظ مع معناه اتفاقا واختلافا ، وعن الأغراض التى تصيب اللفظ من الحذف والاستغناء والتعويض ، وعن علاقة المعنى فى استقامته وإحالته ، وفى حسنه وقبحه بتأليف الكلام ونظمه ، وعما يحتمل الشعر من الضرائر .

وهذه كما لايخفى مسائل عامة ، يدور عليها البحث ويتضح بها القصد فى جملة

---

(١) المصدر السابق : ٢١٤ .



الأمر ، ولكنها ليست سواء فى المنزلة من النحو والصلة به ، فأقسام الكلمة وعلامات الإعراب والبناء والمعرب والمبنى أكثر من أختها دورانا، وأدخل فى النحو مكانا . ولهذا يبدو أنها كانت أحق بمكانها من الكتاب ، فتكون بمثابة المدخل إليه ، وتكون الأخرى بمثابة التوطئة له والتمهيد .

وإذ يخلص من ذلك يجمع عنوانات المباحث المتشابكة فى باب واحد ، يجعله بمثابة الفهرس لها ، ثم يعود فيتحدث عنها ويفصل أحكامها بابا بابا : فهرس للفعل وما يشبهه ، وفهرس للمنصوبات ، وفهرس للتوابع ، وفهرس للضمائر ، وهو حين يُفصل الكلام على موضوعات الفهارس لا يقتصر عليها ، ولكنه يستطرد منها إلى غيرها فى كثير من الأحيان . وتختلف الفهارس طبعا فى الطول والقصر ، لتفاوت أنواع المباحث المتماثلة فى القلة والكثرة . وهذا مثلا أول الفهارس وهو كذلك أطولها :

(هذا باب الفاعل الذى لم يتعده فعله إلى مفعول ، والمفعول الذى لم يتعد إليه فعل فاعل ولا تعدى فعله إلى مفعول آخر ، وما يعمل من أسماء الفاعلين والمفعولين عمل الفعل الذى يتعدى إلى مفعول ، وما يعمل من المصادر ذلك العمل وما يجرى من الصفات التى لم تبلغ أن تكون من القوة، كأسماء الفاعلين والمفعولين التى تجرى مجرى الفعل المتعدى إلى مفعول مجراها ، وما أجرى مجرى الفعل وليس بفعل ولم يقو قوته ، وما جرى من الأسماء التى ليست بأسماء الفاعلين التى ذكرت لك ولا الصفات التى هى من لفظ أحداث الأسماء ، ويكون لأحداثها أمثلة لما مضى وما لم يمض ، وهى التى لم تبلغ أن تكون فى القوة كأسماء الفاعلين والمفعولين التى تريد بها ما تريد بالفعل المتعدى إلى مفعول مجراها وليس لها قوة أسماء الفاعلين التى ذكرت لك ولا هذه الصفات ، كما أنه لا يقوى قوة الفعل ما جرى مجراه وليس بفعل[1]) .

---

(١) الكتاب : ١ : ١٢ .



وهذا مثلا آخر فهرس من الفهارس الموجزة : (هـذا باب مجرى علامات المضمرين وما يجوز فيهن) وسنبين ذلك إن شاء الله[١] .

وربما وصل الفهرس بأول موضوعاته ، لايختص كلا بباب كما فعل بالفهرسين السابقين . قال : (هذا باب مجرى النعت على المنعوت ، والشريك على الشريك والمبدل على المبدل منه ، وما أشبه ذلك) ، فأما النعت الذى جرى على المنعوت فقولك : مررت برجل ظريف[٢] .

وجرى فى فهرس المنصوبات على نمط لم يجر عليه فى سائر الفهارس ، ذكر بعض موضوعاته أول ماذكر مستقلا بباب ، فقال : (هـذا باب ماينتصب على إضمار الفعل المتروك إظهاره استغناء عنه) ، وسأمثله لك مظهرا لتعلم ماأرادوا إن شاء الله تعالى[٣] .

ومضى بعد ذلك يفصل هذا الإجمال كما وعد ، فذكر ماجرى منه على الأمر والتحذير ، وما حذف فيـه الفعل لكثرته فى الكلام ، وما انتصب على إضمار الفعل فى غير الأمر والنهى[٤] .

وكأنه أحس فى آخر هذا الباب أن ماسماه فهرس المنصوبات قاصر ، لايتناول الأنواع التى تنصب على إظهار الفعل لاعلى إضماره ، فكان لابد له هنا من تدارك مافاته هناك ، ولكنه بدلا من أن يرجع به إلى الفهرس الأول يضيفه إليه ويتمه به ـ راح يذكره هنا بالموضع الذى تذكره فيه فقال :

« فاعرف فيما ذكرت لك أن الفعل يجرى فى الأسماء على ثلاثة مجار : فعل مظهر لايحسن إضماره ، وفعل مضمر مستعمل إظهاره ، وفعل مضمر متروك إظهاره . أما الفعل الذى لايحسن إضماره فإنه أن تنتهى إلى رجل لم يكن فى ذكر ضرب ولم يخطر بباله، فتقول : زيدا ، فلابد له من أن يقول: اضرب زيدا ، وتقول :

---

(١) الكتاب : ١ : ٢٧٧ (٢) المصدر السابق : ٢٠٩ .
(٣) المصدر السابق: ١٣٨ (٤) راجع الكتاب : ١ : ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٤٦ على الترتيب .



قد ضربت زيدا ، أو يكون موضعا يقبح أن يعرى من الفعل نحو أن وقد وما أشبه ذلك . وأما الموضع الذى يضمر فيه وإظهاره مستعمل فنحو ذلك : زيدا لرجل فى ذكر ضرب ، تريد اضرب زيدا . وأما الموضع الذى يضمر فيه الفعل المتروك إظهاره فمن الباب الذى ذكر فيه إياك[1] إلى الباب الذى آخره ذكر مرحباً وأهلا[2] . وسترى ذلك فيما تستقبل إن شاء الله .

وفهارس سيبويه على سذاجة فكرتها واختلاف نمطها - تعد دليل ألمعية وآية توفيق ، لا تتهيأ لغير ذى نظرة جامعة وملاحظة واعية وعقل ثقيف . وأحسبه فيها رائداً وإليها سابقاً ، وما هى عليه بعزيزة ولا هى منه بعجيبة .

ويذهب بعض القدماء إلى أن الكتاب ليس له نسق يجرى عليه فى ذكر أبوابه[3] . وهو كذلك بادى الرأى وفى النظرة العاجلة ، ويحسن على كل حال أن نرجع إلى مباحث الفهارس فى تفريعها وتفصيل الكلام عليها ، نتأملها ونجيل الرأى فيها ، ليكون حكمنا على بينة وعن إقناع .

ففى تفصيل فهرس الفعل وشبهه - تكلم عن الأفعال فى لزومها وتعديها ، وفى بنائها للفاعل وبنائها للمفعول ، وفى تنازعها واشتغالها ، وفى تعليقها وإلغائها ، وفى تمامها ونقصها ، وفى حذفها وذكرها . وتكلم عن إعمال المصدر والمشتقات وأسماء الأفعال .

ونلاحظ أنه أحياناً يعقد الأبواب للفاعل أو المفعول ، ولكنه يدير الكلام فيها على حال من أحوال الفعل نفسه ، وأحياناً يعقدها للفعل ويدير الكلام عليه ، فمن الأول قوله : (هذا باب الفاعل الذى يتعداه فعله إلى مفعولين وليس لك أن تقتصر على أحد المفعولين دون الآخر ، وذلك قولك : حسب عبدالله زيدا بكرا . ومن الآخر قوله : (هذا باب الأفعال التى تستعمل وتلغى) فهى ظننت

---

(١) هو باب ماينصب على الأمر والتحذير .

(٢) هو باب ماينتصب على إضمار الفعل المتروك إظهاره فى غير الأمر والنهى .

(٣) راجع كشف الظنون : ٢ : ٢٨١ .



وحسبت وخلت[١]. ونلاحظ أيضاً أنه ألم هنا بالبدل[٢]، وأتم الكلام عليه مع التوابع[٣]، وأنه استطرد من كان وأخواتها إلى عمل ما ولا ولات[٤]، واستطرد من حكم اسم الفاعل فى الاشتغال إلى إعماله وإعمال صيغ المبالغة والمصدر، ثم يعود فيتم حديثه عن الاشتغال[٥]، واستطرد من إعمال الصفة المشبهة إلى تعريف العدد فى أحواله المختلفة[٦]، وأنه فصل بين أحوال المشغول عنه بالأفعال التى تلغى وتستعمل وبالفعل (تقول) حين يعمل عمل ظن[٧].

وفى تفصيل فهرس المنصوبات تكلم عن التحذير والإغراء وأنواع المفعول وعن الحال، وفى فهرس التوابع تكلم عن النعت والعطف بحروف التشريك وعن البدل.

ونلاحظ هنا أنه تكلم عن الجر قبل التوابع[٨]، ومهد للحديث عن نعت المعرفة بالحديث عن المعارف[٩]، وتكلم عن النوابع وجريانها على المتبوعات فى حال الجر وحدها[١٠]، وتكلم بعد التوابع عن المبتدأ، وإن وأخواتها، وكم، وكذا، والتمييز، والنداء، والاستغاثة، والندبة، والاختصاص، ولا النافية للجنس، والاستثناء.

وفى تفصيل فهرس الضمائر تكلم عن مواقعها من الإعراب، وأحوالها فى الاتصال والانفصال والتتابع والتوكيد، ومتى تكون فصلا ومتى لا تكون، وتكلم بعدها عن أى، والحكاية، والنواصب والجوازم، وتوكيد الفعل، والحروف التى تتصل به، والكلمات التى لا تدخل إلا عليه والتى تدخل عليه وعلى الاسم، والأسماء التى تضاف إليه.

---

(١) الكتاب : ١ : ١٨، ٦١.
(٢) المصدر السابق : ٢٨.
(٣) المصدر السابق : ٧٥، ٢١٨.
(٤) المصدر السابق: ٢٨ - ٣٣.
(٥) المصدر السابق ٥٥ - ٦٠.
(٦) المصدر السابق: ١٠٥ - ١٠٨.
(٧) المصدر السابق ٦١ - ٦٤.
(٨) المصدر السابق :٢٠٩.
(٩) المصدر السابق : ٢١٩.
(١٠) المصدر السابق:٢٠٩- ٢١٩.



وأعتقد أن سيبويه فى جمع مباحث الفهرس الأول وتنسيقها كان ينظر أصلا إلى الفعل المذكور فى الكلام ؛ أن كان البناء عليه والإسناد حاصلا به ، وهو لا يكف عن طلب المسند إليه مهما كان نوعه ، وكائناً ماكان الأسلوب الذى يدور عليه حكم الاشتغال . أما المفعول لحاله معه غير الحال ، فمن الفعل لازم وملغى ، ومنه متعد يطلب واحداً أو أكثر من واحد . وهو إذ يكون الكلام عن الفعل المبنى للفاعل يعقد الباب للفاعل ، وإذ يكون عن المبنى للمفعول يعقد الباب للمفعول ؛ رعاية لحاله قبل تحويل الإسناد إليه ، وتفرقة بينه وبين الفاعل الأصيل.

ولما أن أراد الكلام على كان وأخواتها ـ نظر فإذاهى من جانب ترفع وتنصب، كما يرفع بعض الأفعال وينصب ، وإذا هى من جانب آخر ذات خصيصة أفردت بها بين الأفعال : أن مرفوعها ومنصوبها لشىء واحد ، فأجرى الكلام عليها مع عموم الأفعال ؛ استجابة للصلة التى تربطها بها ، وجعل لها عنواناً متميزاً يجعلها معزولة عن سائر الأفعال ؛ استجابة لداعية الصفة التى خلصت لها من دون الأفعال، ولم يفته أن يذكر سبب هذا الصنيع، ولا أن يبين الفرق بينها وبين الأفعال عامة، ثم بينها وبين ظن وأخواتها خاصة ، فقال : (هذا باب الفعل الذى يتعدى اسم الفاعل إلى اسم المفعول ، واسم الفاعل والمفعول فيه لشىء واحد) ، فمن ثم ذُكر على حدته ، ولم يذكر مع الأول ، ولا يجوز فيه الاقتصار على الفاعل ، كما لم يجز فى ظننت الاقتصار على المفعول الأول ؛ لأن حالك فى الاحتياج إلى الآخر هاهنا كحالك فى الاحتياج إلى ثمة ، وسنبين لك إن شاء الله[١] .

ودعته داعية المشابهة فى العمل إلى الكلام هنا على مايعمل عمل كان وليس بفعل مثلها ، وهو ما الحجازية ، ولات ، ولا ، ثم خلص منها إلى فعل التعجب لأنه نوع متميز من الأفعال لايجرى عليه كل مايجرى عليها من أحكام ،

---

(١) الكتاب : ١ : ٢١ .



ولا يتأتى له كل مايتأتى لها من خصائص ، مثله بينها كمثل كان وأخواتها ، وفى العنوان الذى وضعه لها إشارة إلى داعية ذكرها بمكانها ، وإلى الفرق بينها وبين عموم الأفعال . قال : (هذا باب مايعمل عمل الفعل ولم يجر مجرى الفعل ولم يتمكن تمكنه[1]) .

ثم نظر فإذا العامل فى البدل هو العامل فى المبدل منه ، والمعنى معه على تكرار العامل : فجاء به مع الفعل ، لكنه اقتصر فى الحديث عنه هنا على قدر صلة المعنى ، وأرجأ بقية الحديث عنه إلى التوابع ، لأنه واحد منها يجرى عليه مايجرى عليها فى الإعراب ، وهذا قوله فى عنوانه وفى تفسير معناه منه : (هذا باب من الفعل يستعمل فى الاسم ، ثم تبدل مكان ذلك الاسم اسماً آخر فيعمل فيه كما عمل فى الأول) ، وذلك قولك : رأيت القوم أكثرهم ... ورأيت بنى عمك ناساً منهم ... وصرفت وجوهها أولها ، فهذا يجىء على وجهين : على أنه أراد رأيت أكثر قومك ... وصرفت وجوه أولها ، ولكنه ثنى الاسم توكيداً ، كما قال : فسجد الملائكة كلهم أجمعون[2] ...

وتكلم بعد هذا على إعمال المشتقات والمصدر وأسماء الأفعال ، لأن الكلام معها على معنى الفعل وأثرُها فيه كأثره ، فهى منه بالمنزلة التى تلى منزلة كان والتعجب منه .

وفى فهرس المنصوبات ـ يدير القول أولا على الفعل المتروك إظهاره ، كما أداره أولا على الفعل المذكور فى فهرس الأفعال ؛ لأن حذف الفعل هنا أعقب منه منصوباً لايُرى معه غيره ، فهو حقيق أن ينظر إليه أولا ثم إلى المنصوب مع الفعل المذكور ثانياً ، والمفعولات هنا هى المنصوبات حقا ، ولها من المعنى والأحكام ماليس لمفعولات ظن وما إليها من بعض الوجوه ، وليس هنا مجال القول فى ذلك ، فهى إذا أحق أن تسمى المنصوبات ، وأن يدور عليها وحدها

---

(١) الكتاب : ١ : ٣٧ (٢) المصدر السابق : ٧٥



الـكلام . فمضى يقول فى التحذير والإغراء ، وفيما حذف الفعل فيه لأنه صار بمنزلة المثل عندهم ، وفيما ينتصب على إضمار الفعل فى غير الأمر والنهى ، حتى إذا بلغ القول هنا منتهاه — جعل لبقية المنصوبات فهرسا أتم به فهرسها الأول، وعاد إليها يفصل الحديث عنها ، فتحدث عن المفعول معه ، والمفعول المطلق، والمفعول لأجله ، والمفعول فيه .

على أنه بعد المفعول لأجله جرى على عادته من الاستطراد والتتبع، فالمفعول المطلق والمفعول لأجله مصدران ، والمصدر مشترك الاستعمال متنوع الحال والإعراب، فتكلم عنه متصرفا وغير متصرف ، ومضافا وغير مضاف ، ومعرفة ونكرة ، ومبتدأ وخبرا ، وحالا ، ومفردا ومثنى، وتكلم عما ينتصب انتصابه ويقع مواقعه من الأسماء والصفات فى بعض هذه المواطن .

وفى فهرس التوابع يتكلم عن موافقتها للمتبوع فى حال جره ، إلا حين يقتضى البحث مخالفتها له فى الإعراب ، ولهذا مهد للكلام عليها بالكلام عن الجر ، فهو إذا ينظر هنا إلى عامل الجر كما كان ينظر هناك إلى عاملى الرفع والنصب، كأنه رأى أن الإتباع على عامل الجر أولى بالبيان ، لأنه حرف أو إضافة ، فإذا تبعت معه تبعت مع الفعل من باب أولى ، أو كأنه رأى أن الكلام على عاملى الرفع والنصب قد مضى ، واستوفى كلاهما حقه منه كاملا ، فالمجال الآن ينبغى أن يكون لعامل الجر ، فهذا مكانه الذى لا مكان له سواه . ولم يفته التصريح بأنه يعنى إتباع التوابع فى الجر وحده .

قال : (هذا باب ما أشرك بين الاسمين فى الحرف الجار فجريا عليه كما أُشرك بينهما فى النعت فجريا على المنعوت) ، وقال : (هذا باب المبدل من المبدل منه، والمبدل يشرك المبدل منه فى الجر[1]) .

وهو إذا يفرغ من الكلام عن التوابع يتكلم عن الابتداء ، وإن وأخواتها

---

(١) الكتاب : ١ : ٢١٨ .



لأنها عوامل فى المبتدأ ، وليست أفعالا فتذكر فى الأفعال ، ثم يتكلم عن كم ، فهى اسم غير متمكن لأنها مبنية ، وهى تنصب التمييز استفهامية ويبتدأ بها خبرية ، ويتكلم بعدها عن كأين وكذا ، لأنهما يجريان مجرى كم ، ويتكلم عن التمييز ، فبينه وبين كم وأختيها صلة واشجة ، كلٌّ مبهم يعوزه البيان والتبيين ، ويتكلم عن نعم وبئس لجريانهما فى بعض الأساليب على شبه من التمييز والابتداء .

وهو حين يتكلم عن النداء ـ يبدأ لوناً جديداً من أفانين التعبير تعمل الحروف فيه ، وهى يا وأخواتها فى النداء وما يتفرع منه ويتصل به ، ولا النافية للجنس فى النكرة ، وإلا وما بمعناها من الأدوات فى الاستثناء . حتى إذا فرغ من ذلك لم يبق لديه من مسائل النحو إلا مسائل تابعة يتم بها القول فى بعض المباحث السابقة ، فأحوال الضمير ومواقعه من الإعراب ـ تتم ماقال عنه قبلا فى المعرفة ، ونواصب الفعل وجوازمه وتوكيده ـ تتم ماقال عن المضارع وخصائصه بين الأفعال ، ونصيب الأمر فيها قليل لا يستحق أن يحسب له حساب فى الترتيب وعقد الأبواب ، ثم هو محمول على المضارع فى الكثير من أحواله وأحكامه ، فليحمل عليه كذلك فى التوكيد . والقول فى الكلمات التى تتصل بالفعل ، والتى لا تدخل إلا عليه ، والتى تميزت بالإضافة إليه ـ يتم ما قال عن النواصب أصلا وما قال عن سواها تبعاً واستطراداً . والقول فى موانع الصرف يُتم ما قال قبلا عن الاسم وأحواله فى الاعراب .

هذا تأويل الفكرة التى كان سيبويه يرعاها ويصدر عنها فى تنويع مباحث النحو وترتيب أبوابه ، كما تمثلت لى بالنظر والمراجعة فى الكتاب ، مدارها العامل أولا وأخيراً : نظر فى الجملة حين تكلم عن المسند والمسند إليه ، فإذا هى فعلية واسمية ، فتكلم عن الفعل المذكور وما حمل عليه فى العمل ، وعَنى بذلك المرفوع فى حاله الماثلة من الفاعل ونائبه واسم كان وأخواتها ، والمرفوع فى أصله من منصوبات ظن وأخواتها ، ثم تكلم عن الفعل المحذوف والفعل المذكور وأنواع



ما ينصبان من المفعولين، وعن استعمالات المصدر وما حمل عليه ، أخذاً على عادته من التتبع والاستقراء ، ثم تكلم عن عامل الجر وطبق إعماله على النوابع ، وصار من هنا إلى النوع الآخر من الجملة وهو الجملة الاسمية ، فتكلم عن الابتداء ونواسخه، واستطرد إلى الأدوات التى تجرى على شبه منها فى العمل .

وسيبويه يجزىء الموضوعات المتشعبة ، ويفرد كل جزء بباب ، فتكلم عن الاستثناء فى سبعة عشر باباً ، وإن وأن فى ثلاثة عشر ، والترخيم فى اثنى عشر . وهو تشقيق مبالغ فيه، يدل على إهدار الروابط الجامعة ورعاية الفوارق اليسيرة، ولا نعرف لذلك فائدة ، ولا نحسب أن بنا إليه حاجة إلا تشتيت الذهن وتعويق الإحاطة والتحصيل .

ومهما يكن الأمر فهذا النسق كما ترى مخالف لنسق الخالفين فى كتب النحو ، فهم فى جملة الأمر ينظرون إلى أحوال الإعراب ، أى إلى أثر العوامل لا إلى العوامل نفسها ، ويقسمون الأسماء تبعاً لذلك إلى مرفوعات ، ومنصوبات ، ومجرورات، ويفردون كل موضوع بباب . وهو لا جرم أجمع، للشمل وأعون على الربط من نسق سيبويه . والمسألة على كل حال فى الهيئة والشكل لا فى اللباب والصميم .

على أن ثمة أبواباً تبدو فى مواضعها غريبة مقحمة ، لم أستطع أن أجد تأويلا لمقامها حيث تقيم ، فقد تكلم مثلا عن القسم وحروفه بين التصغير ونونى التوكيد[1] ، أى فى الصرف ، مع أنها بالنحو أشبه كما لا يخفى . وتكلم فى باب مستقل عن تركيب واحد من تراكيب الحال[2] فى أثناء الكلام عن النعت وتفصيل أبوابه . ولم أجد فى التركيب ولا فى كلام سيبويه عنه إشارة بادية تدل على أن بينه وبين جيرته شيئاً من صلة ، أو وجهاً من مشابهة .

وربما خطر بالبال أنه نظر فى تعيين مكان القسم إلى ما بعده وهو توكيده

---

(١) الكتاب : ٢ : ١٤٣ - ١٤٦ .

(٢) الكتاب : ١ : ٢٤٧ .



الفعل ، للصلة الوثيقة التى تجمع بينهما . وهو خاطر معقول ، والآخذ به أخذ بصحيح ، لولا أنه يثير الحيرة ويدعو إلى التساؤل من جانب آخر ، فقد قسم توكيد الفعل قسمين ، وجعل أحدهما فى النحو وهو حكم الفعل فى القسم ، وجعل الآخر فى الصرف وهو قضية النونين وأحوال الحرف قبلهما ، فهلا جمع التوكيد كله فى مكان ، ومهد له بالقسم على ما يريد . على أن هذا الخاطر فى واقع الأمر يقتضى أصلا أن يجعل القسم وحروفه مع النحو لا مع الصرف ، فقد تكلم فى النحو على حكم الفعل حين يقع فى القسم ، فالأشبه أن يتكلم أولا عن القسم وبم يكون ؟ ومن يدرى لعل مرجع الأمر فى ذلك إلى اختلاط فى أوراق الكتاب من بعد صاحبه ؟ نتج عنه انتقال بعضها إلى غير المكان الذى كانت فيه .

ويبدو أن النسق الذى أخذ به سيبويه ـ هو الذى ألهم علماء المعانى فكرة انحصار مباحثه فى أبوابه الثمانية المعروفة . وليس يسع المرء وهو يقرأ كلامهم فى ذلك إلا أن يتبين اقتباسهم منه واقتداءهم بهداه[1] .

أما الصرف فالخطب فيه يسير ؛ لتميز أبوابه وانفصال مسائله ، فليس بالمؤلف فيه حاجة ماسة إلى نسق يصدر عنه ، ويأخذ على مقتضاه ، وليس بينه وبين خلفائه فى ترتيب أبواب الصرف خلاف كبير .

شخصية سيبويه فيه :

لم يشأ سيبويه أن يَمَّحِى وجوده أو تخفى شخصيته فى الكتاب ، فيكون مثله فيه كمثل النحلة الكاسبة الدءوب ، تجمع رحيق الأزهار والثمار من المزارع والبساتين، غير واعية لما تصنع ولا مُفْضلة فيه إلا بالجمع والادخار . وأحسب أنه لو كان كذلك ما ضاق مكان القول بالمحسنى الظن به فى تسويغ عمله والاعتذار منه ، وأقرب ما يخطر بالبال من قولهم فى ذلك ـ أن العلم يومئذ كان لا يزال غضاً

---

(١) راجع شروح التلخيص : ١ : ١٦١ - ١٧٢ .



طرباً ، لم يستوف بعد حظه من اليَنع والنماء . فإذا جعل همه منه أن يكف عنه العادية ، وبضرب بينه وبينها بسور جامع محيط ـ فقد أبلى عذرا ، بل لقد أحسن عملا .

ليس سيبويه إذا غائبا عن الكتاب ، ولكنه ماثل فيه لايكاد يغيب إلا في الفينة بعد الفينة ، أو هو في الواقع لايغيب أبدا ، وإنما يحتجب بعض الأحيان حين يروى لك الآثار ، وينقل إليك آراء العلماء ، وقراءات القراء ، فنحسه روحا خافقا وصوتا قائلا ، ولكن لاتراه شخصا ماثلا وعقلا مفكرا إلا من وراء ستار . لذلك لاتكاد تحس معه بالانفراد والوحشة حيثما كنت من الكتاب لطول ملازمته لك ، وكثرة ما يتنقل بك فيه : يفتن لك ، ويعرض عليك ، وما يزال بك يعلمك ، وينفى عنك الشبه ، ويجلو لك الغوامض حتى تجد برد الراحة والاطمئنان .

وهو في تعليمه أستاذ ثقة ضليع ، وأب بر غيور : يتحرى الضبط ويتقى اللبس ، ويأنف من الادعاء ، لايجعل همه أن يقول وتسمع ، بل أن يقول فلا يفوتك شيء مما يقول ، فهو لذلك لايجمل القضية ، ولا يكتفي بالإلمام العابر بها ، ولكنه يبسط مطويها ، ويمد أطرافها ، ويقلبها على وجوهها المختلفة ، ولا يزال يلح عليها بالبيان والتفسير والتأويل ، بل بالمعاودة والتكرار بعض الأحيان ، حتى لايكاد يدع من بعده لقائل فيها مقالا .

فتراه في تحريه وتواضعه يقول مثلا : « ومن جواز الرفع في هذا الباب أني سمعت رجلين من العرب عربيين يقولان : كان عبد الله حسبك به رجلا »[1] ويقول : « اعلم أن كل شيء ابتدأناه في هذين البابين أولا هو القياس ، وجميع ما وصفناه من هذه اللغات سمعناه من الخليل ويونس عن العرب »[2] ويقول : « وقد

(١) الكتاب : ١ : ٢٣٠

(٢) المصدر السابق : ٣١٨



ذكر لى بعضهم أن الخليل قال: « أن مضمرة بعد إذن ، ولو كانت مما تضمر بعده أن فكانت بمنزلة اللام وحتى لاضمرتها إذا قلت : عبد الله إذن يأتيك » . فهنا ماروا . وأما ما سمعت منه فالأول[١] » ، ويقول : « ويكون فِعلا فى الاسم نحو إبل ، وهو قليل ، لانعلم فى الأسماء والصفات غيره[٢] » .

على أنه كان مع ذلك يمالن بالرأى حاسما جريئا ، لايتردد فيه ولا يصانع ، فتراه يقول مثلا : « وزعم الخليل أنه يجوز أن يقول الرجل : هذا رجل أخو زيد إذا أردت أن تشبهه بأخى زيد . وهذا قبيح ضعيف ، لايجوز إلا فى موضع الاضطرار . ولو جاز هذا لقلت هذا قصير الطويل ، تريد مثل الطويل[٣] . . . » أو يقول : « واعلم أن ناسا من العرب يغلطون فيقولون: إنهم أجمعون ذاهبون ، وإنك وزيد ذاهبان ، وذاك أن معناه معنى الابتداء[٤] ... » أو يقول : « ومن العرب من يقول فى ناب: نويب، فيجىء بالواو، لأن هذه الألف مبدلة من الواو أكثر ، وهو غلط منهم[٥] .

وتراه فى شرحه وتقريره يقول مثلا : « وتقول على هذا الحد : سرقتُ الليلة أهل الدار ، فتجرى الليلة على الفعل فى سعة الكلام ، كما قال : صيد عليه يومان ، وولد له ستون عاما ، فاللفظ يجرى على قوله : هذا معط زيدا درهما . والمعنى إنما هو فى الليلة، وصيد عليه فى اليومين، غير أنهم أوقعوا الفعل عليه لسعة الكلام . وكذلك لو قلت : هذا مخرج اليوم الدرهم ، وصائد اليوم الوحش . ومثل ما أجرى مجرى هذا فى سعة الكلام والاستخفاف قوله عز وجل : (بل مكر الليل والنهار) ، فالليل والنهار لايمكران ، ولكن المكر فيهما . فإن نونت فقلت : يا سارقا الليل أهل الدار كان حد الكلام أن يكون أهل الدار

---

(١) الكتاب : ١ : ٤١٢
(٢) الكتاب : ٢ : ٣١٥
(٣) الكتاب : ١ : ١٨١
(٤) المصدر السابق : ٣٩٠
(٥) الكتاب ٢ : ١٣٧



على سارق منصوبا وتكون الليلة ظرفا ؛ لأن هذا موضع انفصال ، وإن شئت أجريته على الفعل على سعة الكلام ، ولا يجوز ياسارق الليلةَ أهلِ الدار إلا فى شعر ؛ كراعية أن يفصلوا بين الجار والمجرور ؛ فإذا كان منوناً فهو بمنزل الفعل الناصب ، تكون الأسماء فيه منفصلة[١] » الخ .

وهو إذ يفضى إليك بالرأى لا يقتضيه ولا يحاول أن يفرضه : فإن يكن له يبسطه لك ويعمل على إقناعك به ، وإن يكن لغيره وكان موافقاً لرأيه عرضه وكف عنه ، وربما استحسنه أو عززه . أما إن كان مخالفاً لرأيه فلا يكف عنه ، بل ينقده ، ويعلن رأيه فيه . وقد يرجح غيره عليه ، وكثيرا ما يجادل الخليل ويحتج بكلامه عليه ، ثم ينقل إليك الجدال كما دار بينهما مجملا أو مفصلا .

فتراه مثلا حين يفضى إليك بالرأى يقول : « وأما يدا بيد فليس فيه إلا النصب ، لأنه لا يحسن أن تقول : بايعته ويدا بيد ، ولم يرد أن يخبر أنه بايعه ويده فى يده ، ولكنه أراد أن يقول : بايعته بالتعجيل ، ولا يبالى أقريباً كان أم بعيداً[٢] » . ويقول : « وقال الخليل : إن شئت جعلت رجعت عودك على بدئك مفعولا بمنزلة قولك : رجعت المال علىّ أى رددت المال على ، كأنه قال : ثنيت عودى على بدئى » ، أو يقول قبل ذلك : « وزعم الخليل أن قولهم : ربحت الدرهم درهما محال حتى تقول : فى الدرهم ، أو للدرهم . وكذلك وجدنا العرب تقول[٣] » . أو يقول : وتقول : إن تأتنى آتك وإذن أكرمك ، إذا جعلت الكلام على أوله ولم تقطعه وعطفته على الأول ، وإن جعلته مستقبلا نصبته ، وإن شئت رفعته على قول من ألغى . وهذا قول يونس ، وهو حسن ، لأنك إذا قطعته من الأول فهو بمنزلة قولك : فإذن أفعل[٤] ... » .

وتراه يقول حين لا يكون مايرويه موافقاً لرأيه : « ... وتفسير الخليل

---

(١) الكتاب : ١ : ٨٩ — ٩٠ (٢) المصدر السابق : ١٩٦ .
(٣) المصدر السابق : ١٩٧ (٤) المصدر السابق : ٤١٣ .



ذلك الأولُ بعيد ، إنما يجوز فى شعر أو فى اضطرار ، ولو ساغ هذا فى الأسماء لجاز أن تقول : اضرب الفاسقُ الخبيث ، تريد الذى يقال له : الفاسق الخبيث[١] ... » ، أو يقول : « وسألت الخليل عن قول الأعشى :

إن تركبوا فركوب الخيل عادتنا أو تنزلون فإنا معشر نزل

فقال : الكلام هاهنا على قولك : يكون كذا أو يكون كذا ، لما كان موضعها لو قال فيه: أتركبون لم ينقص المعنى ـ صار بمنزلة قولك: ولا سابق شيئاً[٢] وأما يونس فقال : أرفعه على الابتداء ، كأنه قال : أو أنتم نازلون وعلى هذا الوجه فسر الرفع فى الآية[٣] ، كأنه قال : أو هو يرسل رسولا ، كما قال طرفة : أو أنا مفتدى[٤] ، وقول يونس أسهل ، وأما الخليل فجعله بمنزلة قول زهير :

بدا لى أنى لست مدرك مامضى ولا سابقٍ شيئاً إذا كان جائيا

والإشراك على هذا التوهم بعيد كبعد ولا سابق شيئاً ، ألا ترى أنه لو كان هذا كهذا لكان فى الفاء والواو[٥] ... » أو يقول : « وزعم الخليل أنهم نصبوا المضاف نحو ياعبد الله ويا أخانا والنكرة حين قالوا : يارجلا صالحا حين طال الكلام ، كما نصبوا هو قبلك وهو بعدك ، ورفعوا المفرد كما رفعوا قبل وبعد وموضعهما واحد ، وذلك قولك : يازيد وياعمرو ، وتركوا التنوين فى المفرد كما

---

(١) الكتاب : ١ : ٢٩٨ .

(٢) يريد « أن تنزلون رفع حملا على معنى إن تركبوا ، لأن معناه يقارب تركبون ، فكأنه قال : أتركبون فذاك عادتنا ، أو تنزلون فنحن معروفون بذلك (راجع تحصيل عين الذهب بذيل الصفحة ٤٢٩ من الجزء الأول من الكتاب) .

(٣) يريد آية : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا ، فى قراءة يرسل بالرفع .

(٤) يشير إلى قول طرفة :

ولكن مولاى امرؤ هو خانق على الشكر والتسآل أو أنا مفتدى

(٥) راجع الكتاب : ١ : ٤٢٨ — ٤٢٩ .



تركوه فى قبل . قلت : أرأيت قولهم : يا زيد الطويل علام نصبوا الطويل ؟ قال : نصب لأنه صفة المنصوب ، وقال : وإن شئت كان نصباً على أعنى ، فقلت : أرأيت الرفع على أى شىء هو إذا قال : يا زيد الطويل ؟ قال : هو صفة لمرفوع. قلت : ألست قد زعمت أن هذا المرفوع فى موضع نصب؟ فلم لا يكون كقوله : لقيته أمس الأحدث ؟ قال : من قبل أن كل اسم مفرد فى النداء مرفوع أبداً ، وليس كل اسم فى موضع أمس يكون مجروراً ، فلما اطرد الرفع فى كل مفرد فى النداء صار عندهم بمنزلة ما يرتفع بالابتداء أو بالفعل ، فجعلوا وصفه إذا كان مفرداً بمنزلته . قلت : أفرأيت[1] . . . »

وتراه حين تتشابه المسائل، وتدق الفروق ، ويلحظ منك الحيرة والتساؤل — يتولى عنك السؤال وعن نفسه الجواب ، فيقول مثلا : « فإن قلت: ما بال «قال» صُرف اسمَ رجل ، وقيل التى هى فُعِل وهما محدودتان عن البناء الذى هو الأصل؟ فليس يدخل هذا على أحد فى هذا القول، من قبل أنك خففت فَعَل وفُعِل نفسه كما خففت الحركة من علم ، وذلك من لغة بنى تميم ، فتقول : علْم ، كما حذفت الهمزة من يرى ونحوها ، فلما خفت وجاءت على مثال ما هو فى الأسماء صرفت[2] » .

وقد يتولى عنك السؤال ثم ينقل إليك الجواب نقلا : كقوله : « فإن قلت: ما بال العرب قد قالت : إنى وكأنى ولعلى ولكنى ؟ فإنه زعم أن هذه الحروف اجتمع فيها أنها كثيرة فى كلامهم ، وأنهم يستثقلون فى كلامهم التضعيف ، فلما اجتمع كثرة استعمالهم إياها وتضعيف الحروف — حذفوا التى تلى الياء .فإن قلت: لعلى ليس فيها نون ، فإنه زعم أن اللام قريبة من النون ، وهى أقرب الحروف من النون . ألا ترى أن النون قد تدغم مع اللام حتى تبدل مكانها لام ، وذلك لقربها منها ؟ فحذفوا هذه النون كما يحذفون ما يكثر استعمالهم إياه[3] » .

---

(١) الكتاب : ١ : ٣٠٣
(٢) الكتاب : ٢ : ١٥
(٣) الكتاب : ١ : ٣٨٦



قيمته :

صنف سيبويه كتابه فى النحو والصرف، وهما دستور العربية، وعيار التعبير بها فى الإعراب والبنية جميعاً . واللغة أداة التفاهم ، ومعرض العواطف ، وسجل الثقافة ، وصلة الماضى بالحاضر على مر القرون .

فموضوع الكتاب إذاً جليل، بل من أجل الموضوعات شأناً وأكبرها خطراً. وقد صنع له سيبويه فى الكتاب أعظم ما يصنع عالم لموضوعه ، إذ آتاه حقه من التقصى والاستيعاب ، ومن الدرس والنقد ، وجهد ما أسعفه الجهد الكبير والعقل المستنير لتحرير المسائل وترتيب الموضوعات ، حتى استحق كتابه فى النحو والصرف أن يكون الكتاب ، واستحق هو به أن يكون فى النحويين الإمام .

وأحسب أن لو وزن الكتاب بكتب النحو كافة لرجحها وزناً وأربى عليها قيمة ، لا من الناحية التاريخية وحدها ، ولكن من الناحية العلمية معها ، بل من الناحية العلمية قبلها ؛ ففيه كل ما فيها وزيادة ، من النفائس المصونة والكنوز المذخورة(١) أو هو فى القليل أصل وهى فروع منه ، ولا يتعاظم الأصول إذا جزّت فروعها أن تنبت بديلا منها ربما كان خيراً وأفره .

وما كاد الكتاب يخرج للناس ، ويطلع العلماء عليه حتى فتنوا به ، وخلوا إليه ، يتدارسون مسائله ، ويستنسخون أصوله ، ويديرون البحوث عليه ، ما كان لها فيه مكان ، فكان بحق مبعث نهضة علمية قوية ، ومثار جهود فكرية متصلة . كان لها فى خدمة العربية خاصة والثقافة الإسلامية عامة ذكر باق وأثر جليل .

صنفوا فى شرحه ، والتعليق عليه ، والتمهيد له ، وترتيب مسائله و حل

---

(١) راجع على سبيل المثال: باب مايصير إذا كان علما فى الإضافة إلخ:٢:٨٩، وباب ما يكون ما قبل المحلوف به عوضا من اللفظ بالواو : ٢ : ١٤٥ .



مشكلاته ، وتوضيح غرائبه ، وشرح شواهده ، وتجريد أحكامه ، واختصروه ، واختلفوا فيه : ما بين متعصب عليه ينتقده ، ومتعصب له ينافح عنه ، وانتصر لهؤلاء وأولئك أعوان ومؤيدون . ومنهم من انقطع له حتى حفظه أو مهر فيه ، وأتقن فهمه . وما أعرف نحويا دارساً أو مؤلفاً إلا تلمذ له وأخذ عنه من طريق مباشرة أو غير مباشرة ، بل لا أعرف متكلما بالعربية أو قارئاً لها إلا وهو مدين له فى علم ما علم من أسباب استقامة اللسان وسلامة البيان على وجه من الوجوه .

وقد رجعت إلى بغية الوعاة وكشف الظنون ، أتتبع دراسات الكتاب ، وأستوعبها إحصاء وعدا ، فإذا للأندلس وما يسامتها من بر المغرب قرابة أربعين ، وللعراق وما يليه قرابة خمس وعشرين . ولمصر أربع لا غير . وليس هذا التفاوت بعجيب . ففى الشرق كان مقر الخلافة العباسية ، وإليه كانت رحلة العلماء والشعراء وأصحاب الكفاية والمزية عامة . وفى الغرب كان مقر دولة أخرى ، عربية تنافس الخلافة ، وتحرص أن تجاريها فى كل ميدان .

فمعقول أن تكون حلبة السبق من الدولتين . وأن يرد إليهما الفضل أولا وثانياً فى تشييد الحضارة الإسلامية ورفع منار العلوم والفنون ، ثم يرد ثالثا إلى سائر الأقطار على تفاوت فى الجهد وحسن البلاء ، وعلى نحو من متابعة الحاضرة والاقتباس منها قريب أو بعيد .

فمن شرح الكتاب أو صنف عليه من علماء الأندلس وما يتصل بها : أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدى الإشبيلى المتوفى سنة ٣٧٩ فى بعض الأقوال ، وأحمد بن أبان الأندلسى المتوفى سنة ٣٨٢ ، وأبو نصر هارون بن موسى القرطبى المتوفى سنة ٤٠١ ، ويوسف بن سليمان الشنتمرى المعروف بالأعلم المتوفى سنة ٤٧٦ ، وأبو الحسن على بن أحمد المعروف بابن الباذش الغرناطى المتوفى سنة ٥٢٨ ، وأبو بكر محمد بن مسعود الخُشَنِىّ الأندلسى المتوفى سنة ٥٤٤ ، ومحمد بن أحمد ابن هشام اللخمى السبتى المتوفى سنة ٥٥٧ أو بعدها ، وأبو الحسن على بن محمد

المعروف بابن خروف الأندلسي المتوفى سنة ٦٠٦ أو قبل ذلك أو بعده بقليل .
وكان الأندلسيون على ما رأيت هم الكثرة التي لا ذكر للقلة معها ولا حساب .

ومن علماء البلاد المشرقية : أبو عثمان بكر بن محمد المازني المتوفى سنة ٢٤٨ تقريباً، وأبو العباس محمد بن يزيد المبرد المتوفى سنة ٢٨٥ ، وأبو إسحاق إبراهيم ابن السرى الزجاج المتوفى سنة ٣١١ ، وأبو الحسن علي بن سليمان الأخفش الأصغر المتوفى سنة ٣١٥ تقريباً ، وأبو علي الحسن بن أحمد الفارسي المتوفى سنة ٣٧٧ ، وأبو الحسن علي بن عيسى الرماني المتوفى سنة ٣٨٤ ، وأبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي المتوفى سنة ٣٨٥ .

وشرحه أو صنف عليه من المصريين . أبو جعفر بن محمد المعروف بابن النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ ، وأبو عبد الغني سليمان بن بنين الدقيق المتوفى سنة ٦١٤ ، وابن الحاجب عثمان بن علي المتوفى سنة ٦٤٦ .

وانتقده أو انتصر له من علماء الأندلس . أبو الحسن سليمان بن محمد المالقي المعروف بابن الطراوة المتوفى سنة ٥٢٨، وأبو الحسن علي بن محمد الإشبيلي المعروف بابن الضائع المتوفى سنة ٦٨٠ . ومن المشرق : أبو محمد عبيد الله بن محمد بن أبي بردة ، ومن مصر أحمد بن محمد بن ولاد المتوفى سنة ٣٣٢ .

وجرد أحكامه أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي الغرناطي المتوفى سنة ٧٤٥ ، واختصره إبراهيم بن محمد اليمني من أهل المائة السادسة .

ومن حفظه أو تخصص فيه من علماء الغرب : أبو القاسم إبراهيم بن عثمان القيرواني المتوفى سنة ٣٤٦ ، وأبو القاسم خلف بن يوسف الأندلسي الشنتريني المتوفى سنة ٥٣٢ ، وأبو عامر بن عبد الله بن يحيى الإشبيلي المتوفى نحو الخمسين وخمسمائة ، ومحمد بن حجاج الإشبيلي المعروف بابن المطرفي المتوفى سنة ٧٠٦ تقريبا . ومن علماء المشرق : أبو بكر عبيد الله الخياط الأصبهاني من أهل المائة الرابعة ، وإبراهيم بن مسعود المعروف بالوجيه الصغير المتوفى سنة ٥٩٠ .

(م — ١٣)



هذا وإن للبلاغة ولا سيما المعانى صلة وثيقة بالنحو كما لا يخفى ، ومثلها فى ذلك أصول الفقه والنقد ، وإن يكن لكل وجهة وغاية غير وجهة الآخر وغايته: فالمعانى يدرس أساليب التعبير فى أحوالها المختلفة وصورها المتعددة بما يكون فيها من ذكر وحذف وإظهار وإضمار وفصل ووصل وما إلى ذلك ليكشف عن أسرارها المصونة ويستخرج لطائفها المكنونة ، حتى ليصح أن يسمى بالبلاغة النحوية أو بالنحو البلاغى .

وعنى عبد القاهر الجرجانى فى دلائل الإعجاز بالدفاع عن النحو وبيان الحاجة إليه فى الفهم والتعبير ، وتكلم عن نظم الكلام وعمل النحو فيه ومكانه منه ، وعن نظم الكلام وارتباطه فى معناه بتوخى معنى النحو والقصد إليه[1] .

والأصول يستعين النحو ، ويتوسل به فى تقرير القواعد لإثبات الحكم واستنباطه ، والنقد الأدبى يستهديه ، ويحتكم إليه فى تحليل النص والدلالة على مكانه من الكلام الجيد فى الصياغة والإعراب .

وكتاب سيبويه كما لا يخفى أقدم مراجع النحو التى وصلت إلينا وفيه مع ذلك نظرات صائبة ولمحات خاطفة فى المجاز والتشبيه ، وسيأتى عرض صور منها قريباً . وقد التزم فيه سيبويه أن يرد الآراء المروية والمسائل المأخوذة إلى أصحابها،فيصح لنا أن نعد ما يبقى من الكتاب بعد هذه وتلك من عمله واجتهاده، غير مشارك فيه ولا مدفوع عنه .

وقد قبس عبد القاهر منه فى أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز جميعاً : فقال سيبويه فى باب عنوانه (هذا باب استعمال الفعل فى اللفظ لا فى المعنى) : « ومما جاء على اتساع الكلام والاختصار قوله تعالى : واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها ، وإنما يريد أهل القرية فاختصر ، وعمل الفعل فى القرية ، كما كان

---

(١) راجع دلائل الاعجاز : ٢٣ ، ٦٣ ، ٢٨٢ على الترتيب .



عاملا فى الأهل لو كان هنا . ومثله : بل مكر الليل والنهار ، وإنما المعنى : بل مكركم فى الليل والنهار . . . ومثله فى الاتساع قوله عز وجل : ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، فلم يشبهوا بما ينعق ، وإنما شبهوا بالمنعوق به . وإنما المعنى : مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به الذى لا يسمع ، ولكنه جاء على سعة الكلام والإيجاز لعلم المخاطب بالمعنى ومثل ذلك من كلامهم بنو فلان يطؤهم الطريق ، وإنما يطؤهم أهل الطريق . . . ومن ذلك قولهم : أكلت بلدة كذا وكذا ، وأكلت أرض كذا ، وكذا ، إنما يريد أنه أكل من ذلك وشرب وأصاب من خيرها [١] » .

وقال عبد القاهر فى أسرار البلاغة : « واعلم أن الكلمة كما توصف بالمجاز لنقلك لها عن معناها كما مضى ، فقد توصف به لنقلها عن حكم كان لها إلى حكم ليس هو بحقيقة فيها ، ومثال ذلك أن المضاف إليه يكتسى إعراب المضاف فى نحو : واسأل القرية ، والأصل : واسأل أهل القرية . فالحكم الذى يجب لأهل القرية فى الأصل وعلى الحقيقة هو الجر . والنصب فيها مجاز ، وهكذا قولهم : بنو فلان تطؤهم الطريق ، يريدون أهل الطريق [٢] » ولا تزال أمثلة سيبويه الآنفة تتردد فى بابى المجاز والتشبيه من كتب البيان الأخرى أيضاً [٣] .

وقال سيبويه من باب عنوانه : « هذا باب من النكرة يجرى مجرى ما فيه الألف واللام من المصادر والأسماء) : « وإن شئت رفعت هذا كله . فجعلت الآخر هو الأول فجاز على سعة الكلام ، من ذلك قول الخنساء :

ترتع ما رتعت حتى إذا ادكرت فإنما هى إقبـــال وإدبار

فجعلها الإقبال والإدبار ، فجاز على سعة الكلام ، كقولك : نهارك صائم وليلك قائم [٤] ... »

---

(١) الكتاب : ١ : ١٠٨ — ١٠٩ (٢) أسرار البلاغة : ٣٤١ — ٣٤٢

(٣) راجع الطراز : ١ : ٧٢ ، ٧٦ — ٨٧ ، ٢٩٠ .

(٤) الكتاب ١ : ١٦٩



وقال عبد القاهر : « ومما طريق المجاز فيه الحكم قول الخنساء : ترتع ما رتعت البيت ، وذلك أنها لم ترد بالإقبال والإدبار غير معناهما فتكون قد تجوزت في نفس الكلمة ، وإنما تجوزت في أن جعلتها لكثرة ما تقبل وتدبر ولغلبة ذاك عليها واتصاله بها وأنه لم يكن لها حال غيرهما كأنها قد تجسمت من الإقبال والإدبار[١] .

وقال سيبويه في (باب ما يحسن عليه السكوت في هذه الأحرف الخمسة لإضمارك ما يكون مستقراً لها وموضعا لو أظهرته ، وليس هذا المضمر بنفس المظهر) : « وذلك إن حالا وإن ولدا وإن عددا ، أي إن لهم مالا فالذي أضمر لهم ، ويقول الرجل للرجل : هل لكم أحد إن الناس ألب عليكم ؟ فيقول : إن زيداً وإن عمراً ، أي إن لنا . وقال الأعشى :

إن محلا وإن مرتحلا ولمن في السفر ما مضى مهلا

وتقول : إن غيرها إبلا وشاء ، كأنه قال : إن لنا غيرها إبلا وشاء ، أو عندنا غيرها إبلا وشاء ؛ فالذي يضمر هذا النحو وما أشبهه ؛ وانتصب الإبل والشاء كانتصاب فارس إذا قلت : ما في الناس مثله فارسا ؛ ومثل ذلك قول الشاعر :

يا ليت أيام الصبا رواجعا

فهذا كقوله : ألا ماء باردا ؛ كأنه قال : ألا ماء لنا باردا . وكأنه قال : يا ليت لنا أيام الصبا رواجعا ، وكأنه قال : يا ليت أيام الصبا أقبلت رواجع[٢] .

وقد نقل عبد القاهر هذا النص كله إلى دلائل الإعجاز[٣] وعلق عليه فارجع إليه هناك إن شئت .

ويعرض علماء الأصول في كتبهم لكثير من مسائل النحو ، يقدمونها بين يدي بحوثهم أو يتيممون البحوث عليها ، مثل أقسام الكلام ، والأمر

---

(١) دلائل الإعجاز : ٢٣٣

(٢) الكتاب : ١ : ٢٨٣ - ٢٨٤

(٣) ص : ٢٤٧



والنهى ، وألفاظ العموم ، والاستثناء ، وحروف المعانى[١] .

ونقل الثعالبى من الكتاب لسر العربية من كتابه فقه اللغة وسر العربية : فصلُ إضافة الاسم إلى الفعل من باب مايضاف من الأفعال إلى الأسماء ، وفصل جمع شيئين من اثنين من باب مالفظ به مما هو مثنى كما لفظ بالجمع ، وفصل وقوع فعل واحد على عدة معان ينظر إلى باب اللفظ للمعانى[٢] .

وقبس كذلك من الكتاب أبو محمد عبد الله بن سنان الخفاجى لكتابه سر الفصاحة ، فنظر فى (باب الكلام فى المعانى المفردة من كتابه إلى باب الاستقامة من الكلام والإحالة) من كتاب سيبويه[٣] .

وسبق حين الكلام عن مادة الكتاب أنه تحدث فى باب الإدغام عن مخارج الحروف وأقسامها ، وتحدث فى باب ما يحتمل الشعر عن ضروب مختلفة من الضرائر التى يصير إليها الشعراء فى بعض ما يقولون من الشعر . ومباحث الباب الأول تدخل فى صميم علم التجويد ، ومباحث الباب الآخر تتصل بالنقد وقرض الشعر .

ونلاحظ أنه لاينقل عن أحد من شيوخه من النصوص التى أشرنا إليها هنا ، وإذا نستطيع أن نقول : إن سيبويه بما عرض له فى الكتاب من البلاغة ، وما أكثر فيه من التحليل والموازنة واستخراج الأحكام وتصحيحها بالقياس ، وما جمع فيه من القضايا والمسائل التى يعتمد عليها أصول الفقه والنقد الأدبى والتجويد — يعد واضع هذه العلوم الأربعة ، أو يعد فى الأقل واضع البلاغة[٤] وممهد الطريق للثلاثة الباقية ، ونستطيع كذلك أن نقول : إن كتابه ليس أعظم

---

(١) راجع اللمع فى أصول الفقه : ٥ ، ٧ ، ١٧ ، ٢٦ ، ٤٢ .

(٢) راجع على الترتيب فقه اللغة وسر العربية : ٣٢٢ ، ٣٢٨ ، ٣٧٨ والكتاب : ١ : ٤٦٠ ، ٧٠ و ٢ : ٢٠١ .

(٣) راجع سر الفصاحة : ٢٢٧ ، والكتاب : ١ : ٨ .

(٤) راجع تاريخ البلاغة والتعريف برجالها : ٤٣ — ٥٧ .



مراجع النحو والصرف عامة وكفى ، ولكنه مع ذلك أصل من أصول الثقافة الإسلامية ، فى غير ناحية من نواحيها المتعددة : انشق عنها . أو هدى إليها وأوحى بها .

ثناء القدماء عليه:

كان القدماء يكبرون الكتاب ويثنون عليه ، ويعجبون به ، حتى الذين استكثروه من سيبويه ، وزعموا أنه مشارك فيه . فدعواهم هذه لاتدل من قرب أو بعد على انتقاص الكتاب وسوء الرأى فيه ، وإنما تدل على استعظام أمره وجلالة خطره ، وكأنهم رأوا أنه بذلك لاينبغى أن يكون من عمل واحد . ولكن من عمل جماعة تجتمع له ، وتتعاون عليه .

لاخلاف بينهم إذا فى الحكم على الكتاب والرأى فيه ، وإنما الخلاف فى جملته راجع إلى ناحية الحكم وأسبابه وطريقة التعبير عنه ، وهذا بعض مايقولون :

قال فى الفهرست : « وكان المازنى يقول : من أراد أن يعمل كتاباً كبيراً فى النحو بعد كتاب سيبويه فليستحى[1] » وروى فى تاريخ بغداد أن الجاحظ قال « أردت الخروج إلى محمد بن عبد الملك ؛ ففكرت فى شىء أهديه له ؛ فلم أجد شيئا أشرف من كتاب سيبويه . فقلت له : أردت أن أهدى لك شيئا ، ففكرت فإذا كل شىء عندك ، فلم أر أشرف من هذا الكتاب ، وهو كتاب اشتريته من ميراث الفراء . فقال : والله ماأهديت إلى شيئاً أحب إلى منه[2] » .

وفى وفيات الأعيان : « أن الجاحظ لما وصل إلى ابن الزيات بكتاب سيبويه أعلمه به قبل إحضاره ، فقال له ابن الزيات : أو ظننت أن خزانتنا خالية من هذا الكتاب ؟ فقال الجاحظ : ماظننت ذلك ، ولكنها بخط الفراء ومقابلة

---

(١) ص : ٨٦ . (٢) حـ : ١٢ ، ص : ١٩٦ .



الكسائى وتهذيب عمرو بن بحر الجاحظ ، يعنى نفسه ، فقال ابن الزيات ، هذه أجل نسخة توجد وأعزها »[١] .

وقال فى بغية الوعاة : « وكان المبرد يقول لمن أراد أن يقرأ عليه كتاب سيبويه : هل ركبت البحر تعظيما واستصعابا لما فيه[٢] » . وقال فى مراتب النحويين : « وألف كتابه الذى سماه الناس قرآن النحو[٣] » وقال فى أخبار النحويين البصريين : « وعمل كتابه الذى لم يسبقه إلى مثله أحد قبله ، ولم يلحق به من بعده[٤] » .

وقال فى تهذيب اللغة : « وقد نظرت فى كتابه (سيبويه) فرأيت فيه علما جما »[٥] . وقال فى معجم الأدباء : « وذكر صاعد بن أحمد الجيانى من أهل الأندلس فى كتابه قال : لا أعرف كتاباً ألف فى علم من العلوم قديمها وحديثها ، فاشتمل على جميع ذلك العلم ، وأحاط بأجزاء ذلك الفن غير ثلاثة كتب : أحدها المجسطى لبطليموس فى علم هيئة الأفلاك ، والثانى كتاب أرسطاطاليس فى علم المنطق ، والثالث كتاب سيبويه البصرى فى النحو ، فإن كل واحد من هذه لم يشذ عنه من أصول فنه شىء إلا مالا خطر له[٦] » .

وقد نفس أبو بكر بن السراج على سيبويه شدة إقبال الناس على الكتاب ، فنقل إلى كتابه من كتب الكوفيين ما ليس فى كتب البصريين ؛ ليزيد ماجاء فيه على مافى الكتاب فينصرف الناس عنه ، حتى لقد قال فيما حكى عنه : لو علمت أن الناس يشتغلون بكتاب سيبويه بعد أن قرءوا كتابى علىّ ماصنعته[٧] .

وبعد ، فقد رأيت أن أذيل هذا الكتاب بفهارس لشواهد سيبويه ، وهذه هى :

---

(١) حـ : ٣ ، ص : ١٣٣

(٢) ص : ٢٦٦ .

(٣) الورقة : ١٠٦

(٤) ص : ٤٨ .

(٥) الورقة : ٩

(٦) حـ : ٦ ، ص : ٨٢ .

(٧) شرح الدمامينى للتسهيل . نسخة خاصة مخطوطة ، فصل (لأداة الشرط صدر الكلام) .



فهارس شواهد

١ — من القرآن الكريم

(ك)

(ل)

(و)



(ى)

يغشى طائفة منكم : ١ : ٤٧
ينصر من يشاء وهو العزيز ، ١ : ١٩١
يوم التناد : ٢ : ٢٨٩
يوما لاتجزى نفس : ١ : ١٩٣

٢ — من الحديث الشريف والآثار

إن الله ينهاكم عن قيل وقال[1] . ٢ : ٣٦
سبوحا قدوسا ، رب الملائكة والروح .[2] : ١ : ١٦٤
كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه وينصرانه[3]
مامن أيام أحب إلى الله فيها الصوم منه فى عشر ذى الحجة[4] : ١ : ٢٣٢
ونخلع ونترك من يفجرك[5] : ١ : ٣٧

٣ — من الشعر

(أ)

الحق أن دار الرباب تباعدت : ١ : ٤٦٢
آليت حب العراق اليوم أطعمه : ١ : ١٧
أأن رأت رجلا أعشى أضربه : ٢ : ٤٧٦ ، ٢ : ١٦٧
أبا ثابت لاتعلقنك رماحنا : ٢ : ١٥٠
أبا لأراجيز يا بن اللؤم توعدنى : ١ : ٦١

(١) اللسان : قول .
(٢) صحيح مسلم : ٢ : ٥١ .
(٣) الجامع الصغير بشرح السراج المنير : ٣ : ٨٦ .
(٤) المصدر السابق : ٣ : ٢٥٣ .
(٥) من القنوت المروى عن ابن مسعود ، يقنت به فى الوتر عند بعض المذاهب .
وقد أفدت فى بعض ما ذكرت هنا من طبعة الكتاب بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .



(ب)

(غ)

(ف)

(ق)

(ل)

(م)



٤ — من الرجز

ويتبين من هذه الفهارس أن عدة الشواهد من القرآن الكريم : ٣٧٣ ، ومن الشعر : ٨٧١ ، ومن الرجز : ١٩٠ ، فجملة الشعر والرجز : ١٠٦١ ، وقد ذكر الجرمى فيما سبق[1] أن جملتها : ١٠٥٠ ، ففرق ما بين الإحصاءين : ١١ ، وهو فرق يسير بالكبير ، ولا سيما إذا قرن إلى جملة الشواهد من النوعين .

ويخيل إلى أن كمال الاتفاق فى إحصاء هذه الشواهد غير مرجو ولا مأمول ، تقف دونه عوائق وعراقيل ، لا أدرى كيف يمكن تخطيها والتغلب عليها ؟ فنسخ الكتاب كثيرة متعددة ، والمرجح حينئذ أن تتخالف فيها عدة الشواهد ؟ كما تتخالف عبارة النص . وها قد أورد الشنتمرى بيتين ليسا فى المطبوعة ، وذكر أنهما من إنشاد سيبويه ، كما يذكر ذلك مع سائر شواهده[2] .

وورد فى المطبوعة : « وللعجاج :

يا صاح ما هاج الدموع الذرفاً ؟

وقال العجاج :

من طلل كالأتحمى أنهجاً »

فقال الشنتمرى يعلق على ذلك : « ووقع هذان البيتان متصلين ، مع اختلاف قوافيهما ، فإما أن يكون سيبويه وصلهما وإن لم يكونا من أرجوزة واحدة ؛ لأن قائلهما واحد وهو العجاج ، وإما أن يكون فصل بينهما بذكر العجاج مرة أخرى ، فسقط ذلك من الكتاب » وقال المصحح يعلق على قول الشنتمرى : « وجميع نسخ الكتاب التى بيدنا مفصول فيها بين البيتين بذكر العجاج كما ترى[3] » .

وكان الأئمة يدونون فى نسخهم شواهد من إنشادهم ، يضيفونها إلى شواهد الكتاب ، وقد أورد الشنتمرى شواهد للمبرد ، والمازنى ، والجرمى فى كتابه تحصيل عين الذهب[4] . وصحيح أن الشنتمرى رحمه الله نسبها إليهم ، فأفهم

---

(١) الصفحة : ١٤٥ من هذا الكتاب .

(٢) الكتاب : ٢ : ٣٦ بالحاشية .

(٣) المصدر السابق : ٢٩٩ بالحاشيتين : والأتحمى : ضرب من البرود . أنهج : بلى .

(٤) راجع الكتاب ١ : حاشية ص : ٩٤ ، ١٠٨ ، والكتاب : ٢ : حاشية ص : ٣٠٨ .



أنها ليست من شواهد سيبويه ، ولكن هل يمكن الاطمئنان إلى أن العمل كله جرى على هذا النمط ، وفى كل عصر ، دون اشتباه أو تخليط ؟

ونختم القول كما بدأنا بحمد الله ، والصلاة والسلام على رسل الله ، وعلى محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وعليهم أجمعين .



فهرس الكتاب

رقم الإيداع ٢٥٩٨ لسنة ١٩٧٩

ISBN ٩٧٧ / ٧٢٤٩ — ٩ — ٣